العقد الفريد

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

المتوفى سنة ٣٢٨ هـ

بتحقيق

محمد سعيد العريان

الجزء السابع

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى

[الطبعة الثانية]

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

١٣٧٢ — ١٩٥٣

كتاب الياقوتة الثانية

في علم الألحان واختلاف الناس فيه

لابن عبد ربه — قال أبو عمر أحمد بن عبد ربه : قد مضى قولنا في أعاريض الشعر وعلل القوافي ، وفسرنا جميع ذلك بالمنظوم والمنثور .

5 ونحن قائلون بعون الله وإذنه في علم الألحان واختلاف الناس فيه ، ومن كرهه ، ولأي وجه كره ؛ ومن استحسنه ، ولأي وجه استحسَن ؛ وكرهنا أن يكون كتابنا هذا بعد اشتماله على فنون الآداب والحكم والنوادر والأمثال ، عطلا من هذه الصناعة ، التي هي مراد السمع ، ومرتع النفس وربيع القلب ، ومجال الهوى ، ومسلاة الكئيب ، وأنس الوحيد ، وزاد الراكب ؛ لعظم موقع الصوت 10 الحسن من القلب ، وأخذه بمجامع النفس .

ابن مسلم وابن دأب — قال أبو سعيد بن مسلم : قلت لابن دأب : قد أخذت من كل شيء بطرف غير شيء واحد ، فلا أدرى ما صنعت فيه . فقال : لعلك تريد الغِناء ؟ قلت : أجل . قال : أما إنك لو شهدتني وأنا أترنم بشعر كثيّر عزة حيث يقول :

5 وما مَرَّ من يوْمٍ عليّ كيوْمِها ... وإنْ عظمت أيامُ أُخرى وجلّتِ

لاسترخت تكّتُك ! قال : قلت : أتقول لي هذا ؟ قال : إي والله ، وللمهديّ أمير المؤمنين كنت أقوله .

① فصل في الصوت الحسن

للمفسرين — قال بعض أهل التفسير في قول الله تعالى : ﴿ يزيد في الخَلْقِ ما يشاء ﴾ : هو الصوت الحسن .

النبي صلى الله عليه وسلم

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبى موسى الأشعرى لما أعجبه حُسْنُ صوته : لقد أوتيتَ مِزْماراً من مزامير آلِ داود .

لأهل الطب

وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يسْرى فى الجسم ، ويجرى فى العروق ، فيصفو له الدم، ويرتاح له القلب ، وتنمو له النفس ، وتهتز الجوارح ، ٥ وتخف الحركات ؛ ومن ذلك كرهوا للطفل أن ينوّم على أثر البكاء حتى يرقُص ويطرّب .

ليلى الأخيلية والحجاج

وقالت ليلى الأخيلية(١) للحجاج حين سألها عن ولدها وأعجبه ما رأى من شبابه : إنى والله ما حملتُه سهواً ، ولا وضعتُه يَتْناً ، ولا أرضعته غَيلا ، ولا أنمتُه تَئِقا . تعنى : لم أنوّمه مستوحشاً باكيا ؛ وقولها : ما حملته سهوا ، تعنى فى بقايا ١٠ الحيض ؛ ويقال : حملت المرأة وُضعاً وتُضعاً ، إذا حملت فى استقبال الحيض ؛ وقولها : ولا وضعته يتنا ، تعنى منكسا ؛ وقولها : ولا أرضعته غيلا ، تعنى لبناً فاسدا .

للفلاسفة

وزعمت الفلاسفة أن النغم فضلٌ بقى من المنطق لم يقدر اللسان على استخراجه فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع ، فلما ظهر عشقته النفس ١٥ وحنّ إليه الروح ؛ ولذلك قال أفلاطون : لا ينبغى أن تمنع النفس من معاشقة بعضها بعضا ؛ ألا ترى أن أهل الصناعات كلّها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ، ترنّموا بالألحان ، فاستراحت لها أنفسهم .

وليس من أحد كائناً من كان إلا وهو يطرب من صوت نفسه ، ويعجبه طنين رأسه ؛ ولو لم يكن من فضل الصوت إلا أنه ليس فى الأرض لذة تكتسب ٢٠ من مأكل أو ملبس أو مشرب أو نكاح أو صيد ، إلا وفيه معاناةٌ على البدن ، وتعبٌ على الجوارح . غيره ، لكفى .

وقد يُتوصل بالألحان الحِسان إلى خير الدنيا والآخرة ؛ ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق ، من اصطناع المعروف ، وصلة الرحم ، والذبّ عن

(١) فى بعض الأصول واللسان « أم تأبط شرا » .

الإعراض ، والتجاوز عن الذنوب ؛ وقد يبكى الرجل بها على خطيئته ، ويرق القلب من قسوته ، ويتذكر نعيم الملكوت ويمثله فى ضميره .

وكان أبو يوسف القاضى ربما حضر مجلس الرشيد وفيه الغناء ، فيجعل مكان السرور به بكاء ، كأنه يتذكر به نعيم الآخرة !

لابن أبى دواد

وقال أحمد بن أبى دُواد إن كنت لأسمع الغناء من مخارق عند المعتصم ، فيقع على البكاء !

حتى إن البهائم لتحنّ إلى الصوت الحسن وتعرف فضله ؛ وقال العتابى وذكر رجلا ، فقال : والله إن جليسه لِطيبِ عشرته لَأَطْرَبُ من الإبل على الحداء ، والنحل على الغناء .

لصاحب الفلاحات

وكان صاحب الفلاحات يقول بأنّ النحل أطربُ الحيوان كله إلى الغناء ، وإن أفراخها لَتُسْتنزَلُ بمثل الزَّجل والصوت الحسن .

قال الراجز :

والطَّيرُ قد يسوقه للموْتِ * إصغاؤُهُ إلى حَنِين الصَّوْتِ

وبعد ، فهل خلق الله شيئا أوقع بالقلوب وأشد اختلاساً للعقول ، من الصوت الحسن ، لاسيما إذا كان من وجهٍ حسن ، كما قال الشاعر : ١٥

رُبَّ سَماعٍ حَسَنٍ * سمعتُه من حَسَنِ
مُقَرِّبٌ من فَرَجٍ * مُبعِّدٌ من حَزَنِ
لا فارَقانى أبداً * فى صحةٍ من بدنى

وهل على الأرض رِعديد مستطار الفؤاد ، يغنَّى بقول جرير بن الخطفى :

قل للجبانِ إذا تأخر سَرْجُه * هل أنت من شَرَكِ المَنِيَّةِ ناجى ٢٠

إلا ثاب إليه روحُه ، وقوِىَ قلبه ؟ أم على الأرض بخيل قد تقفّعت أطرافه لؤما ، ثم غنى بقول حاتم الطائى :

يَرى البخيلُ سبيلَ المـالِ واحدةً * إنّ الجوادَ يرى فى ماله سُبُلا

إلا انبسطتْ أناملُه ورشحتْ أطرافه ؟ أم هل على الأرض غريب نازح الدار بعيد المحل ، يغنى بشعر على بن الجهم :

ياوَحشتا للغريبِ فى البلدِ النّـ ＊ ـازحِ ماذا بنفسه صَـنَعا

فارقَ أحبابه فما انتفَعـوا ＊ بالعيْشِ من بعدِه ولا انتفَعا

٥ يقـولُ فى نأيِهِ وغُربتِه ＊ عدلٌ منَ آللهِ كلُّ ماصنعا

إلا انقطعت كبده حنينا إلى وطنه ، وتشوّقاً إلى سكنِه ؟

اختلاف الناس فى الغناء

اختلف الناس فى الغنـاء ، فأجازه عامةُ أهلِ الحجاز ، وكرِهه عامة أهل العراق .

١٠ فمن حُجّة من أجازه أن أصله الشعرُ الذى أمر النبى صلى الله عليه وسلم به ، وحضّ عليه ، وندب أصحابه إليه ، وتجند به على المشركين ؛ فقال لحسان : شُنّ الغارة على بنى عبد مناف ، فوالله لَشِعْرُك أشدُّ عليهم من وقع السهام فى غلَس الظلام . و[الشعر] هو ديوان العرب ومقيّدُ أحكامها الشاهدُ على مكارمها ؛ وأكثر شعر حسان بن ثابت يغنى به . رأى من أجازه

١٥ قال فرج بن سلام : حدثنى الرياشى عن الأصمعى قال : شهد حسان بن ثابت مأدُبةً لرجل من الأنصار وقد كَفَّ بصرُه ، ومعه ابنه عبد الرحمن ، فكلما قدّم شىء من الطعام قال حسان لابنه عبد الرحمن : أطعامُ يدٍ أم طعام يدَين ؟ فيقول له طعام يد . حتى قدِّم الشِّواء ، فقال له : هذا طعام يدين . فقبض الشيخ يده ؛ فلما رُفع الطعام اندفعت قَينة تغنى لهم بشعر حسان : حسان وابنه

٢٠ آنظر خليلى بباب جِلّقَ هل ＊ تُبصر دونَ البَلْقاء من أحدِ

جِمالُ شعْثاء إذا هَبطْنَ مِنَ الْـ ＊ ـمَنْحَشِّ دون الكثبان فالسّند

قال : فجعل حسان يبكى ، وجعل عبد الرحمن يومئ إلى القينة أن تردّده ! قال الأصمعى : فلا أدرى ما الذى أعجب عبد الرحمن من بكاء أبيه !

لعائشة

وقالت عائشة رضى الله عنها : علّموا أولادكم الشعر تعذُبْ ألسنتهم .

النبى صلى الله عليه وسلم والشريد

وأردف النبي صلى الله عليه وسلم الشريد ، فاستنشده من شعر أمية ، فأنشده مائة قافية ، وهو يقول : هيه ! استحساناً لها .

فلما أعياهم القدح فى الشعر والقول فيه ، قالوا : الشعر حسن ولا نرى أن يؤخذ بلحنٍ حسن ؛ وأجازوا ذلك فى القرآن وفى الأذان ؛ فإن كانت الألحان مكروهة فالقرآن والأذان أحق بالتنزيه عنها ، وإن كانت غير مكروهة ، فالشعر أحوج إليها لإقامة الوزن وإخراجه عن حدّ الخبر ؛ وما الفرق بين أن ينشد الرجل :

* أتعرِفُ رسماً كاطِّرادِ المذاهِب *

مرسَلا ، أو يرفع بها صوته مرتجلا .

وإنّما جعلت العرب الشعر موزوناً لمدّ الصوت فيه والدندنة ؛ ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور .

النبي صلى الله عليه وسلم

واحتجوا فى إباحة الغناء واستحسانه بقول النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة : أهديتم الفتاة إلى بعلها ؟ قالت : نعم . قال : فبعثتم معها من يغنى ؟ قالت : لا . قال : أو ما علمتِ أن الأنصار قوم يُعجبُهُم الغزل ، ألا بعثتم معها من يقول ؟

أتينـاكم أتيناكم * فحيّونا نُحَيّيكم

ولولا الحبّةالسمرا * ءُ لم نَحللْ بواديكم

واحتجوا بحديث عبد الله بن أنس ابن عم مالك ، وكان من أفضل رجال الزهرى ، قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم بجارية فى ظل فارع وهى تغنى :

هـــل علىّ ويْحكم * إنْ لهوْتُ من حرَج !

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا حرج إن شاء الله .

والذى لا ينكره أكثر الناس ، غناء النصب ، وهو غناء الركبان .

عمر بن الخطاب

حدّث عبدالله بن المبارك عن أسامة بن زيد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عبدالله بن عمر عن أبيه ، قال : مر بنا عمرُ بن الخطاب وأنا وعاصم بن عمر نغنى غناء النصب ، فقال : أعيدا علىّ . فأعدنا عليه ، فقال : أنتما كحمارى العبادىّ ، قيل له : أى حماريك شرّ ؟ قال : ذا ، ثم ذا !

أنس بن مالك

٥ وسمع أنس بن مالك أخاه البراء بن مالك يغنى ، فقال : ما هذا ؟ قال : أبيات عربية أنصبُها نصبا .

ابن أبى وقاص

ومن حديث الجمانى عن حماد بن زيد عن سليمان بن يسار ، قال : رأيت سعد بن أبى وقاص فى منزلٍ بين مكة والمدينة قد أُلقى له مُصلًّى فاستلقى عليه ووضع إحدى رجليه على الأخرى وهو يتغنى ، فقلت : سبحان ١٠ الله أبا إسحاق ! أتفعل مثل هذا وأنت مُحرِم ؟ فقال : يابن أخى ، وهل تسمعنى أقول هُجْرا .

عمر والنابغة الجعدى

ومن حديث المفضل عن قرة بن خالد بن عبدالله بن يحيى ، قال : قال عمر بن الخطاب للنابغة الجعدى : أسمِعْنى بعضَ ما عفا الله لك عنه من غنائك . فأسمعه كلمةً له . قال : وإنك لقائلها ؟ قال : نعم . قال : لطالما غنيتَ بها خلفَ ١٥ جمالِ الخطاب .

ابن جريج وعطاء

عاصم عن بن جريج ، قال : سألت عطاء عن قراءة القرآن على ألحان الغناء والحداء ، قال : وما بأس ذلك يابنَ أخى !

داود عليه السلام

قال : وحدّث عبيد بن عمير الليثى ، أنّ داود النبى عليه السلام ، كانت له مِعزفة يضرب بها إذا قرأ الزبور لتجتمع عليه الجنّ والإنس والطير ، فيَبكى ٢٠ ويُبكى مَن حوله ؛ وأهل الكتاب يجدون هذا فى كتبهم .

رأى من كرهه

ومن حجة من كره الغناء أن قال : إنه يسعر القلوب ، ويستفز العقول ، ويستخف الحليم ، ويبعث على اللهو ، ويحض على الطرب ، وهو باطل فى أصله . وتأوّلوا فى ذلك قولَ الله عز وجل ﴿ ومن الناسِ مَن يَشترى لَهْوَ الحديثِ ليُضِلَّ عن سبيل اللهِ بغيرِ علمٍ . ويتّخذَها هُزُوًا ﴾ ، وأخطئوا

فى التأويل ؛ إنما نزلت هذه الآية فى قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السِّيَر والأحاديث القديمة ويضاهون بها القرآن ويقولون إنها أفضل منه ؛ وليس من سمع الغِناء يتخذ آيات الله هزوا ؛ وأعدل الوجوه فى هذا أن يكون سبيلُه سبيلَ الشعر ، فحَسَنُه حَسن وقبيحُه قبيح .

ابن جامع وسفيان

وقد حدّث إبراهيم بن المنذر الخزاعى أنّ ابن جامع السهمى قدِمَ مكة بمال كثير ، ففرّقه فى ضعفاء أهلها ؛ فقال سفيان بن عيينة : بلغنى أنّ هذا السهمى قدمَ بمال كثير . قالوا : نعم . قال : فعلام يُعطَى ؟ قالوا : يغنى الملوك فيعطونه . قال : وبأى شىء يغنيهم ؟ قالوا : بالشعر . قال : فكيف يقول ؟ فقال له فتى من تلاميذه : يقول :

أُطوّفُ بالبيت معْ مَن يَطوفُ * وأرفعُ من مِئْزرِى المُسْبَلِ

قال : بارك الله عليه ، ما أحسن ما قال ! قال : ثم ماذا ؟ قال :

وأسجدُ بالليـــل حتى الصباح * وأتلو من المحكمَ المُنزَلِ

قال : وأحسن أيضا ، أحسن الله إليه ، ثم ماذا ؟ قال :

عسَى فارجُ الهمِّ عن يوسُفٍ * يُسـخِّرُ لى ربّةَ المَحمَل

قال : أمسك ! أمسكْ ! أفسَد آخِراً ما أصلح أوّلا ! ألا ترى سفيانَ بن عيينة رحمه الله حسّن الحَسن من قوله وقبّح القبيح ؟

وكره الغناء قومٌ على طريق الزهد فى الدنيا ولذاتها ، كما كره بعضهم الملاذّ ولُبسَ العَباءة ، وكره الحوّارىّ وأكَلَ الكشكار ، وترك البُرّ وأكَلَ الشعير ، لا على طريق التحريم ؛ فإنّ ذلك وجهٌ حسن ومذهَب جميل ؛ فإنما الحلال ما أحل اللهُ والحرام ما حرّم الله . يقول الله تعالى ﴿ ولا تقولوا لِما تصِفُ ألسنتُكم الكَذِبَ هذا حلال وهذا حرام لتَفتَروا على الله الكَذِبَ ، إنّ الذين يفترون على اللهِ الكَذِبَ لا يُفلِحونَ ﴾ .

وقد يكون الرجل أيضا جاهلا بالغناء أو متجاهلا به ، فلا يأمر به ولا ينكره .

للحسن البصري

قال رجل للحسن البصرى : ما تقول فى الغناء يا أبا سعيد ؟ قال : نِعْمَ العون الغناء على طاعة الله ، يصلُ الرجلُ به رَحِمَه ، ويواسى به صديقَه . قال الرجل : ليس عن هذا أسألك . قال : وعمَّ سألتنى ؟ قال : أن يُغنِّيَ الرجل . قال : وكيف يغنى ؟ فجعل الرجل يلوى شدقيه وينفخ منخريه ؛ قال الحسن : والله ٥ يابنَ أخى ما ظننت أنّ عاقلا يفعل هذا بنفسه أبدا ! وإنما أنكر عليه الحسنُ تشويهَ وجهه وتعويج فمه ؛ وإن كان أنكر الغناء فإنما هو من طريق أهل العراق ، وقد ذكرنا أنهم يكرهونه .

لابن جريج وابن عبيد

قال إسحاق بن عمارة : حدثنى أبو المغلس عن أبى الحارث ، قال : اختُلف فى الغناء عند محمد بن إبراهيم والى مكة ، فأرسل إلى ابن جريج وإلى عمرو بن ١٠ عبيد ، فأتياه ، فسألهما ، فقال ابن جريج : لا بأس به ، شهدت عطاء بن أبى رباح فى خِتان ولده وعنده ابن سريج المغنى ، فكان إذا غنى لم يقل له اسكت ، وإذا سكت لم يقل له غنّ ، وإذا لحن ردّ عليه . وقال عمرو بن عبيد : أليس الله يقول ﴿ ما يَلفِظُ من قولٍ إلا لديْه رقيب عتيد ﴾ ، فأيهما يكتب الغناء ، الذى عن اليمين أو الذى عن الشمال ؟ فقال ابن جريج : لا يكتبه واحد منهما ؛ لأنه ١٥ لغو كحديث الناس فيما بينهم من أخبار جاهليتهم وتناشدِ أشعارهم .

لأبى يوسف

قال إسحاق : وحدثنى إبراهيم بن سعد الزهرى قال : قال لى أبو يوسف القاضى : ما أعجب أمركم يأهل المدينة فى هذه الأغانى ! ما منكم شريف ولا دنىء يتحاشى عنها ! قال : فغضبتُ وقلتُ : قاتلكم الله يأهل العراق ! ما أوضح جهلكم وأبعدَ من السداد رأيكم ! متى رأيتَ أحداً سمع الغناء فظهر منه ما يظهر من ٢٠ سفهائكم هؤلاء الذين يشربون المسكر فيترك أحدُهم صلاته ، ويطلق امرأته ، ويقذف المحصنة من جاراته ، ويكفُر بربه ؛ وأين هذا من هذا ؟ مَن اختار شعراً جيداً ثم اختار جرما حسناً فردده عليه فأطربه وأبهجه فعفا عن الجرائم ، وأعطى الرغائب ... ؟ فقال أبو يوسف : قطعتنى ! ولم يُحِرْ جوابا .

قال إسحاق : وحدثنى إبراهيم بن سعد الزهرى قال : قال لى الرشيد : من

شيد
هرى

بالمدينة من يحرّم الغناء ؟ قال : قلت : من قَنَّعه اللهُ بخِزْيِه ، قال : بلغني أنّ مالك بن أنس يحرّمه . قلت : ياأمير المؤمنين ، أو لمالك أن يحرّم ويحلل ؟ والله ماكان ذلك لابنِ عمّك محمد صلى الله عليه وسلم إلا بوحْى من ربه ؛ فمَن جَعل هذا لمالك ؟ فشهادتى على أبى أنه سمع مالكا فى عرس ابن حنظلة الغسيل يتغنى : ٥

سُليْمَى أزمعتْ بيْنا * فأين بوصلِها أيْنا

ولو سمعت مالكا يحرّمه ويدى تناله لأحسنتُ أدبه ! قال : فتبسم الرشيد .

عمر وابن
جعفر

وعن أبى شعيب الحرانى عن جعفر بن صالح بن كيسان عن أبيه ، قال : كان عبد الله بن عمر يحب عبد الله بن جعفر ، فغَدا عليه يوما وعنده جارية فى حجرها عود ، فقال ابن عمر : ماذاك ياأبا محمد ؟ ١٠

قال : وما تظن به ياأبا عبد الرحمن ؟ فإن أصاب ظنُّك فلك الجارية .

قال : ما أرانى إلا قد أخذتُها ، هذا ميزان رومى !

فضحك ابن جعفر وقال : صدقت ، هذا ميزان يُوزَن به الكلام ، والجاريةُ لك ؛ ثم قال : هاتِ فغنَّتْ :

أيا شوْقا إلى البلدِ الأمينِ * وحىّ بين زمزمَ والحُجونِ ١٥

ثم قال : هل ترى بأسا ؟ قال : هل غيرَ هذا ؟ قال : لا . قال : فما أرى بهذا بأسا .

عمر وابن
محرز

وسمع عبد الله بن عمر ابنَ محرز يغنى :

لو بُدّلتْ أعلى منازِلها * سُفْلا وأصبح سُفْلها يعلو

لعرفتُ مَغناها بما احتَملتْ * منى الضلوعُ لأهلها قبلُ ٢٠

فقال له عبد الله بن عمر : قل : إن شاء الله ! قال : يفسد المعنى . قال : لا خير فى كل معنى يفسده « إن شاء الله » .

عمر بن عبد العزيز ومغن

حدث محمد بن زكريا الغلابى بالبصرة قال : حدثنى ابن الشرقى عن الأصمعى قال سمع عمر بن عبد العزيز راكبا يغنى فى سفره :

فلولا ثلاثٌ هُنّ من عيشةِ الفتى * وجَدِّكَ لم أحفِلْ متى قام عُوَّدِى

فمنهن سَبقُ العاذِلاتِ بشرْبَة * كُميْتٍ متى ما تُعْل بالماء تُزْبِد

٥ وكرّى إذا نادَى المضاف مُجنّباً * كسِيدِ الغضَا فى الطخْيةِ المتوَرّدِ

وتقصيرُ يومِ الدَّجنِ والدَّجنُ مُعجِبٌ * ببَهكنةٍ تحت الطِّرافِ المُمَدَّدِ

فقال عمر بن عبد العزيز : وأنا لولا ثلاث لم أحفل متى قام عُوَّدى : لولا أن أنفر فى السرية ، وأقسم بالسوية ، وأعدل فى القضية !

جرير والأسلمى العابد

قال جرير المدنى : مررت بالأسلمى العابد وهو فى مسجد رسول الله صلى ١٠ الله عليه وسلم يصلى فسلمتُ عليه ، فأومأ إلىّ وأشار بالجلوس ، فجلست ، فلما سلم أخذ بيدى وأشار إلى حلقى ، وقال : كيف هو ؟ قلت : أحسن ما كان قط . قال : أما والله لوددت أنه خلا لى وجهك وأنك أسمعتنى :

يالقومى بحبــلِكَ المصرُومِ * يوم شطُّوا وأنت غيرُ ملومِ

أصبح الرَّبعُ من أُمامةَ قفْرا * غـير مغنى معازِفٍ ورسوم

١٥ قلت : إذا شئت ، قال : فى غير هذا الوقت إن شاء الله .

ابن المبارك

وحدث أبو عبد الله المروزى بمكة فى المسجد الحرام ، قال : حدثنا حسان وسويد صاحبا ابن المبارك ، قالا : لما خرج ابن المبارك إلى الشام مرابطا خرجنا معه ، فلما نظر إلى ما فيه القوم من التعبد والغزو والسرايا فى كل يوم ، التفت إلينا فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون على أعمار أفنيناها ، وأيام وليال قد قطعناها ٢٠ فى علم الشعر ، وتركنا ههنا أبوابَ الجنة مفتوحة ! قال : فبينما هو يمشى ونحن معه فى أزقة المصيصَة ، إذا نحن بسكران قد رفع صوته يغنى :

أذلّنىَ الهوى فأنا الذّليلُ * وليس إلى الذى أهوى سبيلُ

فأخرج برنامجا من كمه ، فكتب البيت ؛ فقلنا له : أتكتب بيت شعر سمعته

من سكران ؟ قال : أما سمعتم المثل : رُبَّ جوهرة فى مزبلة !

الأوقص المخزومى

قال : وولِيَ الأوقصُ المخزومى قضاء مكة ، فما رؤى مثله فى العفاف والنبل ، فبينما هو نائم ذات ليلة فى علّية له ، إذ مر به سكران يتغنى ويلحن فى غنائه ، فأشرف المخزومى عليه ، فقال : ياهذا ، شربت حراما ، وأيقظتَ نياما ، وغنيت خطأ ، خُذْه عنى ! فأصلحه عليه !

وقال الأوقص المخزومى : قالت لى أمى : أى بُنَىَّ ، إنك خلقتَ فى صورة لا تصلح معها لمجامعة الفتيان فى بيوت القِيان ، فعليك بالدين ، فإن الله يرفع به الخسيسة ويُتمّ به النقيصة ، فنفعنى الله بقولها .

الشعبى وبشر

وحدث عباس بن المفضل قاضى المدينة ، قال : حدثنى الزبير بن بكار قاضى مكة عن مصعب بن عبد الله قال : دخل الشعبى على بشر بن مروان وهو والى العراق لأخيه عبد الملك بن مروان ، وعنده جارية فى حجرها عود ؛ فلما دخل الشعبى أمرها فوضعت العود ، فقال له الشعبى : لا ينبغى للأمير أن يستحيى من عبده . قال : صدقتم ؛ ثم قال للجارية : هاتى ما عندك . فأخذت العود وغنت :

وبما شجانى أنها يومَ ودّعت ... تولت وماءُ العين فى الجفنِ حائرُ

فلما أعادت من بعيدٍ بنظرةٍ ... إلىّ آلتفاتاً أسلمتْهُ المحاجر

فقال الشعبى : الصغير أكيسهما . يريد الزير ، ثم قال : ياهذه ، أرخى من بمّك ، وشدّى من زيرك . فقال له بشر : وما علمك ؟ قال : أظن العمل فيهما . قال : صدقت ، ومن لم ينفعه ظنُّه لم ينفعه يقينُه .

قرشى وزجل يغنى فى المسجد

وحُدث عن أبى عبد الله البصرى قال : غنّى رجل فى المسجد الحرام وهو مستلق على قفاه صوتا ، ورجلٌ من قريش يصلى فى جواره ؛ فسمعه خُدّامُ المسجد فقالوا : ياعدو الله ، تغنى فى المسجد الحرام ! ورفعوه إلى صاحب الشرطة ، فتجوز القرشى فى صلاته ؛ ثم سلم واتبعه ، فقال لصاحب الشرطة : كذبوا عليه أصلحك الله ، إنما كان يقرأ ! فقال . يا فساق ، أتأتونى برجل قرأ القرآن

تزعمون أنه غنى ؟ خلوا سبيله ! فلما خلّوه قال له القرشى : والله لولا أنك أحسنتَ وأجدت ما شهدتُ لك ، اذهب راشدا .

أبو حنيفة وجاره

وكان لأبى حنيفة جارٌ من الكيالين مغرمٌ بالشراب ، وكان أبو حنيفة يُحيى الليلَ بالقيام ، ويحييه جاره الكيال بالشراب ، ويغنى على شرابه :

٥ أضاعونى وأىَّ فتًى أضاعوا * ليومِ كريهةٍ وسدادِ ثغرِ

فأخذه العسس ليلةً فوقع فى الحبس ، وفقد أبو حنيفة صوته واستوحش له ؛ فقال لأهله : ما فعل جارنا الكيال ؟ قالوا : أخذه العسس فهو فى الحبس . فلما أصبح أبو حنيفة وضع الطويلة على رأسه ، وخرج حتى أتى باب عيسى ابن موسى ، فاستأذن عليه ، فأسرع فى إذنه ـ وكان أبو حنيفة قليلا مايأتى الملوك ـ

١٠ فأقبل عليه عيسى بوجهه ، وقال : أمرٌ ماجاء بك أباحنيفة ! قال : نعم ، أصلح الله الأمير ، جارٌ لى من الكيالين ، أخذه عسس الأمير ليلةَ كذا ، فوقع فى حبسك . فأمر عيسى بإطلاق كل من أخذ فى تلك الليلة ، إكراما لأبى حنيفة ؛ فأقبل الكيال على أبى حنيفة متشكراً له ، فلما رآه أبو حنيفة قال : أضعناك يا فتى ؟ يعرّض له بقصيدته ؛ قال : لا والله ، ولكنك بررْتَ وحفِظْتَ .

الدارى وتاجر عراق

١٥ الأصمعى قال : قدم عراقىٌّ بعدل من خُمُر العراق إلى المدينة ؛ فباعها كلها إلا السود ، فشكا ذلك إلى الدارمى ، وكان قد تنسك وترك الشعر ولزم المسجد فقال : ما تجعل لى على أن أحتال لك بحيلة حتى تبيعها كلها على حكمك ؟ قال : ماشئت ! ! قال : فعمد الدارمى إلى ثياب نسكه ! فألقاها عنه وعاد إلى مثل شأنه الأول ، وقال شعراً ورفعه إلى صديق له من المغنين ، فغنى به وكان الشعر :

٢٠ قل للمليحةِ فى الخمارِ الأسودِ * ماذا فعلتِ بزاهدٍ مُتعبِّدِ

قد كان شمَّرَ للصلاةِ ثيابَه * حتى خطَرْتِ له ببابِ المسجدِ

ردِّى عليه صلاتَه وصيامَه * لا تقتُليه بحقِّ دينِ محمدِ

فشاع هذا الغناء فى المدينة ، وقالوا : قد رجع الدارمى وتعشق صاحبةَ الخمار

الأسود . فلم تبق مليحة بالمدينة إلا اشترت خماراً أسود ، وباع التاجر جميع ما كان معه ؛ فجعل إخوان الدارمى من النساك يلقون الدارمى فيقولون : ماذا صنعتَ ؟ فيقول : ستعلمون نبأه بعد حين . فلما أنفد العراقى ما كان معه ، رجع الدارمى إلى نسكه ولبس ثيابه .

عروة بن أذينة

وحدث عبد الله بن مسلم بن قتيبة ببغداد ، قال : حدثنى سهلٌ عن الأصمعى قال : كان عروةُ بن أُذينة يعدُّ ثقة ثبتاً فى الحديث ، روى عنه مالك بن أنس ؛ وكان شاعراً لبقاً فى شعره غزِلا ، وكان يصوغ الألحان والغناء على شعره فى حداثته وينحلها المغنين ؛ فمن ذلك قوله ، وغنى به الحجازيون :

يا ديارَ الحيِّ بالأَجَمَه * لم يُبِنْ رسمُها كلِمه

وهو موضع صوته ، ومنه قوله :

قالت وأَبْثثتُها وجْدى وبُحتُ به * قد كنتَ عندى تحت السِّترِ فاسْتترِ

ألستَ تُبصرُ مَن حولى فقلت لها * غطَّى هَواكِ وما أُلقى على بَصرى

قال : فوقفت عليه امرأة وحوله التلامذة ، فقالت : أنت الذى يقال فيك الرجل الصالح ، وأنت القائل :

إذا وجدتُ أُوار الحبِّ فى كبِدِى * عمدتُ نحو سقاءِ القومِ أبْترِدُ

هبنى بردتُ ببردِ الماءِ ظاهرَهُ * فمن لنارٍ على الأحشاءِ تتقِد

لا والله ما قال هذا رجل صالح قط !

القس

قال : وكان عبد الرحمن الملقب بالقس عند أهل مكة بمنزلة عطاء بن أبى رباح فى العبادة ، وإنه مر يوما بسلامة وهى تغنى ، فقام يستمع غناءها ، فرآه مولاها فقال له : هل لك أن تدخل فتسمع ؟ فأبى ، فلم يزل به حتى دخل ، فقال له : أوقِفُك فى موضع بحيث تراها ولا تراك . فغنّته فأعجبته ، فقال له مولاها : هل لك فى أن أحوِّلها إليك ؟ فأبى ذلك عليه ، فلم يزل به حتى أجابه ، فلم يزل

يسمعها ويلاحظها النظر حتى شغف بها ؛ ولما شعرت لَحْظَهُ إياها غنته :

رُبَّ رسُولين لنا بَلَّغا * رسالةً مِن قبل أن يَبرَحا
لم يُعمِلا خُفًّا ولا حافراً * ولا لساناً بالهوى مُفصِحا
حتى استَقَلَّا بحواجبهما * بالطائرِ الميمونِ قد أنجحا
٥ الطرفُ والطَّرفُ بعثناهما * فقضَيا حاجًا وما صرّحا

قال : فأغمى عليه وكاد أن يهلك ؛ فقالت له يوماً : والله إنى أحبُّكَ ! قال لها : وأنا والله أُحبُّكِ ! قالت : وأحب أن أضعَ فمى ... قال : وأنا والله ... قالت : فما يمنعك من ذلك؟ قال : أخشى أن تكون صداقةُ ما بينى وبينك [اليوم] عداوةً يوم القيامة ؛ أما سمعتِ الله تعالى يقول : ﴿ الأَخِلَّاءُ يَومئذٍ بَعضُهمْ ١٠ لبعْض عدُوٌّ إلا المتَّقِينَ ﴾ ؟ ثم نهض وعاد إلى طريقه التى كان عليها ، وأنشأ يقول :

قد كنتُ أعذلُ فى السفاهةِ أهلَها * فاعجبْ لما تأتِى به الأيامُ
فاليوم أعذِرُهم وأعلَمُ أنما * سُبلُ الضلالةِ والهدَى أقسام

وله فيها :

١٥ إنَّ سلَامةَ التى * أفقدتْنِي تجلُّدى
لو تراها وعُودَها * حين يَبدو وتبْتدى
للجريرَين والغَريـ * ـض وللقرمِ مَعبَد
خِلْتَهمْ بين عُودِها * والدَّساتينِ واليدِ

أخبار عبد الله بن جعفر

٢٠ حدث سعيد بن محمد العجلى بعمان ، قال : حدثنى نصر بن على عن الأصمعى ، قال : كان معاوية يعيب على عبد الله بن جعفر سماع الغناء ؛ فأقبل معاوية عاما من ذلك حاجا ، فنزل المدينة ، فمر ليلة بدار عبد الله بن جعفر فسمع عنده غناء على أوتار ، فوقف ساعة يستمع ، ثم مضى وهو يقول : أستغفر الله!

أستغفر الله ! فلما انصرف من آخر الليل مر بداره أيضا ، فإذا عبد الله قائم يصلى ، فوقف ليستمع قراءته ، فقال الحمد لله ! ثم نهض وهو يقول : ﴿خَلَطوا عملا صالحاً وآخرَ سيئاً عسَى اللهُ أن يتوبَ عليهم﴾ .

فلما بلغ ابن جعفر ذلك أعدّ له طعاما ودعاه إلى منزله ، وأحضر ابن صيّاد المغنى ، ثم تقدم إليه يقول : إذا رأيت معاوية واضعاً يده فى الطعام فحرّك أوتارك وغنّ . فلما وضع معاوية يده فى الطعام حرّك ابن صياد أوتارَه وغنّى بشعرِ عدى ابن زيد وكان معاوية يُعجَب به .

يا لُبَيْنَى أوقِدى النارا ٭ إنّ من تَهوَيْنَ قد حارَا
رُبَّ نارٍ بِتُّ أرمُقُها ٭ تَقْضَمُ الهِندىَّ والغارا
ولهــا ظبْى يُؤَجِّجُها ٭ عاقدٌ فى الخَصرِ زُنارا

قال فأعجَب معاويةَ غِناؤه ، حتى قبض يده عن الطعام ، وجعل يضرب برجله الأرض طربا ؛ فقال له عبد الله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ، إنما هو مختار الشعر يُركّب عليه مختار الألحان ، فهل ترى به بأسا ؟ قال : لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الألحان .

قال : وقدم عبد الله بن جعفر على معاوية بالشام ، فأنزله فى دار عياله ، وأظهر من إكرامه وبرّه ما كان يستحقه ؛ فغاظ ذلك فاختةَ بنت قرظة زوجة معاوية ؛ فسمعت ذات ليلة غِناء عند عبد الله بن جعفر ، فجاءت إلى معاوية فقالت : هلم فاسمع ما فى منزل هــذا الذى جعلته بين لحمك ودمك ، وأنزلتَه فى حُرَمِك ! فجاء معاوية فسمع شيئاً حركه وأطربه ، فقال : والله إنى لأسمع شيئاً تكاد الجبال تَخِرُّ له ، وما أظنه إلا من تلقيَة الجن ! ثم انصرف ، فلما كان من آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله وهو قائم يصلى ، فأنْبَهَ فاختة ، وقال لها : اسمعى مكان ما أسمعْتِنِى ، هؤلاء قومى : ملوك بالنهار ، رهبانٌ بالليل !

ثم إن معاوية أرِقَ ذات ليلة ، فقال لخادمه حُديج : اذهب فانظر مَن عند عبد الله ، وأخبِرْه بخروجى إليه . فذهب فأخبره ، فأقام كلَّ من كان عنده ؛

ثم جاء معاوية ، فلم ير في المجلس غير عبد الله ، فقال : مجلس من هذا ؟ قال : مجلس فلان . قال معاوية : مُرْه يرجع إلى مجلسه . ثم قال : مجلس من هذا ؟ قال : مجلس فلان . قال : مُرْه يرجع إلى مجلسه ... حتى لم يبق إلا مجلس رجل ، فقال : مجلس من هذا ؟ قال : مجلس رجل يداوى الآذان ، يا أمير المؤمنين ! قال له ٥ معاوية : فإنّ أُذُنى عليلةٌ ، فمُرْه فليرجع إلى موضعه . وكان موضعَ بُدَيح المغنى ، فأمره ابن جعفر ، فرجع إلى موضعه ، فقال له معاوية : داوِ أذنى من عِلّتها ! فتناول العودَ ثم غنى :

أَمِنْ أُمّ أوفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ * بحَوْمانةِ الدّرّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

فحرّك عبد الله بن جعفر رأسه ، فقال معاوية : لِمَ حرّكتَ رأسك يابن ١٠ جعفر ؟ قال أرْيَحِيّة أجدها يا أمير المؤمنين ، لو لاقيت عندها لأَبْلَيْت ، ولئن سُئلتُ عندها لأعطيتُ ! وكان معاوية قد خضب ، فقال ابن جعفر لبُدَيح : هات غير هذا . وكانت عند معاوية جاريةٌ أعزّ جواريه عنده ، كانت متولّيةً خضابه ، فغناه بديح :

أليس عندَك شُكرٌ للتى جَعَلت * ما ابيضّ مِن قادماتِ الشعرِ كالحمَمِ

١٥ وجدّدتْ منك ما قد كان أخلَقَه * صَرْفُ الزمانِ وطولُ الدهرِ والقِدَمِ

فطرب معاوية طربا شديداً وجعل يحرك رجله ، فقال ابن جعفر : يا أمير المؤمنين سألتنى عن تحريك رأسى فأخبرتك ، وأنا أسألك عن تحريك رجلك ! فقال معاوية : كلُّ كريمٍ طروب . ثم قام وقال : لا يبرحْ أحدٌ منكم حتى يأتيَه إذنى . فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ، ومائة ثوب من خاص ثيابه . وإلى ٢٠ كل رجل منهم بألف دينار وعشرة أثواب .

هو ومغنية سمعها

وعن ابن الكلبي والهيثم بن عدى ، قالا : بينا عبد الله بن جعفر فى بعض أزقة المدينة ، إذ سمع غناء ، فأصغى إليه ، فإذا بصوت شجيّ رقيق لِقَينَة تغنى :

قل للكرامِ ببابِنا يَلِجُوا * ما فى التّصابِى على الفَتَى حَرَجُ

فنزل عبد الله عن دابته ، ودخل على القوم بلا إذن ؛ فلما رأوه قاموا إليه

إجلالا ورفعوا مجلسه ؛ ثم أقبل عليه صاحب المنزل ، فقال : يابن عم رسول الله دخلت منزلنا بلا إذن ، وما كنت لهذا بخليق ! فقال عبد الله : لم أدخل إلا بإذن ! قال : ومن أذن لك ؟ قال : قينتُك هذه ؛ سمعتها تقول :

* قل للكرام ببابنا يلجوا *

٥ فولجنا ، فإن كنا كراما فقد أُذِن لنا ، وإن كنا لئاما خرجنا مذمومين ! فضحك صاحب المنزل ، وقال صدقت جُعِلتُ فداك ! ما أنت إلا من أكرم الأكرمين . ثم بعث عبد الله إلى جارية من جواريه ، فقال لها : غنى فغنت ، فطرب القوم ، وطَرِب عبد الله ؛ فدعا بثياب وطيب فكسا القوم وصاحب المنزل وطيّبهم ووهب له الجارية ، وقال له : هذه أحذق بالغناء من جاريتك .

أخبار ابن أبي عتيق ١٠

هو وعائشة — ذكر رجل من أهل المدينة أنّ ابن أبي عتيق — وهو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق — دخل على عائشة أم المؤمنين — وهي عمّته — فوضع رأسه في حجرها — أو على ركبتها — ثم رفع عقيرته يتغنى :

ومُقيّر حَجل جَرَرْت بِرِجْــلِهِ * بَعد الهــدو له قوائمُ أربعُ

١٥ فأطرَب زمانَ اللهوِ من زمنِ الصّبا * وانزعْ إذا قالوا أبَى لا يَنزِع

فليأتينّ عليــك يوماً مَرّة * يبكي عليــك مُقنّعاً لا تَسْمع

قالت عائشة : يابُنيّ ، فاتق ذلك اليوم :

هو وكثير — حدّث أبو عبد الله محمد بن عرفة بواسط . قال : حدثني أحمد بن [محمد بن] يحيى عن الزبير بن بكار عن سليمان بن عباس السعدى عن السائب راوية كثير ٢٠ قال : قال لى كثير يوما : قم بنا إلى ابن أبي عتيق نتحدث عنده . قال : فجئناه ، فوجدنا عنده ابن معاذ المغنى ، فلما رأى كثيرا ، قال لابن أبي عتيق : ألا أغنّيك بشعر كُثيّر ؟ [قال : بلى] ، فاندفع يغنى بشعره حيث يقول :

أبائنةٌ سُعْدى ؟ نعمْ ستَبِين ! * كما انبَتّ من حبْلِ القرينِ قرينُ

أإنْ زُمّ أجمال وفارقَ جيرة * وصاح غرابُ البيْنِ أنت حزينُ

كأنك لم تسمعْ ولم تَرَ قبلَها * تَفرُّقَ أحباب لهُن حَنين

فأخلَفْن ميعادى وخُنّ أمانتى * وليس لمن خان الأمانة دِين

فالتفت ابن أبى عتيق إلى كثيّر فقال: وللدّين صحبتهن يابن أبى جمعة؟ ذاك

٥ والله أشبه بهن وأدعى للقلوب إليهن، وإنما يوصَفْن بالبخل والامتناع، وليس بالأمانة والوفاء؛ وابن قيس الرقيات أشعر منك حيث يقول:

حبّذا الإدْلالُ والغَنَجُ * والتى فى طَرْفها دَعَجُ

والتى إنْ حدّثتْ كذَبتْ * والتى فى ثغْرِها فَلَج

وخبّرونى هلْ على رجل * عاشقٍ فى قُبْلة حَرج

١٠ فقال كثيّر: قم بنا من عند هذا! ثم نهض.

هو وابن جعفر

وقال عبد الله بن جعفر لابن أبى عتيق: لو غنتك فلانة جاريتى صوتاً ما أدركت ذكاءك! قال ابن أبى عتيق: قل لها تفعل وليس عليك إن متُّ ضمانٌ! فأخذ بيده عبد الله بن جعفر وأدخله منزله، ثم أمر الجارية فخرجت، وقال لها: هاتِ. فغنت:

١٥ بهواكِ صيّرنى العذولُ نَكالا * وجَد السبيل إلى المقالِ فقالا

ونهيتُ عينى عن جُفونى فانتهى * وأمرتُ ليْلى أن يَطول فطالا

قال: فرمى بنفسه ابن أبى عتيق إلى الأرض وقال: ﴿فإذا وجَبَت جُنوبُها فكلوا منها وأطعِموا القانعَ والمُعْترَّ﴾.

هو وعبد الملك وابن جعفر

أبو القاسم جعفر بن محمد قال: لما وَصَف عبد الله بن جعفر لعبد الملك

٢٠ بن مروان ابن أبى عتيق، وحدثه عن إقلاله وكثرة عياله. أمره عبد الملك بن مروان أن يبعث به إليه. فأتاه ابن جعفر، فأعلمه بما دار بينه وبين عبد الملك، وبعثه إليه. فدخل ابن أبى عتيق على عبد الملك فوجده جالسا بين جاريتين فائقتين عليه، بيسان كغصنى بان بيد كل جارية مروحة

تروح بها عليه ، مكتوبٌ بالذهب فى المروحة الواحدة :

إنى أجلبُ الرِّيا ٭ ح وبى يلعبُ الخَجِلْ
وحِجابٌ إذا الحبيبُ ٭ ثَنى الرأسَ لِلقُبل
وغياثٌ إذا النَّـــد ٭ يمُ تَغَنى أو ارتجل

وفى المروحة الأخرى : ٥

أنا فى الكفِّ لطيفهْ ٭ مَسْكنى قصرُ الخليفهْ
أنا لا أصلُحُ إلا ٭ لظريفٍ أو ظريفه
أووَصيفٍ حَسَنِ القَدِّ ٭ شـــبيهٍ بالوصيفه

قال ابن أبى عتيق : فلما نظرت إلى الجاريتين هونتا الدنيا علىّ ، وأنستانى سوء حالى ؛ قلت : إن كانتا من الإنس فما نساؤنا إلا من البهائم ! فكلما كررتُ ١٠ بصرى فيهما تذكرت الجنة ، فإذا تذكرت امرأتى — وكنتُ لها محبا — تذكرتُ النار ! قال : فبدأ عبدُ الملك يتوجع إلى بما حكى له ابن جعفر عنى ، ويخبرنى بمالى عنده من جميل الرأى ؛ فأكذبتُ له كلّ ما حكاه له ابن جعفر عنى ، ووصفتُ له نفسى بغاية الملاء والجِدَة ؛ فامتلأ عبد الملك سروراً بما ذكرت له ، وغما بتكذيبِ ابن جعفر ؛ فلما عاد إليه ابن جعفر ، عاتبه عبد الملك على ما حكاه عنى ١٥ وأخبره بما حلَّيتُ به نفسى ؛ فقال : كذبَ والله يا أمير المؤمنين ، وإنه أحوج أهلِ الحجاز إلى قليل فضلك ، فضلا عن كثيره ! ثم خرج عبد الله فلقينى ، فقال : ما حملك أن كذَّبتَنى عند أمير المؤمنين ؟ قلت : أفكنتَ ترانى تجلسنى بين شمس وقمر ، ثم أتفاقَرُ عنده ! لا والله ما رأيت ذلك لنفسى وإن رأيته لى ! فلما أعلم بذلك عبد الله بن جعفر عبد الملك بن مروان ، قال : فالجاريتان له ! قال : فلما ٢٠ صارتا إلىّ زرت عبد الله بن جعفر ، فوجدته قد امتلأ فرحا ، وهو يشرب ، وبين يديه عس فيه عسل ممزوج بمسك وكافور ، فقال : مهيم ! قلت : قد والله قبضت الجاريتين . قال : فاشربْ . فتناولت العس فجرّعتُ منه جرعة ، فقال لى : زِدْ . فأبيتُ عليه ، فقال لجارية له عنده تغنيه : إن هذا قد حاز اليوم غزالتين

من عند أمير المؤمنين ؛ فخذى فى نعتهما ؛ فإنهما كما فلّكت صدورُهما . فحركت الجارية العود ثم غنت :

عهدى بها فى الحىّ قد جردتْ ٭ صفراء مثلَ المُهرةِ الضامرِ

قد حجَمَ الثّدْىُ على نحرِها ٭ فى مشرِق ذى بهجة ناضرِ

٥ لو أسندَتْ مَيْتاً إلى صدرِها ٭ قامَ ولم يُنقل إلى قابرِ

حتى يقول الناسُ مما رأَوْا ٭ يا عَجبا للميِّتِ الناشرِ

قال : فلما سمعت الأبيات طربت ، ثم تناولت العس فشربت علَلا بعد نهَل ، ورفعت عقيرتى أغنى :

سقونى وقالوا لا تُغنّ ولو سقوْا ٭ جبالَ حُنَيْنٍ ما سقونى لغنَّتِ

١٠ قال : وخرج أبو السائب وابن أبى عتيق يوما يتنزهان فى بعض نواحى مكة فال أبو السائب ليبول وعليه طويلته ؛ فانصرف دونها ؛ فقال له ابن أبى عتيق : ما فعلت طويلتك ؟ قال : ذكرتُ قول كثيِّر :

هو وأبو السائب

أرى الإزارَ على لُبْنى فأحسدُهُ ٭ إن الإزارَ على ما ضمّ محسودُ

فتصدقت بها على الشيطان الذى أجرى هذا البيت على لسانه ! فأخذ ابن أبى

١٥ عتيق طويلته فرمى بها ، وقال : أتسبقنى أنت إلى برّ الشيطان !

* * *

سليمان ومغن

سمع سليمان بن عبد الملك مغنيا فى عسكره ، فقال : اطلبوه . فجاءوا به ، فقال : أعِد علىّ ما تغنيتَ به . فغنى واحتفل — وكان سليمان أغير الناس — فقال لأصحابه : كأنها والله جرجرةُ الفحل فى الشول ، وما أحسب أنثى تسمع هذا إلا صَبَتْ ! وأمر به فخُصى .

الفرزدق والأحوص

٢٠ وقالوا : إن الفرزدق قدم المدينة ، فنزل على الأحوص بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح صاحب النبى صلى الله عليه وسلم وهو الذى حمت لحمَه الدبر ، فقال [له] الأحوص : ألا أُسْمِعُك غناء ؟ قال :

تغنّ . فغنّاه :

أتنسَى إذ تُودِّعُنا سُليمَى * بعودِ بَشامةٍ سُقِيَ البَشامُ
بنفسي مَن تجنُّبُه عزيزٌ * علىّ ومن زيارتُهُ لمامُ
ومَن أُمسِي وأُصبحُ لا أراه * ويطرُقني إذا هجَعَ النِّيام

قال الفرزدق : لمن هذا الشعر ؟ قال : لجرير . ثم غناه : ٥

إنّ الذين غدوْا بلبّكَ غادَروا * وشَلا بعينِك ما يزالُ مَعينا
غيّضْنَ من عبراتِهنّ وقُلْن لى * ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا

فقال : لمن ذا الشعر ؟ فقال لجرير : ثم غناه :

أسرى لخالدةِ الخيـــالِ ولا أرى * شيئاً ألذَّ من الخيالِ الطارقِ
إنّ البليّةَ مَن يُمَلُّ حديثه * فانقعْ فؤادَك من حديث الوامقِ ١٠

فقال : لمن هذا الشعر ؟ فقال : لجرير . قال : ما أحوجه مع عفافه إلى خنوثة شعري ، وما أحوجني مع فسوقي إلى رقة شعره !

جرير

وقال جرير : والله لولا ما شُغلت به من هذه الكلاب ، لشببت تشبيبا تحن منه العجوز إلى أيام شبابها ، حنين الجمل إلى عَطنه !

الأحوص ومعبد وعقيلة

وقال الأحوص يوما لمعبد : امض بنا إلى عقيلة حتى نتحدث إليها ونسمع ١٥ من غنائها وغناء جواريها . فمضيا ، فألفيا على بابها معاذا الأنصارى وابن صياد ؛ فاستأذنوا عليها ، فأذنت لهم إلا الأحوص ، فإنها قالت : نحن على الأحوص غِضاب ، فانصرف الأحوص وهو يلوم أصحابه على استبدادهم بها ، وقال :

ضنّتْ عقيلةُ عنك اليوم بالزّاد * وآثرت حاجةَ الثّاوى على الغادى
قولا لمنزِلها : حُيِّيت من طلَلٍ * وللعقيق : ألا حُيِّيت من وادِ ٢٠
إنى وهبتُ نصيبي من مَودّتها * لمعْبدٍ ومُعاذٍ وابن صيّاد

قرشى ومغن فى المسجد

وجعل رجل يترنم فى مسجد المدينـة ، ورجل من قريش يسمع ؛ فأخذه بعض القوم فقالوا : يا عدوّ الله ؛ أتغنى فى المسجد الحرام ! وذهبوا به إلى صاحب

الحكم ، واتبعهم القرشى فقال لصاحب الحكم : أصلحك الله ، إنما كان يقرأ ! فأطلق سبيله ، فقال له القرشى : والله لولا أنك أحسنتَ فى غنائك وأقمت دارات معبد لـكنتُ عليك أشدّ من الأعوان .

دارات معبد

والصوت المنسوب إلى دارات معبد ، قولُ أعشى بكر :

٥ هريرةَ ودِّعْها وإن لامَ لائمُ * غداةَ غد أم أنت للبيْنِ واجمُ

ويروى أن معبداً دخل على قتيبة بن مسلم والى خراسان وقد فتح خمس مدائن فجعل يفخر بها عند جلسائه ؛ فقال له معبد : والله لقد صُغْت بعدك خمسة أصوات ، إنها لأكثرُ من الخمس المدائن التى فتحْت ! والأصوات : الأول :

ودِّعْ هُريرة إنّ الرَّكبَ مُرْتَحِلُ * وهل تُطيقُ وداعاً أيها الرجلُ

١٠ والثـانى :

هريرةَ ودِّعها وإن لامَ لائمُ * غَداة غد أم أنت للبيْنِ واجمُ

والثالث :

ودِّعْ لبابَةَ قبل أن تترحَّلا * وآسْأَل فإنّ سبيلَهُ أنْ تُسْألا

والرابع :

١٥ لعَمْرى لئن شطتْ بغثمةَ دارُها * لقد كدتُ من وشْكِ الفِراقِ أليحُ

والخامس :

تُغذّ بِىَ الشَّهْباءُ نحو آبن جعفرٍ * سـواءٌ عليهـا ليلهـا ونَهارُها

أصل الغناء ومعدنه

الكلبى

قال أبو المنـذر بن هشام بن الكلبى : الغناء على ثلاثة أوجه : النصب ، ٢٠ والسناد ، والهزج ؛ فأما النصب فغناء الركبان والقينات ؛ وأما السناد فالثقيـل الترجيع الـكثير النغمات ، وأما الهزج فالخفيف كله ، وهو الذى يثير القلوب ويهيج الحليم .

وإنما كان أصل الغناء ومعدنه فى أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً

فاشيا وهى : المدينة ، والطائف ، وخيبر ، ووادى القرى ، ودومة الجندل ، واليمامة ؛ وهذه القرى مجامع أسواق العرب .

صانع العود

وقيل إنّ أوّل من صنع العود : لامَك بن قايل بن آدم ، وبكى به على ولده . ويقال إنّ صانعه بطليموس صاحب الموسيقى ، وهو كتاب اللحون الثمانية .

أول من غنى

وكان أول من غنى فى العرب قينتان لعاد يقال لهما الجرادتان ، ومن غنائهما : ٥

ألا يا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فهيْنِمْ * لعــلّ اللهَ يُصْبِحُنا غَماما

وإنما غنّتا بهذا حين حُبس عنهما المطر ؛ وكانت العرب تسمى القينة : الكرِينة ، والعود : الكِرَان ؛ والمزهر أيضاً هو العود ، وهو البربط .

وكان أول من غنى فى الإسلام الغناء الرقيق : طُويس ، وهو علّم ابن سريج ، والدلال ، ونَئومة الضحى ؛ وكان يكنى أبا عبدالنعيم ، ومن غنائه وهو أول ١٠ صوت غنى به فى الإسلام :

قد بَراني الشوقُ حتى * كِدْتُ من شوقى أذوبُ

أخبار المغنين

طويس

أولهم : طُوَيس ، وكان فى أيام عثمان رضى الله عنه .

هو وأبان

حدثنا جعفر بن محمد قال : لما ولى أبان بن عثمان بن عفان المدينة لمعاوية ١٥ ابن أبى سفيان ، قعد فى بَهو له عظيم ، واصطف له الناس ، فجاء طويس المغنى وقد خضب يديه غمسا ، واشتمل على دُف له ، وعليه ملاءة مصقولة ؛ فسلّم ثم قال : بأبى وأمى يا أبان ، الحمد لله الذى أرانيك أميراً على المدينة ؛ إنى نذرتُ لله فيك نذراً إن رأيتك أن أخضب يدى غمساً وأشتمل على دفى وآتى مجلس إمارتك وأغنيك صوتا ! قال : فقال : يا طويس ، ليس هذا موضع ذاك . قال : ٢٠ بأبى أنت وأمى يابنَ الطيّب أبِحْنى . قال : هات يا طويس . فحسر عن ذراعيه وألقى رداءه ومشى بين السماطين وغنى :

ما بالُ أهلكِ يا رَبابُ * خُزْراً كأنهمُ غِضابُ

قال : فصفق أبان بيديه ، ثم قام عن مجلسه فاحتضنه وقبّل بين عينيه ، وقال : يلومونني على طويس !

ثم قال له : من أسن ، أنا أو أنت ؟ قال : وعيشك لقد شهدت زفاف أمك المباركة إلى أبيك الطيب ! انظر إلى حذقه ورقة أدبه ، كيف لم يقل : أمك الطيبة إلى أبيك المبارك .

هو وبكر وسعيد

وعن الكلبي قال : خرج عمر بن عبد العزيز إلى الحج وهو والى المدينة ، وخرج الناس معه ؛ وكان فيمن خرج : بكر بن إسماعيل الأنصارى ، وسعيد ابن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ؛ فلما انصرفا راجعَين مرّا بطويس المغنى ، فدعاهما إلى النزول عنده ؛ فقال بكر بن إسماعيل : قُدِ البعير إلى منزلك . فقال له سعيد بن عبد الرحمن : أتنزل على هذا المخنَّث ؟ فقال : إنما هو منزل ساعة ثم نذهب . واحتمل طويس الكلام عن سعيد ، فأتيا منزله ، فإذا هو قد نظفه ونجّده ، فأتاهما بفاكهة الشام فوضعها بين أيديهما ، فقال له بكر بن إسماعيل ، ما بقى منك ياطويس ؟ قال : بقى كلّى يا أبا عمرو ! قال : أفلا تُسمعنا من بقاياك ؟ قال : نعم . ثم دخل خيمته ؛ فأخرج خريطة ، وأخرج منها دُفًّا ، ثم نقرَ وغنّى :

يا خليلى نابَنى سُهدى * لم تنَمْ عينى ولم تَكَدِ
كيف تلحُونى على رجلٍ * مؤنِس تلتذُّه كبِدى
مِثلُ ضوءِ البدرِ صورتُه * ليس بالزُّمَّيْلَةِ النكدِ
من بنى آل المُغيرةِ لا * خامِلٍ نكْسٍ ولا جَحْدِ
نظرتْ عينى فلا نظرتْ * بعده عينى إلى أحد

ثم ضرب بالدف الأرض والتفت إلى سعيد بن عبد الرحمن فقال : يا أبا عثمان ، أتدرى مَن قائل هذا الشعر ؟ قال : لا . قال : قالته خولة ابنة ثابت

عمتك ، فى عمارة بن الوليد بن المغيرة ! ونهض ، فقال له بكر : لو لم تقل ما قلته لم يُسْمِعْكَ ما أسمعك . وبلغت القصةُ عمرَ بن عبد العزيز ، فأرسل إليهما فسألهما ، فأخبراه ؛ فقال : واحدة بأخرى والبادى أظلم .

هو والنعمان ابن بشير

الأصمعى قال : حدثنى رجل من أهل المدينة ، قال : كان طويس يتغنى فى عرس رجل من الأنصار ، فدخل النعمان بن بشير العرس ، وطويس يتغنى : ٥

أَجَدّ بِعَمْرة غُنيانها * فتهجر أمْ شأننا شأنها

وعَمْرةُ من سَرَوات النسا * ءِ تنفح بالمسك أردانها

فقيل له : اسكت ! لأنّ عمرة أمّ النعمان بن بشير ؛ فقال النعمان : إنه لم يقل بأسا ، إنما قال :

وعمرةُ من سَرَوات النسا * ءِ تنفح بالمسك أردانها ١٠

هو وابن سريج والدلال ونومة الضحى

وكان مع طويس بالمدينة ، ابنُ سريج ، والدلال ، ونومة الضحى ؛ ومنه تعلّموا ، ثم نجم بعد هؤلاء : سلم الخاسر ، وكان فى صحبة عبد الله بن عبد الله بن جعفر ، وعنه أخذ معبد الغناء ، ثم كان ابن أبى السمح الطائى ، وكان يتيما فى حجر عبد الله بن جعفر ، وأخذ الغناء عن معبد ، وكان لا يضرب بعود ، وإنما يغنى مرتجلا ، فإذا غنى لمعبد صوتا حققه ، ويقول : قال الشاعر فلان ، ومططه معبد ، وخففته أنا . ومن غنائه : ١٥

نام صَحْبِى ولم أنمْ * لخيالٍ بنا ألَمّ

إنّ فى القصر غادةً * كحلتْ مُقْلَتى بدمْ

معبد والغريض

وكان معبد والغريض بمكة ، ولمعبد أكثر الصناعة الثقيلة .

ولما قدمت سكينة ابنة الحسين عليهما السلام مكة أتاها الغريض ومعبد فغنياها : ٢٠

عُوجى علينا ربّةَ الهَوْدَج * إنكِ إلا تفعلى تَحْرَجِى

قالت : والله ما لكما مثَلٌ إلا الجدى الحارّ والبارد ، لا ندرى أيهما أطيب .

الغريض وختان

قال إسحاق بن إبراهيم : شهد الغريض ختاناً لبعض أهله ، فقال له بعض القوم : غنّ . فقال : هو ابن الزانية إن غنّى ! قال له مولاه : فأنت والله ابن الزانية ، فغنّ . قال : أكذلك أنا عندك ؟ قال : نعم . قال : أنت أعلم . فغنّى :

وما أنسَ مِ الأشياء لا أنسَ شادناً * بمكة مكحولا أسيلا مدامعُهْ

٥ تشرّب لونَ الرازقيّ بياضُه * أو الزعفران خالَطَ المسكَ رادعه

فلوت الجنّ عنقه فمات . وقال غير إسحاق : بل غنى :

أَمِن مكتومةَ الطَّللُ * يَلوحُ كأنه خَلَلُ

لقد نزلوا قريباً منـ * ـكَ لو نفعوك إذ نزلوا

تُحاولنى لتقتلَنى * وليس بعينِها حَوَل

ابن طنبورة

١٠ ثم نجم ابن طنبورة ، وأصله من اليمن ، وكان أهزج الناس وأخفهم غناء ؛ ومن غنائه :

وفتيانٍ على شرَفٍ جميعاً * دَلفْتُ لهم بباطيَةٍ هَدُورِ

كأنى لم أصِدْ فيهم ببازى * ولم أُطعِم بعَرْصَتِهم صُقورى

فلا تشربْ بلا لهو فإنى * رأيتُ الخيلَ تشربُ بالصّفير

هو فى مجلس شريف

١٥ ويقال : إنه حضر مجلساً لرجل من الأشراف ، إلى أن دخل عليهم صاحب المدينة ، فقيل له : غنّ . فغنى :

ويْلى من الحُبَيّبَهْ * ويْلٌ لِيَهْ ! ويل لِيهْ

قد عَشّشَ الحيّة فى * بُيَيْتِيَهْ بُيَيْتِيَهْ

فضحك صاحب المنزل ووصله .

حكم الوادى

٢٠ ومنهم : حكم الوادى ، وكان فى صحبة الوليد بن يزيد ويغنى بشعره ، ومن غنائه :

خفّ من دار جيرتى * يابنَ داود أُنسُها

قد دنا الصبحُ أو بَدا * وهى لم يقضَ لُبْسُها

فمتى تخـــرج العرُو * سُ لقد طال حَبسُها

خرجتْ بين نِسوةٍ * أكرمُ الجنسِ جِنسُها

الغزيل

وكان بالشام أيام الوليـد بن يزيد ، مُغَنٍّ يقال له الغُزيّل ويكنى أبا كامل ، وفيه يقول الوليد بن يزيد :

من مُبلغ عنّى أبا كامل * أنى إذا ما غابَ كالهابِلِ ٥

ومن غنائه :

آمدحِ الـكأسَ ومن أعملَها * واَهجُ قوماً قتلونا بالعطَشْ

إنمـا الكأسُ ربيعٌ باكـرٌ * فإذا مالم تَذُقها لم تَعش

مغنو الرشيد وزامره

وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين ، ومنهم إبراهيم الموصلى وابن جامع السهمى ، ومخارق ؛ وطبقة أخرى دونهم ، منهم زلزل ، وعمرو الغزال ، وعلّوية. ١٠ وكان له زامرٌ يقال له برصوما . وكان إبراهيم أشدّهم تصرفا فى الغناء ، وابن جامع أحلاهم نغمة .

الرشيد وبرصوما

فقال الرشيد يوماً لبرصوما : ما تقول فى ابن جامع ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، وما أقول فى العسل الذى من حيثما ذقتَه فهو طيب ؟ قال : فإبراهيم الموصلى ؟ قال : هو بستانٌ فيه جميع الثمار والرياحين . قال : فعمرو الغزال ؟ قال : هو حَسنُ ١٥ الوجه يا أمير المؤمنين .

يوسف فى المغنين

قال إسحاق : قلت ليوسف : من أحسنُ الناسِ غناء ؟ قال : ابن محرز ، قلت : وكيف ذلك ؟ قال : إن شئت أجملتُ وإن شئت فصلتُ . قلت : أجمِل . قال : كان يغنى كلَّ إنسان بمـا يشتهى ، كأنه خلق من قلبِ كل إنسان .

وكان إبراهيم أول من وقع الإيقاع بالقضيب . ٢٠

المغنون فى بيت إبراهيم

وحدث يحيى بن محمد قال : بينا نحن على باب الرشيد ننتظر الإذن ، إذ خرج الآذن فقال لنا : أمير المؤمنين يقرئكم السلام ! قال : فانصرفنا ، فقال لنا إبراهيم : تصيرون إلى منزلى ! قال : فانصرفنا معه ، قال : فدخلت داراً لم أر أشرف

منها ولا أوسع ، وإذا أنا بأفرشة خز مظهرة بالسنجاب ، قال : فقعدنا ، ثم دعا بقدح كبير فيه نبيذ ، وقال :

اَسقِنِى بالكبيرِ ، إنى كبيرٌ * إنما يشربُ الصغيرَ صغيرُ

ثم قال :

٥ اَسقِنى قهوةً بكوبٍ كبيرٍ * ودعِ الماء كلّه للحَميرِ

ثم شرب به ، وأمر به فملئ وقال لنا : إن الخيل لا تشرب إلا بالصفير ! ثم أمر بجوارٍ فأحطن بالدار ، فما شبهت أصواتهن إلا بأصوات طير فى أجمة يتجاوبن .

المأمون وإسحاق الموصلى

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : لما أفضتِ الخلافة إلى المأمون ، أقام ١٠ عشرين شهراً لم يسمع حرفا من الغناء ، ثم كان أول من تغنى بحضرته أبو عيسى ، ثم واظب على السماع ؛ وسأل عنى فجرحنى عنده بعضُ من حسدنى فقال : ذلك رجل يتيه على الخلافة ! فقال المأمون : ما أبقى هذا من التيه شيئا . وأمسك عن ذكرى ، وجفانى كلُّ من كان يصِلُنى ، لما ظهر من سوء رأيه ، فأضرَّ ذلك بى ، حتى جاءنى يوما علُّوية ، فقال لى : أتأذن لى اليوم فى ذكرك ، فإنى اليوم عنده ؟ ١٥ فقلت : لا ، ولكن غنِّه بهذا الشعر ، فإنه سيبعثه على أن يسألك من أين هذا ؟ فينفتح لك ما تريد ، ويكون الجوابُ أسهلَ عليك من الابتداء . فمضى علوية ؛ فلما استقر به المجلس غناه الشعر الذى أمرته به ، وهو :

يامشرَعَ الماء قد سُدَّت مسالكُهُ * أما إليكَ سبيلٌ غيرُ مسدودِ

لحائمٍ حار حتى لا حياةَ به * مُشرد عن طريقِ الماء مطرود

٢٠ فلما سمعه المأمون قال : ويلك ! لمن هذا ؟ قال : ياسيدى ، لعبدٍ من عبيدك جفوتَه وآطرحْته ! قال : إسحاق ! قلت : نعم . قال : ليحضُر الساعة . قال إسحاق : فجاءنى الرسول ، فسرتُ إليه ؛ فلما دخلت قال : آدن . فدنوت ؛ فرفع يديه مادَّهما ؛ فاتكأت عليه ؛ فاحتضنى بيديه ؛ وأظهر من إكرامى وبِرِّى مالو أظهره

صديقٌ لى مُواس لَسرّنى .

الرشيد وعبثر

قال: وحدثنى يوسف بن عمر المدنى قال : حدثنى الحارث بن عبيد الله قال: سمعت إسحاق الموصلى يقول : حضر مسامرةَ الرشيد ليلةً عبثر المغنى ، وكان فصيحا متأدبا ، وكان مع ذلك يغنى الشّعر بصوت حسن ، فتذاكروا رقةَ شعرِ المدنيين، فأنشد بعض جلسائه أبياتا لابن الدمينة حيث يقول:

وأذكرُ أيامَ الحِمى ثم أنثَنى * على كَبِدى من خشيةٍ أن تَصدّعا

وليست عشِيات الحمى براجِع * عليكَ ولكن خلِّ عينيكَ تَدْمَعا

بَكت عينىَ اليُمْنى فلما زجرتُها * عنِ الجهلِ بعد الحِلمِ أسبلتَا معا

فأعجب الرشيد رقة الأبيات ، فقال له عبثر : يا أمير المؤمنين ، إن هذا الشعر مدنى رقيق ، قد غُذِى بماء العقيق ، حتى رق وصفا ، فصار أصفى من الهوا ، ولكن إن شاء أمير المؤمنين أنشدتُه ما هو أرق من هذا وأحلى ، وأصلب وأقوى ، لرجل من أهل البادية . قال: فإنى أشاء . قال: وأترنم به يا أمير المؤمنين قال : وذلك لك . فغنى لجرير :

إنّ الذين غَدوا بلُبّكَ غادروا * وشلاً بعينِكَ لا يزال مَعينا

غَيَّضْنَ من عَبراتِهنّ وقُلن لى * ماذا لقيتَ من الهوى ولَقينا

راحوا العشيّةَ روحةً مذكورةً * إن حِرْنَ حِرنا أو هُدين هُدينا

فرمَوْا بهنّ سَواهِماً عُرُضَ الفَلا * إن مِتنَ مِتنا أو حَيين حَيينا

قال : صدقت ياعبثرة ! وخلع عليه وأجازه .

زرياب

وكان لإبراهيم الموصلى عبدٌ أسود يقال له زرياب ، وكان مطبوعا على الغناء علمه إبراهيم : وكان ربما حضر به مجلس الرشيد يغنى فيه ، ثم إنه انتقل إلى القيروان ، إلى بنى الأغلب ؛ فدخل على زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب ، فغناه بأبيات عنترة الفوارس، حيث يقول :

فان تك أمّى غُرابيةً * من آبناء حام بها عِبتَنى

فإنى لطيفٌ ببيض الظُّبا * وسُمر العوالى إذا جئتَنِى
ولولا فرارُكَ يوم الوغَى * لقُدتُك فى الحربِ أو قُدتَنى

فغضب زيادة الله ، فأمر بصفع قفاه وإخراجه ، وقال له : إن وجدتك فى شىء من بلدى بعد ثلاثة أيام ضربت عنقك ! فجاز البحر إلى الأندلس ، فكان عند الأمير عبد الرحمن بن الحكم . ٥

قند

وكان فى المدينة فى الصدر الأول مغنٍّ يقال له قند ، وهو مولى سعد بن أبى وقاص ، وكانت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها تستظرفه ، فضربه سعد ، فحلفت عائشة لا تكلمه حتى يرضى عنه قند ، فدخل عليه سعد وهو وجِعٌ من ضربه ، فاسترضاه ، فرضى عنه ، وكلمته عائشة .

هو ومروان ابن الحكم

١٠ وكان معاوية يُعقب بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص على المدينة : يستعمل هذا سنة وهذا سنة ؛ وكانت فى مروان شدة وغلظة ، وفى سعيد لينُ عريكةٍ وحِلمٌ وصفحٌ ؛ فلقى مروان بن الحكم قندا المغنى ، وهو معزول عن المدينة وبيده عكازة ؛ فلما رآه قال :

قل لقندٍ يُشيعُ الأظعانا * ربَّما سرَّ عينَنا وكفانا

١٥ قال له قند : لا إله إلا الله ، ما أسمجك واليا ومعزولا .

ابن عائشة والحسن

وروى ابن الكلبى عن أبيه قال : كان ابن عائشة من أحسن الناس غناء ، وأنبههم فيه ، وأضيقهم خُلقا ، إذا قيل له غنِّ ، يقول : أو لمثلى يقال هذا ؟ علىَّ عِتق رقبة إن غنيت يومى هذا ! فإن غنى وقيل له أحسنت ، قال : لمثلى يقال أحسنت ؟ على عتق رقبة إن غنيتُ سائرَ يومى هذا . فلما كان فى بعض ٢٠ الأيام سال وادى العقيق ، فجاء بالعجب ، فلم يبق بالمدينة مُخبَّأة ولا شابة ولا شاب ولا كهل إلا خرج يُبصره ، وكان فيمن خرج ابن عائشة المغنى ، وهو معتجر بفضل ردائه ؛ فنظر إليه الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب عليهم السلام ـ وكان فيمن خرج إلى العقيق ـ وبين يديه أسودان كأنهما ساريتان يمشيان بين يديه أمام دابته ؛ فقال لهما : أنتما حُرّان لوجه الله إن لم تفعلا ما آمركما به

ولم أقطعكما إربا إربا ؛ آذهبا إلى ذلك الرجل المعتجر بفضل ردائه ، فخذا بضبعيه فإن فعل ما آمره به وإلا فاقذفا به فى العقيق ! قال : فمضيا والحسن يقفوهما ، فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بضبعيه ؛ فقال : من هذا ؟ فقال له الحسن : أنا هذا يابن عائشة ! قال : لبيك وسعديك ، وبأبى أنت وأمى ! قال : اسمع منى ما أقول ، واعلم أنك مأسور فى أيديهما وهما حُرّان [وقد أقسمت] إن لم تُغنِّ مائة صوت أن يطرحاك فى العقيق وهما حُرّان ، وإن لم يفعلا ذلك لأقطعَنّ أيديَهما ! فصاح ابن عائشة : واويلاه ! واعظم مصيبتاه ! قال دع من صياحك وخذ فيما ينفعنا . قال : اقترح وأقم من يُحصى ! وأقبل يُغنى ، فترك الناس العقيق وأقبلوا عليه ، فلما تمت أصواته مائة ، كبّر الناس بلسان واحد تكبيرة واحدة ارتجت لها أقطار المدينة ، وقالوا للحسن : صلى الله على جدّك حيا وميتا ؛ فما اجتمع لأهل المدينة سرورٌ قط إلا بكم أهل البيت ! فقال له الحسن إنما فعلت هذا بك يابن عائشة لأخلاقك الشّكِسَة ! قال له ابن عائشة : والله ما مرتْ علىّ مصيبةٌ أعظم منها ، لقد بلغت أطراف أعضائى . فكان بعد ذلك إذا قيل له : ما أشدّ ما مر عليك ؟ قال : يوم العقيق .

ابن المهدى

وكان إبراهيم بن المهدى — وهو الذى يقال له ابن شَكْلة — داهيا عاقلا عالما بأيام الناس شاعراً مفلقا ، وكان يَصُوغ فيُجيد .

مخالفته على المأمون

ويروى عن إبراهيم أنه قد كان خالف على المأمون ودعا إلى نفسه ، فظفر به المأمون فعفا عنه ، وقال لما ظفر به المأمون :

ذهبتُ من الدُّنيا كما ذهبَتْ منى * هوى الدهر بى عنها وأهوى بها عنّى

فإن أبكِ نفسى أبكِ نفساً عزيزةً * وإن أحتسِبْها أحتسبْها على ضَنّ

هو والمأمون

فلما فتحت له أبواب الرضا من المأمون . غنى بهما بين يديه ؛ فقال له المأمون : أحسنت والله يا أمير المؤمنين ! فقام إبراهيم رهبة من ذلك ، وقال : قتلتنى والله يا أمير المؤمنين ! لا والله إن جلست حتى تسمّيَنى باسمى . قال : اجلس يا إبراهيم . فكان بعد ذلك آثر الناس عند المأمون : ينادمُه ويسامره ويغنّيه .

قصة يرويها للمأمون

فحدثه يوما فقال : بينا أنا مع أبيك يا أمير المؤمنين بطريق مكة ، إذ تخلفت عن الرفقة وانفردت وحدى ، وعطشت وجعلت أطلب الرفقة ، فأتيت إلى بئر ، وإذا حبشى نائم عندها ، فقلت له : يا نائم ، قم فاسقنى ! فقال : إن كنت عطشان فانزل وآستق لنفسك . فخطر صوت ببالى ، فترنمت به وهو :

٥ كفِّنانى إن متُّ فى دِرْعِ أروَى * وآسقيانى من بئرِ عُرْوةَ ماء

فلما سمع قام نشيطاً مسرورا ، وقال : والله هذه بئر عروة ، وهذا قبره ! فعجبت يا أمير المؤمنين لما خطر ببالى فى ذلك الموضع ، ثم قال : أسقيك على أن تغنّينى ؟ قلت : نعم ، فلم أزل أغنيه وهو يَجْبِذُ الحبل ، حتى سقانى وأروى دابّتى ، ثم قال : أدلك على موضع العسكر على أن تغنّينى ؟ قلت : نعم . فلم يزل ١٠ يعدو بين يدى وأنا أغنيه حتى أشرفنا على العسكر ، فانصرف ؛ وأتيت الرشيد فحدثته بذلك ، فضحك . ثم رجعنا من حجّنا ، فإذا هو قد تلقانى وأنا عديل الرشيد ، فلما رآنى قال : مُغَنّ والله ! قيل له : أتقول هذا لأخى أمير المؤمنين؟ قال إى لعمر الله ، لقد غنانى ! وأهدى إلىّ أقطا وتمرا ، فأمرت له بصلة وكسوة ، وأمر له الرشيد بكسوة أيضا . فضحك المأمون ، وقال : غنّنى الصوت . فغنيته ١٥ فافتتن به ، فكان لا يقترح على غيره .

مخارق وعلوية

وكان مخارق وعلّوية قد حرّفا القديم كله وصيّرا فيه نغَما فارسية ؛ فإذا أتاهما الحجازى بالغناء الأول الثقيل ، قالا : يحتاج غناؤك إلى فصاده ! واسم علّوية : يوسف مولى لبنى أمية .

زلزل

وكان زلزل أضرب الناس للوَتَر ، لم يكن قبله ولا بعده مثله ، ولم يكن ٢٠ يغنى ، وإنما كان يضرب على إبراهيم وابن جامع وبرصوما . ومن غنائه فى المأمون :

ألا إنما المأمونُ للناسِ عِصمةٌ * مُميّزةٌ بين الضلالةِ والرُّشدِ
رأى اللهُ عبدَ اللهِ خيْرَ عبادِه * فملّكه ، واللهُ أعلم بالعبدِ

وحدث سعيد بن محمد العجلى عن الأصمعى قال : كان أبو الطمحان القينى :

القيني وبعض المغنين على باب يزيد

وهو حنظلة بن الشرقي شاعراً مجيداً ، وكان مع ذلك فاسقاً ، وكان قد انتجع يزيد بن عبد الملك ، فطلب الإذن عليه أياماً فلم يصل ، فقال لبعض المغنين : ألا أعطيك بيتين من شعري تغني بهما أمير المؤمنين ، فإن سألك من قائلهما فأخبره أني بالباب ، وما رزقني الله منه فهو بيني وبينك ! قال : هات . فأعطاه هذين البيتين : ٥

يكادُ الغَمام الغُرُّ يَرعدُ إن رأى * مُحَيَّا ابن مَرْوانٍ وينْهَلّ بارِقُه

يظَلُّ فتيتُ المِسْكِ في رونقِ الضُّحى * تسيلُ به أصداغُه ومفارِقُهْ

قال : فغنّى بهما في وقت أريحيّتِه ، فطرب لهما طرباً شديداً ، وقال : لله در قائلهما ! من هو ؟ قال : أبو الطمحان القيني ، وهو بالباب يا أمير المؤمنين . قال : ما أعرفه ! فقال له بعض جلسائه : هو صاحب الدير يا أمير المؤمنين . قال : ١٠ وما قصة الدير ؟ قال : قيل لأبي الطمحان : ما أيسر ذنوبك ؟ قال ليلةَ الدير ! قيل له : وما ليلةُ الدير ؟ قال : نزلت ذات ليلة بدير نصرانية ، فأكلت عندها طفَيْشَلا بلحم خنزير ، وشربت من خمرها ، وزنيتُ بها ، وسرقت كساءها ، ومضيت ؛ فضحك يزيد وأمر له بألفي درهم ، وقال : لا يدخل علينا ! فأخذها أبو الطمحان وانسلّ بها ، وخيّب المغنّي . ١٥

المسدود وزنين وديبس

أبو جعفر البغدادي قال : حدثني عبد الله بن محمد كاتب بغا عن أبي عكرمة قال : خرجت يوماً إلى المسجد الجامع ومعي قرطاس لأكتب فيه بعض ما أستفيده من العلماء ، فمررت بباب أبي عيسى بن المتوكل فإذا ببابه المسدود ، وكان من أحذق الناس بالغناء ؛ فقال : أين تريد يا أبا عكرمة ؟ قلت إلى المسجد الجامع ، لعلّي أستفيد فيه حكمة أكتبها . فقال : ادخل بنا على أبي عيسى . قال : فقلت : ٢٠ مثل أبي عيسى في قدره وجلالته يُدْخَلُ عليه بغير إذن ! قال : فقال للحاجب : أعلِم الأمير بمكان أبي عكرمة . قال : فما لبث إلا ساعة حتى خرج الغلمان فحملوني حملا ؛ فدخلت إلى دار لا والله ما رأيتُ أحسن منها بناء ، ولا أظرف فرْشاً ؛ ولا صباحةَ وجُوهٍ ؛ فحين دخلنا نظرت إلى أبي عيسى ، فلما

أبصرنى قال لى : ما يعيش من يحتشم ! أجلس ، فجلست ، فقال : ما هذا القرطاسُ بيدك ؟ قلت : ياسيدى حملتُه لأستفيد فيه شيئاً ، وأرجو أن أُدْرِك حاجتى فى هذا المجلس . فمكثنا حيناً ، ثم أُتِينا بطعام ما رأيت أكثر منه ولا أحسن ، فأكلنا ؛ وحانت منى التفاتة ، فإذ أنا بزنين ودبيس ؛ وهما من أحذق الناس بالغناء ، قال : فقلت : هذا مجلس قد جمع الله فيه كلّ شىء مليح . قال : ورُفِعَ الطعام وجىء بالشراب ؛ وقامت جارية تسقينا شراباً ما رأيت أحسن منه ، فى كل كأس لا أقدر على وصفها ؛ فقلت : أعزك الله ، ما أشبه هذا بقول إبراهيم بن المهدى يصف جارية بيدها خمر :

حمراء صافية فى جوْفِ صافيةٍ * يسعَى بها نحوَنا خود مِنَ الحُورِ
حسناء تحملُ حسناوَيْنِ فى يدِها * صافٍ من الرّاح فى صافى القواريرِ

وقد جلس المسدود وزنين ودبيس ، ولم يكن فى ذلك الزمان أحذقُ من هؤلاء الثلاثة بالغناء ؛ فابتدأ المسدود فغنّى :

لما استقلّ بأرداف تُجاذِبُهُ * واخضرّ فوق حجاب الدرّ شاربُه
وتمّ فى الحسن والتأمتْ محاسنُه * ومازجَت بِدعاً فيها غرائبُه
وأشرقَ الوردُ فى نسرينِ وجْنتِه * واهتزّ أعلاه وارتجّتْ حقائبُه
كلّمتُه بجفونٍ غيرِ ناطقــــة * فكان من ردّه ما قال حاجبُه

ثم سكت ، فغنى زنين :

الحبُّ حُـــلوٌ أمَرّتْهُ عواقبُه * وصاحِبُ الحبِّ صَبُّ القلبِ ذائبُه
أستودِعُ الله مَنْ بالطّرْفِ ودّعَنى * يوم الفِراق ودمْعُ العيْنِ ساكبُهُ
ثم انصرفتُ وداعى الشوْقِ يهتِفُ بى * ارفقْ بقلبِك قد عزّتْ مطالبُه

وقال :

وعاتَبْتُهُ دهراً فلما رأيْتُـــهُ * إذا ازْداد ذُلًّا جانبى عزّ جانبهْ
عقدتُ له فى الصدرِ منى مَودّةً * وخلّيتُ عنه مُبْهماً لا أعاتبُهْ

ثم سكت ، فغنى دبيس :

بدرٌ مِنَ الإنسِ حفّتهُ كواكبُه * قد لاح عارضُه وٱخضرّ شاربُه
إن يوعِد الوعدَ يوماً فهو مُخلِفُه * أو ينطِقُ القولَ يوما فهو كاذِبه
عاطيتُه كدَمِ الأوداجِ صافيةً * فقام يشدُو وقد مالتْ جوانبُه

قال أبو عكرمة : فعجبت أنهم غنّوا بلحن واحد وقافية واحدة . ٥

قال أبو عيسى : يعجبك من هذا شيء يا أبا عكرمة ؟ فقلت : ياسيدى المُنى دون هذا . ثم إن القوم غنّوا على هذا إلى انقضاء المجلس : إذا ابتدأ المسدود تبعه الرجلان بمثل ما غنى ؛ فكان مما غنى المسدود :

يا دَيْرَ حَنَّةَ من ذاتِ الأُكَيْراحِ * مَنْ يَصْحُ عنكِ فإنى لست بالصّاحى
يعتادُه كلُّ مَحْفِىٍّ مفــارِقُه * مِنَ الدِّهان عليه سَحْقُ أمساحِ ١٠
ما يَدلِفونَ إلى ماءٍ بآنيةٍ * إلّا اغترافاً مِنَ الغُدرانِ بالرّاحِ

ثم سكت فغنى زنين :

دعِ البساتينَ من آسٍ وتفّاحِ * وٱعدِلْ هُدِيتَ إلى ذاتِ الأُكَيْراحِ
وٱعدِلْ إلى فِتيةٍ ذابت لُحومُهُم * مِنَ العبادةِ إلّا نِضْوُ أشباحِ
وخَمرةٍ عُتِّقتْ فى دَنّها حِقَباً * كأنها دمعةٌ فى جَفْنِ سَيّاحِ ١٥

ثم سكت فغنى دبيس :

لا تحفلَنَّ بقولِ اللائمِ اللاحى * وٱشربْ على الوردِ من مشمولةِ الراحِ
كأساً إذا انحدرتْ فى حلقِ شاربِها * أغناك لألاؤها عن كلّ مصباحِ
ما زلتُ أسقى نديمى ثم ألثِمُهُ * والليلُ مُلتحِفٌ فى ثوبِ سَيّاحِ
فقام يشدُو وقد مالت سوالفهُ * يا دَيْرَ حَنّةَ مِنْ ذاتِ الأُكَيْراحِ ٢٠٢

ثم ابتدأ المسدود فغنى :

يا حوَرَ العَيْنِ والدَّعَجِ * وٱحمِرارَ الخدِّ فى الضَّرَجِ
وبتُفّاحِ الخدودِ وما * ضُمَّ من مِسْكٍ ومن أرَجِ

كن رقيقَ القلب إنكَ مِن * قتل مَن يَهواك فى حَرَج

ثم سكت وغنى زنين :

كسْرَوِىُّ التِّيه مُعتدل * هاشمىُّ الدَّلّ والغَنَج

وله صدْغان قد عطَفا * ببياض الخد كالسَّبَج

٥ وإذا ما افترّ مُبتسما * أطلَق الأسرى من المُهَج

ما لِما بِى منكَ من فَرَجٍ * لا ابتلانى اللهُ بالفَرَج

ثم سكت وغنى دبيس :

تَعمَلُ الأجفانُ بالدَّعَج * عمَل الصَّهباء بالمُهج

بأبى ظَبىٌ كَلِفْت به * واضحُ الخدَّين والفَلَج

١٠ مَرَّ بى فى زِىِّ ذى خَنَث * بين ذات الضَّالِ من أمَج

قلت قلبى قد فتَكتَ به * قال ما فى الدِّين من حَرَج

ثم سكت وغنى المسدود :

ما يُبالى اليوم ما صَنعا * مَن بقلبى يُبْدِعُ البِدَعا

كنتُ ذا نُسُكٍ وذا وَرَع * فتركتُ النُّسْكَ والورعا

١٥ كم زَجرتُ القلبَ عنكَ فلمْ * يُصْغِ لى يوما ولا نَزَعا

لا تَدَعْنى للهوى غَرَضا * إنّ وِرْدَ الموت قد شَرَعا

ثم سكت وغنى دبيس

آسقِنى كأساً مُصرَّدَةً * إن نجمَ الليل قد طلَعا

قد شربْتُ الحبَّ شُرْبَ فتى * لم يَدعْ فى كأسه جرَعا

٢٠ ثم ابتدأ أيضاً دبيس فغنى :

يقولون فى البستان للعين لذة * وفى الخمر والماء الذى غيرُ آسنِ

إذا شئت أن تلقى المحاسنَ كلَّها * ففى وجه مَن تَهوى جميعُ المحاسن

فغضب المسدود لما قطع عليه دبيس ، وقال : غن على غير هذه القافية واللحن ، ثم نرجع إلى حالنا الأولى : فقال أبو عكرمة : قد أصبت . فابتدأ المسدود فغنى :

أدعوك من قلبي إذا لم أرَكْ * ياغاية الطرف إذا أبصرَكْ

قضى لك الله فسبحان مَن * أحلكَ القلبَ ومن قدَّرك ٥

لستُ بناسيك على حالةٍ * ياليت ما يُذكرني ذِكْرك

صبَّرَنى الله على ما أرى * منك من الهجر كما صبَّرَك

قال : فقال زنين : وأنا فلا بد أن أسلك سبيلكما . قال أبو عكرمة : ثم التفت إلى فقال : ماترى ؟ فقلت . أحسنت والله . فابتدأ يغنى :

ياهائم القلبِ عاصٍ من عذَلك * ما نلتَ ممن هويته أملكَ ١٠

دعاك داعى الهوى بخدْعتِه * حتى إذا ما أجبتَه خذَلكْ

فاحتَلْ لداء الهوى وسطْوتِه * إنكَ إن لم تُداوِه قتلكْ

ثم ابتدأ المسدود يغنى :

شققتُ جيبي عليكَ شقًّا * وما لجيبي أردتُ شقا

أردتُ قلبي فصادفَتهُ * يدايَ بالجيبِ قد توقى ١٥

مالكَ رقِّى أبيتَ عِتقى * لولاك ما كنتُ مُسترَقا

ثم سكت وغنى زنين :

قد ذُبتُ شوقًا ومتُّ عشقا * يازفراتِ الحبِّ رفقـا

ثكِلتُ نفسى وزرتُ رمسى * إن كنت للهجرِ مُستحقًّا

ثم سكت وغنى دبيس : ٢٠

ظمئتُ شوقا وبحر عشق * يفيضُ عذباً ولست أُسْقَى

أنا الذى صرتُ من غرامى * على فراشِ السّقامِ ملقى

فمن زفير ومن شهيقٍ * ومن دموع تجودُ سبْقا

ثم ابتدأ المسدود فغنى :

ماذا على بُخْلِ العيونِ لوَ انهم * أومَوْا إليك فسلموا أو عرّجوا

أَمِنوا مُقاساةَ الهموم وأيقنوا * أنّ المحبَّ إلى الأحبَّةِ يُدلِج

٥ ثم سكت وغنى دبيس :

هيّا فقد بدأ الصّباحُ الأبلجُ * قد ضمّ مُشبِهةَ الغزالِ الهودجُ

بانوا ولم أقضِ اللُّبانةَ منهمُ * وكذا الكريمُ إذا تصابَى يلهجُ

ثم سكت وغنى زنين :

السحرُ والغنْجُ فى عينيكَ والدّعجُ * والشمسُ والبدرُ فى خدَيكَ والضرجُ

١٠ الدُرْ ثغرُكَ لولا أنّ ذا بَرَدٌ * والخمرُ صُدغُكَ لولا أنّ ذا سبج

أنضجْت قلبى ولو أنّ الورى لقيَت * قلوبُهم منكَ ما لاقيْتُ ما لهجوا

ثم سكت وابتدأ المسدود فغنى :

يا صاحبَ المُقلِ المِراضِ * أنظر إلىّ بعين راض

إن تجفُنى مُتعمّداً * لتُذيقَنى جرعَ الحِياض

١٥ فلطالما أمكنْتَنى * منكَ المراشفَ عن تَراض

ثم سكت وغنى زنين :

هائمٌ مُدنَف من الإعراضِ * لا سبيلٌ له إلى الإغماضِ

مُوثَقُ النومِ مُطلَقُ الدمعِ ما يَعـرِف ملْجأ من الحُتوفِ القَواضى

ما تَرَى جِسمَهُ سوى لحظاتٍ * أمْرضتْه من العيونِ المِراض

٢٠ ثم سكت وغنى دبيس :

كن ساخطاً وآظهر بأنكَ راضِ * لا تُبدينّ تكرُّهَ الإعراضِ

وآنظر إلىّ بمقلةٍ غضْبانةٍ * إن كنتَ لم تنظر بمقلةِ راض

وآرحم جُفوناً ما تَجفُّ من البكا * فى ليلةٍ مسلوبةِ الإغماضِ
وآحكم فَديتُك بين جسمى والهوى * فالحكمُ منك على الجوارحِ ماضِ

ثم ابتدأ المسدود فغنى :

ياذا الذى حالَ عنِ العهدِ * ومَن يَرانى منه بالصّدّ
بسُمْرةِ الخالِ وما قد حوى * من حُمرةٍ فى سالفِ الخدّ
إلا تعطفتَ على عاشقٍ * مُنفردٍ بالبثّ والوجدِ

ثم سكت وغنى زنين :

أظلُّ بكتمانِ الهوى وكأنمـــا * أُلاقى الذى لاقاه غيرى من الوجْدِ
وعيبَ علىّ الشّوقُ والوجدُ والبكا * ولا أنا بالشكوى أنفّسُ من جهدى

ثم سكت وغنى دبيس :

تهزّأتَ بى لما خلوتَ من الوَجدِ * ولم تَرْثِ لى لا كان عندكَ ما عندى
وعِيبَ علىّ الشوقُ والوجدُ والبكا * وأنت الذى أجريت دمعى على خدّى
صددتَ بلا جُرمٍ إليـــك أتيتُه * أكان عجيباً لو صددتَ عنِ الصدِّ
ألا إنّنى عبـــدٌ لطرفكَ خاضعٌ * وطرفُكَ مولًى لا يرِقّ على عبدِ

ثم غنى المسدود :

أقمتُ ببلدةٍ ورحلتَ عنها * كِلانا عندَ صاحبِه غريبُ
أقلُّ الناسِ فى الدنيا نَصيبا * مُحِبٌّ قد نأى عنه الحبيبُ

ثم سكت وغنى زنين :

ويُقنِعُنى ممن أُحبُّ كتابُه * ويمنَعُنيهِ ، إنه لبخيـــلُ
كفى حَزَناً أن لا أُطيقَ وداعَكم * وقد حان منّى ياظلومُ رحيلى

ثم سكت وغنى دبيس :

يا واحدَ الحسن الذى لحظاتُه * تَدعو النُّفوسَ إلى الهوى فتُجيبُ

مَن وجهُه القمرُ المنيرُ وحُسنُه ٭ غُصنٌ نضيرٌ مُشرقٌ وكثيبُ
أ لِناظرَيْكَ على العيونِ رقيبةٌ ٭ أم هل لِطرْفِك فى القلوبِ نصيبُ

ثم ابتدأ المسدود فغنى :

قَلَقٌ لم يزُلْ وصبرٌ يَزولُ ٭ ورِضاً لم يَطُلْ وسُخْطٌ يطولُ
لم تَسِلْ دَمعتى علىّ من الرّحمةِ حتى رأيتُ نفسى تسيل ٥
جالَ فى جسمى السّقام لجسمى ٭ مُدْنَفٌ ليس فيه رُوحٌ تجول
يَنقضى للقتيلِ حولٌ فيُنْسَى ٭ وأنا فيك كلَّ يومٍ قتيل

ثم سكت وغنى زنين :

ليس إلى تركِكَ من حيلة ٭ ولا إلى الصبرِ لقلبى سبيلْ
فكيفَما شئتَ فكن سيدى ٭ فإنّ وجْدى بك وجْدٌ طويلْ ١٠
إن كنتَ أزمَعْت على هجْرنا ٭ فحسبُنا الله ونعمَ الوكيل

قال أبو عكرمة : وأقبل أبو عيسى على المسدود فقال له غنِّ صوتاً . فغنى :

يا لُجّةَ الدمعِ هل للدمعِ مَرْجوعُ ٭ أمِ الكرَى من جُفونِ العيْنِ ممنوعُ
ما حيلتى وفــؤادى هائم أبداً ٭ بعقربِ الصُّدْغِ من مولاى ملْسوع
لا والذى تَلِفَت نفسى بفُرْقتِه ٭ فالقلبُ من حُرَقِ الهِجْران مَصدوع ١٥
ما أرّقَ العيْنَ إلا حُبُّ مُبْتدِعٍ ٭ ثوْبُ الجمالِ على خدّيْه مخلوع

قال أبو عكرمة : فوالله الذى لا إله إلا هو ، لقد حضرت من المجالس ما لا أحصى ، فما رأيت مثل ذلك اليوم . ثم إن أبا عيسى أمر لكل واحد بجائزة وانصرفنا ، ولولا أن أبا عيسى قطعهم ما انقطعوا .

من سمع صوتا فوافقه معناه فاستخفه الطرب ٢٠

حكى عن إسحاق بن إبراهيم الموصلى عن أبيه قال : دخلت على هارون الرشيد فلما رأيته قد أخذ فى حديث الجوارى وغلبتهن على الرجال ، غنيته بأبيات التى

يقول فيها :

مَلَكَ الثّلاثُ الآنساتُ عِنانى * وحَلَلْن من قلبى بكلّ مكان
مالى تُطاوعُنى البريّةُ كلُّها * وأُطيعهُنّ وهُنّ فى عصيانى
ماذاك إلا أنّ سلطانَ الهوى * وبه قَوِينَ أعزُّ من سلطانى

فارتاح وطرب ، وأمر لى بعشرة آلاف درهم .

الموصلى والأمين

وغنى إبراهيم الموصلى محمد بن زبيدة الأمين بقول الحسن بن هانئ فيه :

رشـأٌ لولا مَلاحتُـه * خلَت الدُّنيا من الفِتَنِ
كلّ يومٍ يَسترِقُّ له * حُسنُه عبداً بلا ثمن
ياأمين اللهِ عش أبداً * دُمْ على الأيام والزمن
أنتَ تبقى والفَناء لنـا * فإذا أفنيْتَنا فكُنِ
سَنّ للناسِ القِرى فقَروْا * فكأنّ البُخلَ لم يكنِ

قال : فاستخفه الطرب حتى قام من مجلسه وأكبَّ على إبراهيم يقبّل رأسَه ؛ فقام إبراهيم من مجلسه يقبل أسفل رجليه وما وطئتا من البساط ؛ فأمر له بثلاثة آلاف درهم ؛ فقال إبراهيم : ياسيدى ، قد أجزتنى إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم ! فقال الأمين : وهل ذلك إلا خراج بعض الكور ؟

جرير والشعراء

الرياشى عن الأصمعى ؛ قال : قدم جرير المدينة ، فأتاه الشعراء وغيرهم ، وأتاه أشعب فيهم ، فسلموا عليه وحادثوه ساعة وخرجوا ، وبقى أشعب . فقال له جرير : أراك قبيحا ، وأراك لئيم الحسب ؛ ففيم قعودك وقد خرج الناس ؟ فقال له : أصلحك الله ، إنه لم يدخل عليك اليوم أحد أنفع لك منى ! قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنى آخُذُ رقيق شعرك فأزيّنُه بحسن صوتى . فقال له جرير : فقل . فاندفع يغنيه :

ياأختَ ناجيةَ السّلام عليكم * قبل الرحيل وقبل لوْمِ العُذّلِ
لو كنتُ أعلم أنّ آخر عهدِكم * يوم الرّحيلِ فعلتُ مالم أفعلِ

قال : فاستخف جرير الطربُ لغنائه بشعره ، حتى زحف إليه واعتنقه وقبّل بين عينيه ، وسأله عن حوائجه فقضاها له .

المسور وامرأته

الزبير بن بكار قال : كان المسور بن مخرمة ذا مال كثير ، فأسرع فيه على إخوانه ، فذهب فسأل آمرأته — وكانت موسرة — فمنعته وبخلتْ عليه ؛ فخرج يريد بعض خلفاء بنى أمية منتجعا ، فلما كان ببعض الطريق نزل ماء يقال له بلاكث ، فقال له غلامه : كيف يقال لهذا الماء ؟ قال : يقال له بلاكث ، فقال [مغنّيا] :

بينما نحن من بلاكِثَ بالقا ع سِراعا والعِيسُ تهوي هُوِيّا
خطَرتْ خطرةٌ على القلبِ من ذِكْـراك وهْناً فما آستطعتُ مُضِيّا
قلتُ لبّيْكِ إذ دعانى لكِ الشّوْ قُ ، وللحادِيِين كُرّا المَطيّا

فقال : هن بُدْنٌ إن لم تكرّها رواجع . قال له : قد أشرفن على أمير المؤمنين قال : هن بُدن إن لم تكرها رواجع ! فانصرف ، ودخل المصلى ليلى ، فوجد رجال قريش حلَقا يتحدثون ، فقالوا له : زاد خير ! فقال : زاد خير . حتى انتهى إلى داره ، فقالت له امرأته : زاد خير ! فأنشدها الأبيات . قالت : كل ما أملك فى سبيل الله ، إن لم أشاطرك مالى ! فشاطرته مالها .

عمر الوادى

وروى أبو العباس قال : حُدثت أن عمر الوادى قال : أقبلت من مكة أريد المدينة ، فجعلت أسير فى صَمْد من الأرض ، فسمعت غناء من الهواء لم أسمع مثله فقلت : والله لأتوصّلنّ إليه . فإذا هو عبد أسود ، فقلت له : أعِدْ ما سمعت . فقال : والله لو كان عندى قِرى أقريك ما فعلت ، ولكن أجعلُه قِراك ؛ فإنى والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا جائع فأشبع ، وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط وربما غنيتُه وأنا عطشان فأرْوَى ! ثم ابتدأ فغنى :

وكنتُ متى ما زرتُ سُعدَى بأرضِها أرى الأرضَ تُطوى لى ويَدنو بعيدها
من الخَفِراتِ البِيضِ وَدّ جليسُها إذا ما انقضتْ أُحدوثةٌ لو يُعيدُها

قال عمر : فحفظته منه ، ثم تغنيت به على الحالات التى وصف ، فإذا هو كما ذكره .

خالد صامة

وتحدث الزبيريون عن خالد صامة بأنه كان من أحسن الناس ضربا بعود . قال : قدمت على الوليد بن يزيد فى مجلس ناهيك به مجلسا ، فألفيته على سريره ، وبين يديه معبد ، ومالك بن أبى السمح ، وابن عائشة ، وأبو كامل غُزَيِّل الدمشق ٥
وكانوا يغنُّون ، حتى بلغت النوبة إلىّ ، فغنيته :

سَرَى هَمِّى وهَمُّ المرء يسرى ٭ وغابَ النَّجمُ إلا قِيدَ فِتْرِ
لِهَمٍّ ما أزالُ له قــريبا ٭ كأنَّ القلبَ أُودِعَ حرَّ جَمْرِ
على بَكْرٍ أخى ، فارقْتُ بَكْرا ٭ وأىُّ العيْشِ يصلُحُ بعد بكْرِ

فقال : أعد يا صام . ففعلت ، فقال لى : مَن يقول هذا الشعر ؟ قلت : ١٠
يقوله عروة بن أذينة يرثى أخاه بكرا . قال الوليد :

وأى عيش يصلح بعد بكر !

والله لقد حَجَّر واسعا . هــذا والله العيش الذى نحن فيــه ، يصلح على رَغْم أنفه !

سكينة

وقد قيل : إن سكينة بنت الحسين غنيت بهــذا الشعر ، فقالت : ومَن بكر ١٥
هــذا ! هو ذاك الأشتر الذى كان يأتينا ؟ لقد طاب كلُّ شىء بعده حتى الخبز والزيت !

الرشيد وإسحاق الموصلى

وعن عبد الصمد بن المعذَّل قال : سمعت إسحاق الموصلى يتحدث ، قال : حججت مع الرشيد ، فلما نزلت المدينة آخيت رجلا كانت له مُروءة ومعرفة
وأدب ، وكان يغنِّى ، فإنى ذات ليلة فى منزلى إذا أنا بصوته يستأذن علىّ ، فظننت ٢٠
أمرا قد حدث ففزع فيه إلىّ ، فأسرعت نحو الباب فقلت : ما جاء بك ؟ قال : دعانى صديقٌ إلى طعام عتيد ، ومجلس شراب قد التقى طرفاه ، وشواء رَشراش ، وحديث ممتع ، وغناء مشبع ؛ فأجبته وأقمت معه إلى هــذا الوقت ، فأخذتْ

مني حُميا الكأس مأخذها ، ثم غنيت بقول نصيب :

بزينبَ أَلْمِمْ قبل أن يَرحلَ الرَّكْبُ ٭ وقل إن تَمَلّينا فما مَلّكِ القلبُ

فكدت أطير طربا ، ثم وجدت فى الطرب تنغيصاً إذا لم يكن معى من يفهم هذا كما فهمته ؛ ففزعت إليك لأصف لك هذه الحال ثم أرجع إلى صاحبي ! وضرب بغلته مولّيا فقلت : قف أكلمك . فقال مابى إلى الوقوف إليك من حاجة .

معاوية ويزيد وسائب خاثر

وحدث أن معاوية بن أبى سفيان استمع على يزيد ذات ليلة ، فسمع عنده غناء أعجبه ؛ فلما أصبح قال له : من كان مُلْهيَك البارحة ؟ قال : سائب خاثر . قال : فأكثر له من العطاء .

عثمان بن حيان وابن أبى عتيق فى تحريم الغناء

وكان ابن أبى عتيق من نبلاء قريش وظرفائهم ؛ فمن ظريف أخباره :

أن عثمان بن حيان المرى لما دخل المدينة واليا عليها ، اجتمع إليه الأشراف من قريش والأنصار ، فقالوا له : إنك لا تعمل عملا أحرى ولا أولى من تحريم الغناء والرثاء . ففعل ، وأجلهم ثلاثا ؛ فقدم ابن أبى عتيق فى الليلة الثالثة ، وكان غائبا ، فحط رحله بباب سلامة الزرقاء ، وقال : بدأتُ بك قبل أن أصير إلى منزلي ! قالت : أو ما تدرى ماحدث بعدك ؟ وأخبرته الخبر ؛ فقال : أقيمى إلى السَّحر حتى ألقاه . فلقيه ، فأخبره أنه إنما أقدمه حبُّ التسليم عليه ، وقال له : إن أفضل ما عملت تحريم الغناء والرثاء . فقال : إن أهلك أشاروا علىّ بذلك . قال : إنهم وُفقوا ووُفقتَ ، ولكنى رسول امرأة إليك تقول : قد كانت هذه صناعتى فتبت إلى الله منها ، وأنا أسألك أيها الأمير أن لا تحول بينها وبين مجاورة قبر النبي صلى الله عليه وسلم . قال عثمان : إذاً أدعها . فقال : إذاً لا تدعك الناس ، ولكن تدعو بها فتنظر إليها ، فإن كان يجوز تركها تركتها . قال : فادْع بها . فأمر ابن أبى عتيق فتنقّبت وأخذت سُبحة فى يدها ، وصارت إليه فحدثته عن مآثر آبائه ، ففكه بها ؛ فقال ابن أبى عتيق : أريد أن أسمع الأمير قراءتها . ففعلت ؛ فحركه حداؤها . ثم قال له ابن أبى عتيق : فكيف لو سمعتها

فى صناعتها التى تركتها! فقال له: قل لها فلتُغنِّ. فغنت:

شددْنَ خصاصَ البيْت لما دخلْتُه * بِكلِّ بَنانٍ واضحٍ وجبينِ

فنزل عثمان عن سريره ثم جلس بين يديها، وقال: لا والله ما مثلك يخرج عن المدينة! فقال ابن أبي عتيق: يقول الناس: أذِنَ لسلّامة ومنع غيرها! فقال له: قد أذنتُ لهم جميعاً!

وذُكر لابن أبي عتيق أن المخنثين خُصُوا، وأنه خُصِيَ فلان فيهم —لواحد منهم كان يعرفه—، فقال ابن أبي عتيق: إنا لله! لئن خُصِيَ لقد كان يحسن:

لمن ربعٌ بذاتِ الجيْـ * ـشِ أمسَى دراساً خلَقا

ثم استقبل ابن أبي عتيق القِبلة، فلما كبّر سلّم، ثم قال لأصحابه: أما إنه كان يحسن خفيفه، فأما ثقيله فلا. ثم كبّر.

سليمان ومغن فى عسكره

وكان سليمان بن عبد الملك مفرط الغَيرة، فسمع مغنيا فى عسكره، فقال: اطلبوه! فجاءوا به، فقال له: أعد ما تغنّيت به. فأعاد واحتفل، فقال لأصحابه: والله لكأنها جرجرة الفحل فى الشول، وما أحسب أنثى تسمع هذا إلا صَبتْ إليه! ثم أمر به فخُصِيَ.

ابن هشام ورجل صالح

وقال أبو العباس محمد بن يزيد النحوى: رُوِيَ لنا أن رجلا من الصالحين كان عند إبراهيم بن هشام، فأنشده إبراهيمُ قول الشاعر:

... إذ أنتِ فينا لمَنْ ينهاكِ عاصيةٌ * وإذ أجرُّ إليكم سادِراً رَسَـني

فقام الرجل فرمى بشقّ ردائه وأقبل يسحبه حتى خرج من المجلس، ثم رجع إلى موضعه لمجلس؛ فقال له إبراهيم: ما بالك؟ قال: إنى كنت سمعت هذا الشعر فاستحسنته، فآليت أن لا أسمعه إلا جررتُ ردائى كما جر هذا الرجلُ رسَنَهُ!

شاعر ومغن

ووقف رجل من الشعراء على رجل من المغنّين فأنشده:

إنى أتيتُ إليك من أهلى * فى حاجة يسعى لها مثلى

لا أبتغي شيئاً لديكَ سوَى * «حيَّ الحُمولَ بجانبِ الرّملِ»

قال له : انزل !

دحمان المغني

مرّ دحمانُ المغني بقوم وعليه رداء عدنى يثربى ، فقالوا له : بكم أخذتَ الرداء ؟ فقال : بـ * ألا إنّ جيراننا ودّعوا *

أشعب وهاشمى

٥ وحدثنى أبو العباس أحمد بن بكر ببغداد قال : حدثنى إسحاق بن إبراهيم الموصلى قال : كان يقال قديماً : إذا قسا عليك قلبُ القرشى من تهامة ، فغنّه بشعر عمر بن أبى ربيعة وغناء ابن سريج . وكذا فعل أشعبُ برجل من أهل مكة من بنى هاشم ، وكان أشعب قد انتجع أهل مكة من المدينة .

قال أشعب : فلما دخلت عليه غنيتُه بغناء أهل المدينة وأهل العقيق ، فلم ١٠ ينجع ذلك فيه ولم يحرّك من طرَبه ولا أريحيّته ؛ فلما عيل صبرى غنيتُه بغناء ابن سريج المكى وقول ابن أبى ربيعة القرشى :

نظرتُ إليها بالُمحصّبِ من منى * ولى نظرٌ لولا التحرُّجُ عارِمُ

فقلت أشمسٌ أم مصابيحُ راهب * بدتْ لك تحت السجْفِ أم أنت حالم

بعيدةُ مهوَى القُرْط إما لِنوْفلٍ * أبوها وإما عبد شمس وهاشمُ

١٥ قال : فحرّكت والله من طربه ، وكان الذى أردتُ ؛ ثم غنيته لابن أبى ربيعة القرشى أيضا :

ولولا أن يقولَ لنا قريشٌ * مقالَ الناصحِ الأدنى الشفيقِ

لقلتُ إذِ التقَيْنا قبّلينى * وإن كنا بقارعةِ الطريقِ

فقال : أحسنَ والله ! هكذا يطيب التلقّى ، لا بالخوف والتوقّى ! قال : فلما ٢٠ رأيته قد طرب للصوتين ولم يندَ لى بشىء ، قلت : هو الثالث وإلا فعليه السلام . قال : فغنيتُه الثالث من غناء ابن سريج قولَ عمر بن أبى ربيعة ، ويقال إنها لجميل :

مازلت أمتحِنُ الدّساكرَ دونها * حتى ولجت على خَفِيِّ المَوْلِجِ

فوضعتُ كفّى عند مقطع خَصْرها * فتنفّست نفسا ولم تتلهّج
قالت: وحقّ أخى وحُرْمةِ والدى * لأنبّهن الحىّ إن لم تخرُج
فخرجتُ خيفة قولها فتبسّمت * فعلِمت أن يمينها لم تحرَج
فرشَفتُ فاها آخذاً بقرونها * رشف النزيفِ ببَرْد ماء الحشْرج

فصاح الهاشمى: أوّه! أحسن والله وأحسنت! وأمر لى بألف درهم وثلاثين حلة وخلعة كانت عليه.

وغنى ابن سريج رجلا من بنى هاشم بقول جرير:

بعثن الهوى ثم ارتمَيْن قلوبنا * بأسهُم أعداء وهنّ صديقُ
وما ذُقت طعم العيش منذ نأيتم * وما ساغ لى بين الجوانح ريقُ

قال: فخطف من ثوبه ذراعا، وقال: هذا والله العقيان فى نحور القيان! ١٠

مدنى وجارية تغنى

قال: وصحب شيخ من أهل المدينة شابًّا فى سفينة ومعهم جارية تغنى، فقال له: إن معنا جارية تغنى، ونحن نُجلّك؛ فإذا أذنتَ لنا فعلنا. قال: فأنا أعتزل وافعلوا ما شئتم. فتنحّى وغنت الجارية:

حتى إذا الصبحُ بدا ضوءُه * وغابت الجوْزاءُ والمِرزَمُ
أقبلت والوطء خفىٌّ كما * ينسابُ من مكْمَنِه الأرقمُ ١٥

فرمى الناسك بنفسه فى الفرات وجعل يخبط بيديه ويقول: أنا الأرقم! فأخرجوه وقالوا: ما صنعت؟ فقال: والله إنى أعلم من تأويله ما لاتعلمون!

قاضى مكة ومغنية

وقال أحمد بن جعفر: حضر قاضى مكة مأدُبة لرجل من الأشراف، فلما انقضى الطعام اندفعت جارية تغنى:

إلى خالد حتى أنخنا بخالدٍ * فنعم الفتى يُرجَى ونعم المؤمَّلُ ٢٠

فلم يدرِ القاضى ما يصنع من الطرب، حتى أخذ نعليه، ثم جثى على ركبتيه وقال: أهدونى فإنى بدنة.

هاشمى ومغن

كان رجلٌ من الهاشميين يحب السماع؛ فبعث إلى رجل من المغنين فاقترح

عليه صوتا كان كِلفا به ، فغناه إياه ؛ فطرب الهاشمى وشق ثوبا كان عليه، ثم قال للمغنى : أفعل بنفسك مثل ما فعلت بنفسى ! قال : أصلحك الله ، إنك تجد خلَفاً من ثوبك ، وإنى لا أجد خلفاً من ثوبى قال : أنا أخلف لك . قال : فأفعل وتفعل ؟ قال : أخرجْتنا من حد الطرَب إلى حد السَّوم .

من قرع قلبه صوت فمات منه أو أشرف

٥

يزيد ومغنية

حدث أبو القاسم إسماعيل بن عبد الله المأمون فى طريق الحج من العراق إلى مكة ، قال : حدثنى أبى ، قال : كانت بالمدينة قينة من أحسن الناس وجها وأكملهم عقلا وأفضلهم أدباً ، قرأتِ القرآن وروتِ الأشعار وتعلمتِ العربية ؛ فوقعت عند يزيد بن عبد الملك ، فأخذت بمجامع قلبه ، فقال لها ذات يوم : ويحك ! أما لك قرابة أو أحدٌ يحسُن أن أصطنعه أو أُسدى إليه معروفا ؟ قالت : ١٠ يا أمير المؤمنين ، أما قرابة فلا ، ولكن بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاتى، كنت أحبُ أن ينالهم من خير ماصرتُ إليه ! فكتب إلى عامله بالمدينة فى إشخاصهم ، وأن يعطى كل رجل منهم عشرة آلاف درهم ، وأن يعجل بسراحهم إليه ؛ ففعل عامل المدينة ذلك ؛ فلما وصلوا إلى باب يزيد استُؤْذِن لهم ، فأذن لهم وأكرمهم وسألهم [عن] حوائجهم ؛ فأما الاثنان فذكرا حوائجهما فقضاها ١٥ لهما وأما الثالث فسأله عن حاجته ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مالى حاجة ! قال : ويحك ! ولِم ؟ ألست أقدرُ على حوائجك ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكن حاجتى لا أحسبك تقضيها ! قال : ويحك ! فسلْنى ، فإنك لا تسألنى حاجة أقدر عليها إلا قضيتُها . قال : ولىّ الأمان يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم وكرامة ، قال : إن رأيت أن تأمر جاريتك فلانة التى أكرمْتَنا لها أن تغنِّيَنى ثلاثة ٢٠ أصوات أشرب عليها ثلاثةَ أرطال ، فافعلْ ، قال : فتغير وجه يزيد . وقام من مجلسه ، فدخل على الجارية فأعلمها ؛ قالت : وما عليك يا أمير المؤمنين؟ أفعلُ ذلك . فلما كان من الغد أمر بالفتى فأُحضِرَ ، وأمر بثلاثة كراسى من ذهب فأُلقيت ؛

فقعد يزيد على أحدها ، وقعدت الجارية على الآخر ، وقعد الفتى على الثالث ؛ ثم دعا بطعام فتغدّوا جميعا ، ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب فوُضِعتْ ، ثم أمر بثلاثة أرطال فمُلِئت ؛ ثم قال للفتى : قل ما بدا لك وسل حاجتك . قال : تأمرها تغنى :

لا أستطيع سُلوًّا عن مودّتها * أو يَصنع الحبُّ بى فوق الذى صَنعا ٥

أدعو إلى هَجرها قلبي فيُسعدُنى * حتى إذا قلتُ هذا صادقٌ نَزعا

فأمرها فغنّت ، فشرب يزيد وشرب الفتى ، ثم شربت الجارية ؛ ثم أمر بالأرطال فملئت ، ثم قال للفتى : سل حاجتك . قال : تأمرها تغنى :

تخيَّرتُ من نَعمانَ عُودَ أراكةٍ * لهندٍ ، ولكن مَن يبلِّغُه هندا ؟

ألا عرِّجا بى بارك اللهُ فيكما * وإن لم تكن هندٌ لأرضكما قصْدا ١٠

قال : فغنت بهما ، وشرب يزيد ثم الفتى ثم الجارية ؛ ثم أمر بالأرطال فملئت ؛ ثم قال للفتى : سل حاجتك . قال : يا أمير المؤمنين مُرْها تغنى :

منّا الوصالُ ومنكمُ الهَجْرُ * حتى يُفرِّق بيننا الدهرُ

واللهِ ما أسلوكمُ أبداً * ما لاحَ نجمٌ أو بَدا فجرُ

قال : فلم تأت على آخر الأبيات حتى خرّ الفتى مغشيا عليه ؛ فقال يزيد للجارية : انظرى ما حاله ! فقامت إليه فحرّكته ، فإذا هو ميت ! فقال لها : ابكيه ! قالت لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حىٌّ ! قال لها : ابكيه ، فوالله لو عاش ما انصرفَ إلا بكِ ! فبكته ، وأمر بالفتى فأحسن جهازَه ودفْنه . ١٥

عبد الملك وابن جعفر فى الغناء

قال : وحدّث أبو يوسف بالمدينة قال : حدّثنا إبراهيم بن المنذر الحِزامى عن أبيه ، أنّ عبد الله بن جعفر وفد على عبد الملك بن مروان ، فأقام عنده حينا ؛ فبينا هو ذات ليلة فى سمره ، إذ تذاكروا الغِناء ؛ فقال عبد الملك : قبح الله الغِناء ! ما أوضعَه للمروءة ، وأجرحَه للعرض ، وأهدمَه للشَّرَف ، وأذهبَه للبهاء ! وعبد الله ساكت ، وإنما عرّض بعبد الله ، وأعانه عليه من ٢٠

حضر من أصحابه ـ فقال عبد الملك : مالك أبا جعفر لا تتكلم ؟ قال : ما أقول ولحمى يتمزع وعرضى يتمزق ؟ قال : أما إنى نُبِّئتُ أنك تغنى ! قال : أجل يا أمير المؤمنين ، قال : أفّ لك وتُفّ ! قال : لا أُفَّ ولا تُفَّ ، فقد تأتى أنت بما هو أعظم من ذلك ، قال : وما هو ؟ قال : يأتيك الأعرابى الجافى ، ٥ يقول الزُّور ؛ ويقذف المحصنات ؛ فتأمر له بألف دينار ، وأشترى أنا الجارية الحسناء من مالى ، فأختار لها من الشعر أجودَه ، ومن الكلام أحسنَه ، ثم تردده علىّ بصوت حسن ؛ فهل بذلك بأس ؟ قال : لا بأس ، ولكن أخبرنى عن هذه الأغانى ما تصنع ؟

قال : نعم ، اشتريت جارية باثنى عشر ألف درهم مطبوعة ، فكان بديحٌ ١٠ وطويس يأتيانها فيطرحان عليها أغانيهما ، فعلِقت منهما حتى غلبت عليهما ؛ فوُصفت ليزيد بن معاوية ، فكتب إلىّ : إمّا أهديتَها إلىّ ، وإمّا بعتَها بحكمك . فكتبت إليه : إنها لا تخرج عن مِلكى ببيع ولا هبة ! فبذل لى فيها ما كنت أحسب أنّ نفسَه لا تسخو به ، فأبيتُ عليه .

فبينا هى عندى على تلك الحال ، إذ ذَكرت لى عجوز من عجائزنا أنّ فتى ١٥ من أهل المدينة سَمع غناءها فعلِقها وشغف بها ، وأنه يجىء فى كل ليلة مستتراً يقف بالباب حتى يسمع غناءها ثم ينصرف ؛ فراعيت مجيئَه ، فإذا الفتى قد أقبل مقنَّع الرأس ، فأشرفتُ عليه وقد قعد مستخفيا ، فلم أَدَعْ بها تلك الليلة ، وجعلتُ أتأمّل موضعه ، فبات مكانه الذى هو فيه ؛ فلما انشق الفجر اطلعتُ عليه ، فإذا هو فى موضعه ، فدعوت قيِّمة الجوارى فقلت لها : انطلقى الساعةَ ٢٠ فزيِّنى هذه الجارية وأعجلى بها إلىّ . فلما جاءت بها نزلتُ وفتحتُ الباب وحرّكتُه ، فانتبه مذعورا ؛ فقلت له : لا بأس عليك ! خذْ بيد هذه الجارية فهى لك ، وإن هممتَ ببيعها فردّها إلىّ ! فدهش وأخذه الخَبَل ولُبِطَ به ؛ فدنوت من أذنه ! فقلت : ويحك ! قد أظفرَك الله ببُغيتك ، فقم فانطلق بها إلى منزلك ! فإذا الفتى قد فارق الدنيا ، فلم أر شيئاً قط أعجب منه !

قال عبد الملك : وأنا والله ما سمعت شيئاً قط أعجبَ من هذا ولولا أنك عاينتَه ما صدّقتُ به ؛ فما صنعتَ بالجارية ؟ قال : تركتُها عندى ، وكنت إذا ذكرتُ الفتى لم أجدْ لها مكانا من قلبي ، وكرهت أن أوجّه بها إلى يزيد فيبلغه حالُها فيحقد علىّ ، فما زالت تلك حالها حتى ماتت !

طريفة وأيوب المغنى

٥ ووقف رجل يقال له طريفة على أيوب المغنى فقال :

إنى قصَدتُ إليكَ من أهلى ❊ فى حاجةٍ يسعى لها مثْلى

لا أبتغى شيئاً لديك سِوى ❊ «حىّ الحمولَ بجانب الرَّمْل»

فقال له : انْزل ، فلك ما طلبت . فنزل ، فأخرج عوده ثم غناه بقول امرئ القيس :

١٠ حىّ الحمول بجانب الرملِ ❊ إذ لا يُلائمُ شكلها شكلى

فلُبط بِطريفة ، فإذا هو فى الأرض منجدل ، فلما أفاق قام يمسح التراب عن وجهه ؛ فقيل له : ويحك ! ما كانت قصتك ؟ قال : ارتفع والله من رِجلى شىء حارّ ، وهبط من رأسى شىء بارد ، فالتقيا وتصادما ؛ فوقعت لا أدرى ما كانت حالى .

١٥ أخبار عنان وغيرها من القيان

الرشيد وعنان

حدّث محمدُ بن زكريا الغلابى بالبصرة قال : حدثنا إبراهيم بن عمر قال : كان الرشيد قد استعرض عنانَ جاريةَ الناطفى ليشتريها ، وقال لها : أنا والله أحِبّك ! ثم أمسك عن شرائها ؛ فجلس ليلة مع سُمّاره ، فغناه بعض من حضر من المغنين بأبيات جرير حيث يقول :

٢٠ إنّ الذين غَدوْا بلُبّكَ غادَروا ❊ وشَلًا بعينكَ لا يزال مَعينا

قال : فطرب الرشيد لها طربا شديدا ، وأُعجب بالأبيات ، وقال لجلسائه : هل منكم أحد يجيز هذه الأبيات بمثلهن ، وله هذه البدرة ؟ - وبين يديه

بدرة من دنانير ـ قال : فلم يصنعوا شيئا ؛ فقال خادم على رأسه : أنا لك بها يا أمير المؤمنين . قال : شأنك . فاحتمل البدرة ؛ ثم أتى الناطقىّ فقال له : استأذن لى على عنان . فأذنت له ، فدخل وأخبرها الخبر ؛ فقالت : ويحك ! وما الأبيات ؟ فأنشدها إياها ، فقالت له : اكتب :

٥ هيَّجتَ بالقول الذى قد قلتَه * داءً بقلبي ما يزال كمينَا

قد أينعتْ ثمراتُه فى طينِها * وسُقِينَ من ماء الهوى فَرَوِينا

كذَبَ الذين تقوَّلوا يا سيدى * إنَّ القلوبَ إذا هَوِينَ هَوِينا

فقالت له : دونك الأبيات . فدفع إليها البدرة ورجع إلى هارون ، فقال : ويحك ! من قالها ؟ قال : عنان جارية الناطفى . فقال : خلعتُ الخلافةَ من عنقى

١٠ إن باتت إلا عندى ! قال : فبعث إلى مولاها فاشتراها منه بثلاثين ألفا ، وباتت بقية تلك الليلة عنده !

وقال الأصمعى : ما رأيت الرشيد متبذّلا قط إلا مرة ، كتبتْ إليه عنانُ جارية الناطفى رقعة فيها :

كنتُ فى ظلِّ نعمةٍ بهَواكا * آمناً منك لا أخاف جَفاكا

١٥ فسَعى بيننا الوُشاة فأقررْ * تَ عيونَ الوُشاة بى فَهَناكا

ولَعمرى لَغيرُ ذاكان أولى * بك فى الحق يا جُعلت فِداكا

قال : فأخذ الرقعة بيده وعنده أبو جعفر الشطرنجى ، فقال : أيكم يشير إلى المعنى الذى فى نفسى فيقول فيه شعراً وله عشرة آلاف درهم ؟ فظننت أنه وقع بقلبه أمر عنان ، فبدر أبو جعفر :

٢٠ مجلسٌ يُنسَبُ السرورُ إليه * لمحبّ ريحانُه ذِكراكا

فقال : يا غلام ، بدرة ! قال الأصمعى : وقلت :

لم ينَلْكِ الرجاء أن تحضريني * وتجافت أُمنيّتى عن سِواكا

قال : أحسنت والله يا أصمعى ، لها ولك بهذا البيت عشرون ألفا .

قال جرير :

كلما دارتِ الزُجاجةُ والكأ * سُ أعارتهُ صَبْوةً فبكاكا

فقال : أنا أشعركم حيث أقول :

قد تمنيتُ أنْ يُغشّيني الله نُعاساً لعلّ عيني تَراكا

قلنا له : صدقت والله يا أمير المؤمنين . ٥

الباهلي في أمر عنان

وقال بكر بن حماد الباهلي : لما انتهى إلىّ خبر عنان ، وأنها ذُكرت لهارون وقيل إنها من أشعر الناس ، خرجت معترضا لها ؛ فما راعني إلا الناطفي مولاها قد ضرب على عضدي ، فقال لي : هل لك فيما سنح من طعام وشراب ومجالسة عنان ؟ فقلت : ما بعد عنان مطلب ! ومضينا حتى أتينا منزله ، فعقل دابته ثم دخل فقال : هذا بكر شاعر باهلة يريد مجالستكِ اليوم . فقالت : لا والله ، إني كسلانة ! ١٠ فحمل عليها بالسوط ؛ ثم قال لي : ادخل . فدخلت ودمعُها يتحدّر كالجمان في خدها ، فطمعت بها ؛ فقلت :

هذِي عِنان أسبلَت دمْعها * كالدرّ إذ ينْسل من خيطِهْ

ثم قلت : أجيزي . فقالت :

فليتَ مَن يَضربُها ظالما * تجفُّ كفّاه على سوطِهْ ١٥

فقلت لها : إن لي حاجة . فقالت : هاتها ، فمن سببك أُوذينا ! قلت لها : بيتٌ وجدته على ظهر كتابي ، لم أقرضه ولم أقدر على إجازته . قالت : قل . فأنشدتها :

فما زال يشكو الحبّ حتى حسبتَه * تنفَّسَ من أحشائه فتكلما

قال : فأطرقت ساعة ثم أنشدت :

ويبكي فأبكي رحمةً لبكائهِ * إذا ما بكى دمعاً بكيتُ له دما ! ٢٠

قلتُ لها : فما عندكِ في إجازةِ هذا البيت :

بديعُ حُسن بديع صدّ * جعلت خدّي له مَلاذا

فأطرقت ساعة ثم قالت :

فعـــاتبوهُ فعنّفوهُ * فأوعدوهُ، فكانماذا ...؟

أبو نواس وعنان

وجلس أبو نواس إلى عنان ، فقالت : كيف علمُك بالعروض وتقطيع الشعر يا حسَن ؟ قال : جيد . قالت تقطع هذا البيت :

٥ أكلت الخرْدلَ الشا * مِيّ فى صفحةِ خبّاز

فلما ذهب يقطّعه ضحكت به وأضحكت ، فأمسك عنها وأخذ فى ضروب من الأحاديث ؛ ثم عاد سائلا لها ، فقال : كيف علمُك بالعروض ؟ قالت : حسن ياحسن فقال : قطعى هذا البيت :

حوّلوا عنّا كنيسَتكُمْ * يا بنى حمّالةِ الحطب

١٠ فلما ذهبت تقطّعه ضحك أبو نُواس ، فقالت : قبحك الله ! ما برحتَ حتى أخذت بثأرك !

المأمون وسوسن المغنى وجارية

حدث أبو عبد الله بن عبد البر المدنى قال : حدثنى إسحاق بن إبراهيم الموصلى قال : كان للمأمون جماعةٌ من المغنين ، وفيهم مغنٍّ يسمى سوسنا ، عليه وسْم جمال قال : فبينما هو عنده يغنى إذ تطلعت جارية من جواريه فنظرتْ إليه فعلِقتْه ، ١٥ فكانت إذا حضر سوسن تسوّى عودها وتغنى :

ما مَرَرْنا بالسّوْسنِ الغضّ إلا * كانَ دمعى لِمقلتىّ نديما

حبّــذا أنت والمسمّى به أنــت وإن كنت منه أذكى نسيما

فإذا غاب سوسن أمسكت عن هذا الصوت وأخذت فى غيره ؛ فلم تزل تفعل ذلك حتى فطن المأمون ، فدعا بها ودعا بالسيف والنّطع ؛ ثم قال : اصدقينى أمرَكِ ٢٠ قالت : يا أمير المؤمنين ، ينفعنى عندك الصدق ؟ قال لها : إن شاء الله ! قالت : يا أمير المؤمنين ، اطلعت من وراء الستارة فرأيته فعلقته ، فأمسك المأمون عن عقوبتها ، وأرسل إلى المغنى فوهبها له ، وقال . لا يقرَبُنا !

قال أبو الحسن : وكان الواثق إذا شرب وسكر رقد فى موضعه الذى سكر

فيه ، ومن سكر من ندمائه ترك ولم يخرج ؛ فشرب يوما فسكر ورقد ، وانقلب أصحابه ، إلا مغنّياً أظهر التراقد ، وبقيت معه مغنية للواثق ؛ فلما خلا المجلس وقع المغنى فى تفاحة ودفعها إليها :

إنى رأيتُكِ فى المنامِ كأننى ٭ مُترشّفٌ من ريقِ فيكِ الباردِ
وكأنّ كفَّك فى يَدِى وكأنما ٭ بِتنا جميعاً فى فراشٍ واحِد ٥
ثم آنتبهتُ ومَنكِباكِ كلاهما ٭ فى راحتَىَّ وتحت خدِّكِ ساعدِى

فأجابته :

خيراً رأيتَ وكل ما أبصرتَهُ ٭ ستناله منّى برغمِ الحاسِدِ
وتَبيتُ بين خلاخِلِى ودمالِجى ٭ وتجول بين مَراسلى[1] ومجاسِدى
فنكونُ أنعمَ عاشقَيْنِ تَعاطيا ٭ مُلَحَ الحديث بِلا مَخافةِ راصِد ١٠

فلما مدت يدها لترمى إليه بالتفاحة ، رفع الواثق رأسه فأخذ التفاحة من يدها ، وقال لهما : ما هذه ؟ فحلفا له أنه لم يجرِ بينهما قبل هذا كلامٌ ولا كتابٌ ولا رسول غير اللحظ ، إلا أن العِشْق قد خامرهما . فأعتقها وزوّجها منه ، فلما أشهد له وتم النكاح ، أقامها الواثق إلى بيت من بعض البيوت ، فوقع بها ثم خرج فقال له : أردت أن تُكشّخنى فيها وهى خادمتى ، فقد كشخنتك فيها وهى زوجتك ! ١٥

يزيد ومسلمة فى حبابه

قال : ولما كلف يزيد بحبابة واشتغل بها وأضاع الرعية ، دخل عليه مسلمة أخوه فقال : يا أمير المؤمنين ، تركت الظهورَ للعامة ، والشهود للجمعة ، واحتجبتَ مع هذه الأمَة ! فارعوى قليلا وظهر للناس ؛ فأوصت حبابةُ إلى الأحوص أن يقول أبياتاً يهون فيها على يزيد ما قال مسلمة ؛ فقال وغنّت بها حبابة : ٢٠

ألا لا تَلُمْهُ اليوم أن يَتبلَّدا ٭ فقد مُنع المحزُونُ أن يتجلّدا

(١) فى بعض الأصول : « وتحل بين مراشفى » .

إذا أنت لم تَعشِق ولم تدرِ ما الهوى ٭ فكُن حجراً من يابِس الصخر جلْمُدا
هـــلِ العيشُ إلا ما تَلذّ وتشتهى ٭ وإن لام فيه ذُو الشّنانِ وفنّدا

فلما سمعها ضرب بخُرُبّانه الأرض وقال : صدقتِ صدقت ؛ على مسلمة لعنة الله ! ثم عاد إلى سيرته الأولى .

يزيد بعد موت حبابة

٥ وحدث ابن الغاز قال : حدثنا أبو سعيد عبد الله بن شبيب قال : حدثنا الهيثم بن أبى بكر قال : كان يزيد بن عبد الملك كلفا بحبابة كلفاً شديداً ، فلما توفيت أكب عليها أياماً يترشفها ويتشممها ؛ ؛ ثم أنتنت ، فقام عنها وأمر بجهازها ؛ ثم خرج بين يدى نعشها ؛ حتى إذا بلغ القبر نزل فيه ، حتى إذا فرغ من دفنها وانصرف لصق إليه مسلمة أخوه يعزيه ويؤنسه ؛ فلما أكثر عليه قال : قاتل الله
١٠ ابن أبى جمعة حيث يقول :

فإن تسلُ عنكِ النفسُ أو تَدعِ الهوى ٭ فباليأسِ تسلو عنـكِ لا بالتجلُّدِ
وكلُّ خليــــلٍ زارنى فهو قائلٌ ٭ منَ آجلكِ : هذا هامةُ اليومِ أو غَدِ

قال : وطُعِن فى جنازتها ، فدفنّاه إلى سبعة عشر يوما .

المعتصم وجارية

وذكر المعتصم جارية كانت غلبت عليه وهو بمصر ، ولم يكن خرج بها معه ؛
١٥ فدعا مغنيا له فقال له : ويحك ! إنى ذكرت جارية ، فأقلقنى الشوق إليها ؛ فهات صوتاً يشبه ما ذكرتُ لك . فأطرق مليا ثم غنى :

وددت منَ الشوقِ المبرّحِ أننى ٭ أعارُ جناحَىْ طائرٍ فأطيرُ
فما لِنعيمٍ لستِ فيه بَشاشةٌ ٭ وما لسرورٍ لستِ فيه سُرورُ
وإنّ آمرأ فى بلْدةٍ نِصفُ قلبِه ٭ ونصفٌ بأُخرى غيرِها لصبورُ

٢٠ فقال : والله ما عدوتَ مافى نفسى ! وأمر له بجائزة ، ورحل من ساعته ، فلما بلغ الفرما قال :

غريبٌ فى قُرَى مِصر ٭ يُقاسى الهمّ والسّدما

لَلَيْلُكَ كان بالمَيْدا ٭ نِ أقْصرَ منه بالفرمَا

المأمون فى قينة

وقال المأمون فى قينة له :

لها فى لَحْظِها لحظاتُ حتْفٍ ٭ تُميتُ بها وتُحيي مَن تُريدُ

فإن غضبَتْ رأيتَ الناسَ قتْلى ٭ وإن ضحِكتْ فأرواحٌ تعودُ

وتَسْبي العالمين بمُقْلتيها ٭ كأنّ العالمين لها عبيد

٥

البحترى فى قينة

وأنشد البحترى فى قينة له :

أُمازحُها فتغْضبُ ثم تَرضى ٭ وفعل جَمالِها حَسَنٌ جميلُ

فإن تغْضبْ فأحسَنُ ذاتِ دلٍّ ٭ وإن ترضَى فليس لها عديل

لابن المعتز فى مثله

وقال المعتز فى قينة له :

فأمسيْتُ فى ليْليْن للشّعرِ والدُّجا ٭ وشمسيْن من كأسٍ ووجهِ حبيبِ

للرشيد فى مثله

وقال هارون الرشيد فى قينة له رحمه الله :

تُبْدِي صُدوداً وتُخْفِي تحته مِقَةً ٭ فالنفْسُ راضيةٌ والطرْفُ غضبانُ

يا من وَضعتُ له خدّى فذلَّله ٭ وليس فوقى سوى الرحْمٰنِ سلطان

للشيبانى

وقال إبراهيم الشيبانى : القينة لا تخلص محبةً لأحد ، ولا تؤتى إلا من باب طمع .

١٥

لابن الجهم فى قينة

وقال على بن الجهم : قلت لقينة :

هل تَعْلمين وراء الحبِّ منزلةً ٭ تُدْنِي إليك فإنّ الحبَّ أقصانى

فقالت : تأتى من باب الذهب ، وأنشدت :

اجعلْ شفيعَك منقوشاً تُقدِّمُه ٭ فلم يَزل مُدْنِياً مَن ليس بالدّانى

أشعب وقينة

وكان أشعب يختلف إلى قينة بالمدينة ، فجلس عندها يوماً يطارحها الغناء ؛ فلما أراد الخروج قال لها : نوّلينى خاتمك أذكرك به . قالت : إنه ذهب ، وأخاف أن تذهب ؛ ولكن خذ هذا العود ، لعلك تعود ! وناولته عوداً من الأرض !

٢٠

وكان أشعب يختلف إلى قينة بالمدينة يكلف بها وينقطع إذا نظرها ، فطلبت منه أن يُسلفها دراهم ، فانقطع عنها وتجنب دارها ، فعملت له دواء ولقيته به ؛ فقال لها : ما هذا ؟ قالت : دواء عملته لك تشربه لهذا الفزع الذي بك ! قال : اشربيه أنتِ للطمع ، فإن انقطع طمعك انقطع فزعي . وأنشأ يقول :

٥ أنا والله أهواكِ ... ولكن ليس لي نفقَهْ
فإمّا كنتِ تهوَيْني ... فقد حلّتْ لي الصّدَقَهْ

أبو الحارث وقينة — وقعد أبو الحارث جُمَّيز إلى قينة بالمدينة صدرَ نهاره ، فجعلت تحدّثه ولا تذكر الطعامَ ؛ فلما طال ذلك به قال : مالي لا أسمع للطعام ذِكْراً ؟ قالت : سبحان الله ! أما تستحي ؟ أما في وجهي ما يشغلك عن هذا ؟ فقال لها : جُعِلتُ ١٠ فداك ، لو أن جميلا وبثينة قعدا ساعة واحدة لا يأكلان ، لبصق كل واحد منهما في وجه صاحبه وافترقا !

أبو نواس وقينة — وقال الشيباني : كانت بالعراق قينة ، وكان أبو نواس يختلف إليها ، فتظهر له أنها لا تحب غيره ؛ وكان كلما جاءها وجد عندها فتى يجلس عندها ويتحدث إليها ؛ فقال فيها :

١٥ ومُظهِرة لخلقِ الله وُدًّا ... وتَلْقَى بالتحيّة والسّلامِ
أتيتُ فؤادَها أشكو إليه ... فلم أخلُصْ إليه من الزّحامِ
فيامَنْ ليس يَكفيها صديقٌ ... ولا خمسونَ ألفاً كلَّ عامِ
أراكِ بقيّةً من قومِ موسى ... فهم لا يصبِرونَ على طعامِ

أبو نواس وقيان — وقال الشيباني حضر أبو نواس مجلساً فيه قيان ؛ فقلن له : ليتنا بناتُك . ٢٠ قال : نعم ، ونحن على المجوسية .

وقال العتبي : حضرت قينة مجلساً ، فتغنت فأجادت ، فقام إليها شيخ من القوم فجلس بين يديها ، وقال : كل مملوكٍ لي حرٌّ ، وكل امرأة لي طالق ، لو كانت الدنيا لي كلها صرراً في كمي لقطعتها لك ؛ فأما إذا لم يكن فجعل الله كل حسنة لي لك ،

وكلُّ سيئة عليك عليّ . قالت : جزاك الله خيرا ، فوالله ما يقوم الوالد لولده بما قمت به لنا . فقام شيخ آخر وقعد بين يديها وقال لها : كل مملوك لى حر ، وكل امرأة لى طالقٌ ، إن كان وهب لك شيئا ولا حمل عنك ثقلا ؛ لأنه ماله حسنةٌ يهبها لك ، ولا عليك سيئةٌ يحملها عنك ؛ فلأيِّ شيء تحمدينه ؟

حدث أحمد بن عمر المكى قال : سمعت إسحاق بن إبراهيم الموصلى يقول : ٥ كان بالمدينة رجل جعفرى ، من ولد جعفر بن أبى طالب ، وكان يحب الغناء ، وكان بالمدينة قينة يقال لها بصبص ، وكان الجعفرى يتعشّقها ، فقال يوما لإخوانه : قوموا معى إلى هذه الجارية حتى نكاشفها ، فقد والله أيتمت ولدى ، وأرملتُ نسائى ، وأخربت ضيعتى . فقاموا معه ، حتى إذا جاءوا إلى بابها دقّه ، فخرجت إليه ، فإذا هى أملح الناس دلاًّ وشكلا ، فقال لها : يا جارية ، أتغنّين : ١٠

وكنت أحبكم فسلوت عنكم ٭ عليكم فى دياركمُ السلام

فاستحيت وخجلت وبكت وقالت : يا جارية ، هاتى عودى ؛ والله ما أحسن هذا ولكن أحسن غيره . فغنت :

تحمّل أهلها منها فبانوا ٭ على آثار من ذهب العفاء

قال : فاستحيا والله صاحبنا حتى تصبب عرقا ، ثم قال لها : يا سيدتى ، ١٥ أفتحسنين أن تغنى :

وأخضع للعُتبَى إذا كنت ظالما ٭ وإن ظلموا كنت الذى أتفضل

قالت : والله ما أعرف هذا ولكن غيره . فغنت :

فإن تقبلوا بالود أقبل بمثله ٭ وأنزِلكم منا بأكرم منزل

قال : فدفع الباب ودخل ، وأرسل غلامه يحمل إليه حوائجه ؛ وقال : ٢٠ لعن الله الأهل والولد والضّيعة !

خبر الذلفاء

قال أبو سويد : حدثنى أبو زيد الأسدى قال : دخلت على سليمان بن

عبد الملك بن مروان ، وهو جالس على دكان مباط بالرخام الأحمر ، مفروش بالديباج الأخضر ، فى وسط بستان ملتف ، قد أثمر وأينع ؛ وإذا بإزاء كل شِقّ من البستان ميدان ينبت الربيع قد أزهر وعلى رأسه وصائف . كلٌّ واحدة منهن أحسنُ من صاحبتها ؛ وقد غابت الشمس ، فنضرت الخضرة ، وأضعفت فى حسنها الزهرة ، وغنّت الأطيار فتجاوبت ، وسفت الرياح على الأشجار فتمايلت ؛ [وقد حَلِى البستانُ] بأنهار فيه قد شقّقت ، ومياه قد تدفقت : فقلت : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته .

وكان مطرقا ، فرفع رأسه وقال : أبا زيد ! فى مثل هذا الحين يصاب أحدٌ حيا ؟

قلت : أصلح الله الأمير ، أو قد قامت القيامة بعدُ !

قال : نعم ، على أهل المحبة سرًّا والمراسلةُ بينهم خفية .

ثم أطرق مليا ، ثم رفع رأسه فقال : أبا زيد ، ما يطيب فى يومنا هذا ؟

قلت : أعز اللهُ الأمير ، قهوةٌ صفراء ، فى زجاجة بيضاء ، تناولها مقدودة هيفاء ، مضمومة لفّاء [مكحولةٌ] دعجاء ، أشربُها من كفها ، وأمسح فمى بفمها !

فأطرق سليمان مليا لا يُحير جوابا ، ينحدر من عينه عبراتٌ بلا شهيق ؛ فلما رأت الوصائفُ ذلك تنحيّنَ عنه ؛ ثم رفع رأسه فقال : أبا زيد ، حللتَ فى يوم فيه انقضاء أجلك ومنتهى مدتك وتصرّمُ عمرك ! والله لأضربن عنقك أو لتخبرنّى ما أثار هذه الصفة من قلبك .

قلت : نعم أصلح الله الأمير ؛ كنت جالسا عند باب أخيك سعيد بن عبد الملك ، فإذا أنا بجارية قد خرجت إلى باب القصر كالغزال انفلت من شبكة الصياد ؛ عليها قميص إسكندرانىّ يتبين منه بياضُ بدنها ، وتدويرُ سرّتها ، ونقش تكتها ؛ وفى رجليها نعلان حمراوان ، وقد أشرق بياضُ قدمها على حمرة نعليها ؛ مضمومة بفرد ذؤابة تضرب إلى حقويها وتسيل كالعثاكيل على منكبيها ، وطرّة قد أسبلت على مثنى جبينها ، وصدغان قد زينا كأنهما نونان على وجنتيها ، وحاجبان

قد قوسا على محجرى عينيها ، وعينان مملوءتان سحراً ، وأنف كأنه قصبةُ درّ ، وفم كأنه جُرْح يقطر دما ؛ وهى تقول : عباد الله ، مَن لى بدواء من لا يشتكى ، وعلاج من لا ينتمى ؟ طال الحجاب ، وأبطأ الجواب ؛ فالفؤاد طائر ، والقلب عازب ، والنفس والهة ، والفؤاد مختلَس ، والنوم محتبَس ؛ رحمة الله على قوم عاشوا تجلُّداً ، وماتوا تبلّدا ؛ ولو كان إلى الصبر حيلةٌ وإلى العزاء سبيلٌ لكان أمرا جميلا !

ثم أطرقت طويلا ، ثم رفعت رأسها ؛ فقلت : أيتها الجارية ، إنسية أنت أم جنّية ؟ سمائية أم أرضية ؟ فقد أعجبنى ذكاء عقلك ، وأذهلنى حُسْنُ منطقك !

فسترتْ وجهها بكمها كأنها لم ترنى ، ثم قالت : أعذِر أيها المتكلم الأريب ، فما أوحش الساعة بلا مساعد ، والمقاساة لصبّ معاند ! ثم انصرفت ؛ فوالله — أصلح الله الأمير — ما أكلت طيبا إلا غُصِصْت به لذكرها ، ولا رأيت حسناً إلا سَمُج فى عينى لحسنها !

قال سليمان : أبا زيد ، كاد الجهل أن يستفزنى ، والصبا أن يعاودنى ، والحلم أن يعزب عنى ؛ لحسن ما رأيت ، وشجو ما سمعت ؛ تلك هى الذلفاء التى يقول فيها الشاعر :

إنما الذّلفاء ياقوتةٌ * أُخرِجت من كيس دهْقانِ

شراؤها على أخى ألفُ ألفِ درهم ، وهى عاشقة لمن باعها ؛ والله إنى من لا يموت إلا بحزنها ، ولا يدخل القبر إلا بغصّتها ، وفى الصبر سلوة ، وفى توقُّع الموت نُهية ؛ قم أبا زيد فاكتم المفاوضة ؛ يا غلام ، ثقّله ببدرة . فأخذتها وانصرفت .

قال أبو زيد : فلما أفضَت الخلافةُ إلى سليمان ، صارت الذلفاء إليه ، فأمر بفسطاط ، فأُخرج على دهناء الغوطة ، وضُرب فى روضة خضراء مونِقة زهراء ذات حدائق بهجة ، تحتها أنواع الزهر الغض ، من بين أصفر فاقع ، وأحمر ساطع ، وأبيض ناصع ؛ فهى كالثوب الحرمى وحواشى البُرد الأتحمىّ يثير منها

مرّ الرياح نسيما يُربى على رائحة العنبر ، وفتيت المسك الأذفر ، وكان له مغن ونديم وسمير ، يقال له سنان ، به يأنس ، وإليه يسكن ، فأمره أن يضرب فسطاطه بالقرب منه ، وقد كانت الذلفاء خرجت مع سليمان إلى ذلك المُتنَزَّه ، فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان ، فى أكمل سرور ، وأتم حبور ، إلى أن انصرف مع الليل إلى فسطاطه ، فنزل به جماعة من إخوانه ، فقالوا له : قِرانا أصلحك الله قال : وما قراكم ؟ قالوا : أكل وشرب وسماع . قال : أما الأكل والشرب فباحان لكم ، وأما السماع فقد عرفتم شدة غَيْرَة أمير المؤمنين ونهيه إياى عنه ، إلا ما كان فى مجلسه . قالوا : لا حاجة لنا بطعامك وشرابك وإن لم تُسمِعْنا . قال : فاختاروا صوتا واحدا أغنيكموه . قالوا : غنّنا صوت كذا . قال : فرفع عقيرته يتغنى بهذه الأبيات :

محجوبةٌ سمعت صَوتى فأرّقها ⁂ فى آخرِ الليْلِ لمّا ظلّها السَحَرُ

تثنى على الخدّ منها من مُعصفَرَة ⁂ والحَلْىُ بادٍ على لبّاتها خضرُ

فى ليلةِ التّمّ لا يدرى مُضاجعُها ⁂ أوَجْهها عنده أبهى أم القمرُ

لم يحجُبِ الصوْتَ أحراسٌ ولا غلَقٌ ⁂ فدمعُها لطُرُوق الصّوْتِ مُنْحَدِرُ

لو خُلّيَتْ لمَشَتْ نحوى على قدمٍ ⁂ يَكاد من لينه للشى ينفطِرُ

فسمعت الذلفاء صوت سنان ، فخرجت إلى وسط الفسطاط تستمع ؛ فجعلت لا تسمع شيئا من [حُسْنِ] خَلق ولطافة قد ، إلا الذى وافق المعنى ؛ ومن نعت الليل واستماع الصوت ، إلا رأت ذلك كله فى نفسها ومهبا ، فحرك ذلك ساكنا فى قلبها ، فهملت عيناها ، وعلا نشيجها ، فانتبه سليمان فلم يجدها معه ، فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحال ، فقال لها : ما هذا يا ذلفاء ؟ فقالت :

ألا رُبَّ صوتٍ رائعٍ من مُشوَّهٍ ⁂ قبيحِ المُحيّا واضعِ الأبِ والجدِّ

يَروعُك منه صوتُه ولعلّهُ ⁂ إلى أمَةٍ يُعزَى معاً وإلى عبدِ

فقال سليمان : دعينى من هذا فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر ! يا غلام ،

على بسنان . فدعت الذلفاء خادما لها فقالت : إن سبقت رسولَ أمير المؤمنين إلى سنان ، فحذِّره ولك عشرة آلاف درهم وأنت حُر لوجه الله تعالى ! فخرج الرسول فسبق رسولُ سليمان ؛ فلما أُتى به قال : ياسنان ، ألم أنهك عن مثل هذا ؟ قال : ياأمير المؤمنين حملنى الثمل وأنا عبد أمير المؤمنين وغَذِىُّ نعمته : فإن رأى أمير المؤمنين أن لا يُضيع حظَّه من عبده فليفعل . قال : أما حظى منك فلن أُضيعه ، ولكن ويلك ! أما علمتَ أن الرجل إذا تغنى أصغت المرأةُ إليه ، وأن الحصان إذا صهل ودَقَتْ له الفرس ، وأن الفحل إذا هدر صغت له الناقة ، وأن التيس إذا نبَّ استحرمت له الشاة ؟ وإياك والعَوْدَ إلى ما كان منك يطول غمُّك .

أبو السمراء وامرأة بالمدينة

قال إسحاق : حدثنى أبو السمراء قال : حججت فبدأت بالمدينة ، فإنى لمنصرف من قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا بامرأة بفناء المسجد تبيع من طرائف المدينة ، وإذا هى فى ناحية وحدها وعليها ثوبان خلقان ، وإذا هى ترجِّع بصوت خفى شجى ، فالتفتُّ فرأيتُها فوقفت ، فقالت : هل من حاجة ؟ قلت تزيدين فى السماع ! قالت : وأنت قائم ؟ لو قعدتَ ! فقعدت كالخَجِل ، فقالت : كيف عِلمُك بالغناء ؟ قلت : علمٌ لا أحمده ، قالت : فعلام أنفخ بغير نار ؟ مامنعك من معرفته ؟ فوالله إنه لسَحُورى وفطورى ! قلت : وكيف وضعتِه بهذا الموضع العالى ؟ قالت : ياهذا ، وهل له موضع يوضع به وهو فى علوه فى السماء الشاهقة ؟ قلت : فكل هؤلاء النسوة اللاتى أرى على مثل رأيك وفى مثل حالك ؟ قالت ؟ : فيهن وفيهن ... ، ولى بينهن قصة . قلت : وماهى ؟ قالت :

كنت أيامَ شبابى وأنا فى مثل هذه الخلقة التى ترى من القبح والدمامة ، وكنت أشتهى الجماع شهوة شديدة وكان زوجى شابًّا وضيئا ، وكان لاينتشر علىّ حتى أتحفَه وأطيِّبه وأسكره ، فأضرّ ذلك بى ؛ وكان قد علقتْه امرأةٌ قصّار تجاورنى ، فزاد ذلك فى غمى ؛ فشكوت إلى جارة لى ما أنا فيه ، وغلبةَ امرأةِ

القصار على زوجى ؛ فقالت : أدلُّك على ما ينهضه عليك ويرد قلبه إليك ! قلت : وا بِأبى أنت ! إذاً تكونين أعظمَ الخلق مِنة علىّ . قالت : اختلفى إلى مجمع مولى الزبير ، فإنه حسن الغِناء ، فاعلَقى من غنائه أصواتا عشرة ، ثم غنِّى بها زوجك ، فإنه سيجامعك بجوارحه كلها ! قالت : فالتطت بمجمعه ، فلم أفارقه حتى رضينى
٥ حَذَاقَة ومعرفة ؛ فكنت إذا أقبل زوجى اضطجعت ورفعت عقيرتى ثم تغنيت ، فإذا غنيت صوتاً بت على نيِّف ، وإن غنيت صوتين بت على اثنين ، وإن غنيت ثلاثة فثلاثة .

فكنّا كندْمانَىْ جذيمةَ حِقْبةً * من الدهرِ حتى قيلَ لن يتصدعا

قال : فضحكتُ والله حتى أمسكت على بطنى ، وقلت : يا هذه ، ما أظن أنه
١٠ خُلق مثلك ! قالت : اخفض من صوتك ، قلت : ما كان أعظمَ مِنّةً من المشورة قالت : حسبك بها منة ، وحسبك بى شاكرة ، قلت : فنى قلبك من تلك الشهوة شىء ؟ قالت : لذعٌ فى الفؤاد ، وأما تلك الغلمة التى كانت تنسينى الفريضة وتقطعنى عن النافلة فقد ذهب تسعة أعشارها ! فوقفت عليها وقلت : ألك حاجة إن أزم حالك ؟ قالت : لا ، أنا فى فائت من العيش ! فلما نهضت لأقوم قالت : على رِسْلك ،
١٥ لا تنصرف خائبا ! ثم ترنمت بصوت تخفيه من جارتها :

ولى كبِدٌ مقْروحةٌ ، مَنْ يَبيعُنى * بها كبِداً ليسَتْ بِذَاتِ قُروح
أبَى الناسُ كلُّ الناسِ لا يَشترونَها * ومن يَشترى ذا عِلّة بصحيح

ابن الجهم وقينة

أبو بكر بن جامع عن الحسين بن موسى ، قال : كتب على بن الجهم إلى قينة كان يتعشقها :

٢٠ خَفِ اللهَ فيمن قد تَبلّتَ فؤادَهُ * وتَيّمْتِه دهراً كأنّ به سِحْرا
دَعى الهجرَ لا أسمعْ به منْكِ إنما * سألتُكِ أمراً ليس يُعرِى لكم ظَهرَا

فكتبت إليه : صدقت ، جعلت فداك ؛ ليس يُعرى لنا ظهرا ، ولكنه يملأ لنا بطنا !

أبو بكر الكاتب وقينة ابن حماد

وكان أبو بكر الكاتب مفتتنا بقينة محمد بن حماد ، فأهدى إليها مسكة ، فقال فيها بعض الكتاب :

أَهْدَى إليها قميصاً * يَنيكُها فيهِ غيرُهْ

فللسعادةِ حِرْها * وللشقاوةِ أيرُهْ

هاشمى وقينتان ومضحك

حدث أبو عبد الله بن عبد البر بمصر قال : حدثنى إسحاق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدى قال : كان بالمدينة رجل من بنى هاشم ، وكان له قينتان ، يقال لإحداهما رشا ، وللأخرى جؤذر ؛ وكان يحب الغناء ، وكان بالمدينة مضحك لا يكاد يغيب عن مجلس أحد ؛ فأرسل الهاشمى إليه ذات يوم ليضحك به ، فلما أتاه قال : ما الفائدة فيك وفى لذتك ولا لذة لى ؟ قال له : وما لذتُك ؟ قال : تُحضِرُ لى نبيذا ، فإنه لا يطيب لى عيش إلا به . فأمر الهاشمى بإحضار نبيذ ، وأمر أن يطرح فيه سكَّر العُشَر ، فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنُه ؛ وتناوم الهاشمى وغمز جواريه عليه ، فلما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرُّز قال فى نفسه : ما أظن هاتين المغنيتين إلا يمانيتين . وأهل اليمن يسمون الكُنُفَ المراحيض فقال لهما : ياحبيبتىّ ، أين المرحاض ؟ قالت إحداهما لصاحبتها : ما يقول : قالت يقول : غنيانى :

رَحَضَت فؤادى خلَّتى * أهيمُ من الحبِّ فى كلِّ واد

فاندفعتا تغنيانه ؛ فقال فى نفسه : ما أراهما فهمَتا عنى ، أظنهما مكيَّتيْن وأهل مكة يسمونها المخارج . قال : ياحبيبتى ، أين المخرج ؟ قالت إحداهما للأخرى : ما يقول ؟ قالت : يقول غنيانى :

خرجتُ بها من بطنِ مكةَ بعدَما * أصاتَ المنادى للصلاةِ فأعلَما

فاندفعتا تغنيانه ؛ فقال فى نفسه : لم يفهما والله عنى ، أظنهما شاميتين ، وأهل الشام يسمونها المذاهب ؛ فقال لهما : ياحبيبتى ، أين المذهب ؟ قالت إحداهما لصاحبتها : ما يقول ؟ قالت : يقول : غنيانى :

ذَهَبْت من الهجرانِ فى غيرِ مَذْهَبٍ * ولم يكُ حقا كلُّ هذا التجنُّبِ

فغنتاه الصوت ؛ فقال فى نفسه : لم يفهما عنى ، وما أظنهما إلا مدنيتين وأهل المدينة يسمونها بيت الخلاء ؛ فقال لهما : يا حبيبتىّ ، أين بيت الخلاء ؟ قالت إحداهما لصاحبتها : ما يقول ؟ قالت : يسأل أن نغنى :

خلِّى على جَوى الأحزانِ إذ ظَعنا * من بطنِ مكةَ والتسهيدَ والحزَنا

٥ قال : فغنتاه ؛ فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ما أحسب الفاسقتين إلا بصريتين وأهل البصرة يسمونها الحشوش ؛ فقال لهما : أين الحشّ ؟ فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول ؟ قالت : يسأل أن تغنيه :

فلقد أوحشَ الجهيدانِ منها * فنــاها فالمنزلُ المعمُورُ

فاندفعتا تغنيانه ؛ فقال : ما أراهما إلا كوفيتين . وأهل الكوفة يسمونها
١٠ الكُنُف . قال : يا حبيبتى ، أين الكنيف ؟ قالت إحداهما لصاحبتها : يعيش سيدُنا ، هل رأيتِ أكثر اقتراحاً من هذا الرجل ؟ ما يقول ؟ قالت : يسأل أن نغنى :

تكنّفنى الهوى طِفلا * فشيّبنى وما اكتهلا

قال : فغلبه بطنه ، وعلم أنهما تُولعان به ، والهاشمى يتقطع ضحكا ؛ فقال لهما :
١٥ كذبتما يا زانيتان ، ولكنى أُعلِمُكما ما هو . فرفع ثيابه فسلح عليهما ، وانتبه الهاشمى فقال له : سبحان الله ! أتسلح على وطائى ؟ قال : الذى خرج من بطنى أعزّ علىّ من وطائك ؛ إن هاتين الزانيتين إنما حسبتا أنى أسأل عن الحش للضراط ، فأعلمتهما ماهو .

قولهم فى العود

٢٠ قال يزيد بن عبد الملك يوماً وذُكر عنده البربط ، فقال : ليت شعرى ما هو ؟ فقال له عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود : أنا أُخبرك ما هو : هو محدوب الظهر ، أرسح البطن ، له أربعة أوتار إذا حُرِّكت لم يسمعها أحد إلا حرّك أعطافه وهزّ رأسه !

يزيد وعبيد الله فى البربط

إسحاق وناحت عود

مرّ إسحاق بن إبراهيم الموصلي برجل ينحت عوداً . فقال : لمن تُرْهِفُ هذا السيف ؟

لابن عبد ربه

ومن قولنا في هذا المعنى :

يا مجلساً أَيْنَعَتْ منه أزاهِرُه ۞ يُنسيك أوّلَه في الحسْنِ آخرُهُ

لم يدْرِ هل بات فيه ناعماً جَذِلا ۞ أو بات في جنةِ الفِردوْسِ سامِرُه ٥

فالعودُ يَخفِق مَثنــاه ومَثلثُه ۞ والصُّبح قد غَرّدتْ فيه عصافرُهُ

وللحجارةِ أهزاجٌ إذا نطَقتْ ۞ أحيا بها الكَبْرةُ المحْنىُّ ناقرُه

وحنّ بينهما الكَشْبانُ عن نغَمٍ ۞ تُبدى عن الصبِّ ما تُخفِى ضمائره

كأنمـا العــودُ فيما بيننا مَلِكٌ ۞ يمشى الهُوَيْنا وتتلوه عساكِره

كأنه إذ تَمطَّى وهْى تتبعُه ۞ كسرى بن هُرْمُزَ تقفوهُ أساوِره ١٠

ذاك المَصُون الذى لو كان مُبتذَلاً ۞ ما كان يَكسِر بيْتَ الشِّعرِ كاسِره

صوت رشيقٌ وضربٌ لو يُراجِعُه ۞ يَجمعُ القريضِ إذا ضَلَّت أساطره

لو كان زِرْيابُ حيًّا ثم أسمعَه ۞ لمـات من حسَد إذ لا يُناظره

لبعض الكتاب

وقال بعض الكتّاب فى العود :

وناطقٍ بلسانٍ لا ضمير له ۞ كأنه فَخِذٌ نِيطَتْ إلى قدَمِ ١٥

يُبدى ضميرَ سواه فى الكلام كما ۞ يُبدى ضميرَ سواه منطقُ القلمِ

للحمدونى

وقال الحمدونى فيه :

وسجّعتْ رُجع صوتٍ بين أربعةٍ ۞ سِرُّ الضمائرِ فيما بينها علَنُ

فوَلّدَت للنّدامى بين نَغْمتِها ۞ وكفِّها فرحا تفصيله حزَنُ

فما تلعْثمَ عنها لفْظُ مِزْهَرِها ۞ ولا تحيّر فى ألحانِها لحنُ ٢٠

تهدِى إلى كلّ حرّ من طبائعِها ۞ بَنانها نغَماً أثمــارها فِتن

وتَرْتعى العين منها روْضَ وجنتِها ۞ طَوراً وتَسرحُ فى ألفاظها الأذُن

لابن الحصين

وقال عكاشة بن الحصين :

من كَفِّ جاريةٍ كأنّ بنانَها * من فضةٍ قد طُرِّفت عُنّابا

وكأنّ يُمناها إذا ضَرَبتْ بها * تُلقِى على يدها الشمالِ حسابا

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى العود :

٥ يارُبَّ صوتٍ يصُوغُه عصَبٌ * نِيطتْ بساقٍ من فوقِها قدَمُ

جوْفاء مضمومة أضابعُها * مُسَكَّناتٌ تحريكُها نغَمُ

أربعةٌ جُزّئتْ لأربعــةٍ * أجزاؤُها بالنُفوسِ تلتحم

أصغرُها فى القلوبِ أكبَرُها * يَبعثُ منها الشّفاء والسقَم

إذا أرنّت بغمْزِ لافِظِها * قلتَ حمامٌ يُجيبُهُنّ حَمُ

١٠ لها لسانٌ بكَفِّ ضاربِها * يُعربُ عنهـا ومالهنّ فم

قولهم فى المبرّدين فى الغناء

لأبى نواس

قال أبو نواس :

قل لزهيْرٍ إذا شدَا وحدَا * أقلل أوَ أكثِر فأنت مِهْذارُ

سخُنتَ من شدّةِ البرودةِ حـــتى صرتَ عندى كأنك النار

١٥ وقال أيضاً :

لا يَعجَبِ السامِعون من صفَتى * كذلك الثلج باردٌ حارّ

وقال أيضاً :

قد نضِجْنا ونحن فى الجيش طُرًّا * أنضجَتْنا كواكبُ الجوْزاء

فأصِيبوا لنـا حُسينًا ففيــه * عِوَضٌ من جليدِ بردِ الشتاء

٢٠ لو يُغنّى وَفوهُ مَلآنُ خمرا * لم يَضِرْه من برد ذاك الغِناء

وله :

وكان أبو المُغلّس إذ يُغنّى * يُحاكى غاطساً فى عيْنِ شمْسِ

يميلُ بشدْقِه طوْراً وطوْرا * كأنّ بشدْقِه ضَرَبانَ ضِرْسِ

لدعبل — وقال دعبل :

ومغَنٍّ إن تغنّى * أوْرث الندْمانَ همّا
أحسنُ الأقوامِ حالا * فيه من كان أصمّا

٥

الحمدونى — وقال الحمدونى :

بينما نحن سالمون جميعا * إذ أتانا ابن سالمٍ مُخْتالا
فتغنّى صوتا فكان خطاءً * ثم ثنّى أيضاً فكان محالا
سألنا حاجةً على ما تغنى * نخلعنّا على قفاه النّعالا !

الخياط — ولعباس الخياط :

١٠

رأيتُ نصراً شادياً يَضرِبُ * فقمتُ من مجلسِنا أهرُب
لأنه يَنبَح من عودِه * عليك من أوتارِه أكلُبُ
كأنما تسمع فى حلْقِه * دجاجــةً يَخنقُها ثعلب
ما عجبى منه ولكننى * من الذى يَسمعُه أعجب

لبعضهم — وقال آخر :

١٥

ومُغنٍ يَجرَى على جُلسائه * ضرَبَ الله شِدْقَه بِغنائه

لمؤمن — وقال مؤمن فى ربيع المغنى ، وكان يتغنى وينقر فى الدواة :

غناؤُك ياربيع أشدُّ بردا * إذا حَمِيَ الهجيرُ من الصقيع
ونَقْرُك فى الدّواةِ أشدُّ منه * فما يصبو إليك سوى رَقيع
أغثْنا فى المصيفِ إذا تلظّى * ودَعْنا فى الشّتاء وفى الربيع

باب من الرقائق

٢٠

وقد جُبـل أكثر الناس على سوء الاختيار ، وقلة التحصيل والنظر مع لؤم الغرائز ، وضعف الهمم . وقلّ مَن يختار من الصنائع أرفعَها ، ويطلب من العلوم

أنفعها . ولذلك كان أثقل الأشياء عليهم وأبغضها إليهم مئونة التحفظ ، وأخفها عندهم وأسهلها عليهم إسقاط المروءة .

لبعضهم
وقيل لبعضهم : ما أحلى الأشياء كلها ؟ قال الارتكاس .

لابن جعفر
وقيل لعبد الله بن جعفر : ما أطيبُ العيش ؟ قال : هتك الحياء واتباع الهوى .

لابن العاص
٥ وقيل لعمرو بن العاص : ما أطيب العيش ؟ قال : ليقم مَن هنا من الأحداث قال : فلما قاموا ، قال : [أطيب] العيش كله إسقاط المروءة .

وأى شىء أثقل على النفس من مجاهدة الهوى ومكابدة الشهوة ؟ ومن ذلك كان سوء الاختيار أغلب على طبائع الناس من حسن الاختيار .

المبرد وكتابه الروضة
ألا ترى أن محمد بن يزيد النحوى — على علمه باللغة ومعرفته باللسان — ١٠ وضع كتابا سماه بالروضة ، وقصد فيه إلى أخبار الشعراء المحدثين ، فلم يختر لكل شاعر إلا أبردَ ما وجد له ، حتى انتهى إلى الحسن بن هانئ — وقلما يأتى له بيت ضعيف ، لرقة فطنته ، وسبوطة بنيته ، وعذوبة ألفاظه — فاستخرج له من البرد أبياتا ما سمعناها ولا رويناها ، ولا ندرى من أين وقع عليها ، وهى :

ألَا لا يَلُمنِى فى العُقارِ جليسِى * ولا يَلْحَنِى فى شُرْبِها بعُبُوسِ

١٥ تعشَّقَها قلبِى فبَغَّضَ عشقَها * إلىّ من الأشياء كلَّ نفيسِ

وأين هـذا الاختيار من اختيار عمرو بن بحر الجاحظ ، حين اجتلب ذكره فى كتاب الموالى ، فقال : ومن الموالى الحسن بن هانئ ، وهو من أقدر الناس على الشعر ، وأطبعهم فيه ؛ ومن قوله :

فجاء بها صفراء بِكْراً يزُفُّهـا * إلىّ عروساً ذات دَلّ مُعَتَّقِ

٢٠ فلما جَلتْها الكأس أبدَت لناظرى * محاسنَ ليثٍ بالجمالِ مطوّق

ومن قوله :

ساعٍ بكأسٍ إلى ناسٍ على طرَبٍ * كِلاهما عجبٌ فى منظرٍ عجب

قامت تُريك وشملُ الليلِ مُجتمعٌ * صُبحاً تولَّد بين الماء والعنب

كأنّ صُغرى وكُبرَى من فقاقِعها * حَصْباء دُرٍّ على أرضٍ من الذهبِ

وجُلّ أشعاره فى الخمريات بديعة لا نظير لها ، فخطرفها كلها وتخطاها إلى التى جانسته فى برْدِه ، فما أحسبه لحقه هذا الاسم « المبرّد » إلا لبرده ؛ وقد تخيّر لأبى العتاهية أشعاراً تقتل من بردها ، وشنّفها وقرّطها بكلامه ، فقال : ومن شعر أبى العتاهية المستظرف عند الظرفاء ، المتخيّر عند الخلفاء ، قوله : ٥

يا قُرّة العينِ كيف أمسَيتِ * أعززْ علينا بما تشكّيتِ

وقوله :

آهِ من وجدى وكَرْبى * آه من لوعةِ حُبى
ما أشدّ الحبَّ يا سُبحانكَ اللهمّ ربّى !

من سوء الاختيار

ونظير هذا من سوء الاختيار ، ما تخيّره أهلُ الحذق بالغناء والصانعون ١٠ الألحان من الشعر القديم والحديث ؛ فإنهم تركوا منه الذى هو أرق من الماء ، وأصفى من الهواء ؛ وكلّ مدنى رقيق ، قد غذى بماء العقيق ، وغنّوا بقول الشاعر :

فلا أنسَى حياتى ما * عبدْتُ الله لى ربا
وقلتُ لها أنيلينى * فقالت تعرفُ الذّنبا ! ١٥
ولو تعلمُ ما بىَ لم * تَرَ الذنبَ ولا العتْبا

وأقلُّ ما كان يجب فى هذا الشعر ، أن يُضْرَب قائله خمسمائة ، وصانعه أربعمائة ، والمغنِّى به ثلثمائة ، والمصغى إليه مائتين ! ومثله :

كأنها الشمسُ إذا ما بدَتْ * تلك التى قلبى لها يضرب
تلك سُلَيمايَ إذا ما بَدَت * ومَن أنا فى وُدّها أرغَب ٢٠
كأنّ فى النفسِ لها ساحِراً * ذاك الذى علمهُ المذْهَب

يعنى المذهب الحبى ومثله :

يا خليلَىّ ، أنتُما عَللانى * بين كرْمٍ مُزهِرٍ وجِنانِ

خبِّرانى أينَ حلت مُنايا * يا عبادَ اللهِ لا تكتُماني
إنما حلت بوادٍ خصيب * يُنبتُ الورْسَ مع الزعفرانِ
حلَفا باللهِ لو وَجدانى * غرِقاً فى البحرِ ما أنقذانى

ومثله :

أبصَرْتُ سلْمَى من مِنًى * يوما فراجَعْتُ الصِّبا
يا دُرَّةَ البحرِ متَى * تشهد سُوقا يُشترى

ومثله :

يا معشَر الناسِ هذا * أمْرٌ ورَبِّى شديدُ
لا تعْنفى يا فُلانهْ * فإنّنى لا أريدُ

ومثله :

أرِقتُ فأمسَيْت لا أرقُدُ * وقد شفَّنى البيضُ والخُرَّدُ
فصِرْتُ لظَبْى بنى هاشِم * كأنىَ مُكتَحِلٌ أرمَدُ
أُقَلِّبُ أمرى لَدَى فِكْرتى * وأهبِطُ طوْراً فما أصعَدُ
وأصعدُ طوْراً ولا عِلْم لى * على أنى قبلَكُم أرْشَدُ

ومثله :

ما أُرجِّى من حبيبٍ * ضَنَّ عنى بالمِدادِ
لو بكفَّيْهِ سحابٌ * ما ارْتوتْ منه بلادى
أنا فى وادٍ ويُمسِى * هو لى فى غيرِ وادِ
ليْتَهُ إذ لم يَجُدْ لى * بالهوى ردَّ فؤادى

ومثله :

ما لِسَلمى تجنَّبتْ * ما لها اليومَ ما لها
إن تكُنْ قد تغضَّبَتْ * أصلَح اللهُ حالَها

باب من رقائق الغناء

لإسحاق في شعر الراعي

قال الزبير بن بكار : سألت إسحاق : هل تغنى من شعر الراعي شيئاً ؟ قال : وأين أنت من قوله :

فلم أر مظلوماً على حالِ عِزَّةٍ ٭ أقلَّ انتصارًا باللسانِ وباليَدِ
سِوَى ناظرٍ ساجٍ بعينٍ مريضةٍ ٭ جرَتْ عَبْرةٌ منها ففاضت بإثمِدِ ٥

لابن الدمينة

ومن شعر ابن الدمينة ، وهو عبد الله بن عبيد الله ، والدمينة أمُّه ، وهو من أرق شعراء المدينة بعد كثيِّر عزة وقيس بن الخطيم :

بنفسي وأهلي مَن إذا عرَضُوا له ٭ ببعضِ الأذى لم يدرِ كيف يُجيبُ
ولم يعتذِر عُذْر البريء ولم تَزلْ ٭ له بهْتَـــةٌ حتى يُقال مُريب
جرَى السَّيْلُ فاستبْكانِى السَّيْلُ إذ جرَى ٭ وفاضت له من مُقْلَتَيَّ غُروبُ ١٠
وما ذاكَ إلَّا أن تيقَّنْتُ أنهُ ٭ يمُرُّ بوادٍ أنت منـــهُ قريبُ
يكونُ أجاجاً قبلَكمْ فإذا انتهى ٭ إليكمْ تلقَّى طِيبَكم فيطيبُ
أيا ساكِنِيْ شرْقيِّ دِجْـــلَة كُلُّكم ٭ إلى القلب من أجلِ الحبيبِ حبيبُ !

لابن الطثرية

ومن قول يزيد بن الطثرية ، وغنى به ابن صياد المدنى وغيره :

بنفسي مَن لو مَرَّ بردُ بنانِهِ ٭ على كبدي كانت شِفاءً أناملُهْ ١٥
ومن هابَني في كل شيءٍ وهِبْتُه ٭ فلا هو يُعطيني ولا أنا سائلُهْ

لجرير

ومما يغنى به من قول جرير :

أتذكُرُ إذ تودِّعُنا سُلَيْمَى ٭ بعودِ بشامَةٍ ؟ سُقِيَ البَشامُ !
بنفسي مَن تَجنُّبه عزيزٌ ٭ عليَّ ومَن زِيارتُه لِمَامُ
ومن أمسِي وأُصبِحُ لا أراهُ ٭ ويطرُقُني إذا هجَعَ النِّيـــامُ ٢٠
متى كان الخيامُ بذي طُلوحٍ ٭ سُقيتِ الغيْثَ أيَّتُها الخيامُ

نومة الضحى

ومما غنى به نوْمة الضحى :

يا مُوقِدَ النارِ قد أعْيَتْ قوادِحُهُ ٭ اقبِسْ إذا شئتَ من قلبي بمقباسِ

ما أوحشَ الناسَ فى عينى وأقبحَهم * إذا نظرتُ فلم أُبصِرْكَ فى الناسِ

من شعر ذى الرمة

ومما يغنّى به من شعر ذى الرُّمة ، وهو من أرق شعر يُغنى به ، قوله :

لئن كانتِ الدنيا علىّ كما أرى * تباريحَ من ذِكراك فالموتُ أروَحُ

معبد وشعر الأحوص

وأكثر ما كان يغنى به معبدٌ بشعر الأحوص ، ومن جيد ما غنّى به له قوله :

٥ كأنّى من تذكرِ أمِّ حفصٍ * وحبلُ وِصالِها خلَقٌ رِمامُ

صريعُ مُدامَة غلَبتْ عليه * تموتُ لها المفاصِلُ والعِظام

سلامُ اللهِ يا مَطَرٌ عليها * وليس عليكَ يا مَطرُ السّلام

فإن يكُنِ النكاحُ أحلَ شىءٍ * فإنّ نكاحَها مطراً حرامُ

من شعر المتوكل الهشلى

ومن شعر المتوكل بن عبد الله بن نهشل ، وكان كوفيا فى عصر معاوية ،

١٠ وهو القائل :

* لا تنْهَ عن خُلُقٍ وتأتىَ مثلَهُ *

قِفى قبل التفرُّقِ يا أُماما * ورُدّى قبل بينِكمُ السّلاما

تَرجّيها وقد شَطتْ نَواها * ومَنّتكَ المنى عاماً فعاما

فلا وأبيكِ لا أنساكِ حتى * تُجاوِبَ هامتى فى القبرِ هاما

من شعر ابن الرقاع

١٥ ومما يغنّى به من شعر عدى بن الرقاع :

تُزجى أغَنَّ كأنّ إبرةَ رَوقِهِ * قلمٌ أصابَ من الدواةِ مِدادَها

ولقد أصبتُ من المعيشةِ لذّةً * ولقيتُ من شظَفِ الخطوبِ شِدادَها

وعلِمتُ حتى ما أُسائلُ عالماً * عن حَرفِ واحدةٍ لكىْ أزدادَها

كِتَابُ المَرجانَةِ الثّانِيَة
فى النِّسَاءِ وصِفَاتِهِن

لابن عبد ربه

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه رحمه الله : قد مضى قولنا فى الغناء واختلاف الناس فيه .

ونحن قائلون بعون الله تعالى وتوفيقه فى النساء وصفاتهن ، وما يُحمد ويذم من عشرتهن ؛ إذ كان كله مقصوراً على الحليلة الصالحة والزوجة الموافقة ؛ والبلاء كله موكل بالقرينة السوء ، التى لا تسكن النفْسُ إلى كريم عِشرتها ، ولا تقرُّ العين برؤيتها .

لعروة بن الزبير

قال الأصمعى : حدثنى ابن أبى الزناد عن عروة بن الزبير قال : مارفع أحدٌ نفسه بعد الإيمان بالله بمثل مَنكِح صِدْقٍ ، ولا وضع أحدٌ نفسه بعد الكفر بالله بمثل منكح سوء ! ثم قال : لعن الله فلانة ألفت بنى فلانٍ بيضاً طوالا ، فقلبتهم سوداً قصاراً .

لسليمان عليه السلام

وفى حكمة سليمان بن داود عليهما السلام : المرأةُ العاقلة تَبنى بيتها ، والسفيهةُ تَهدِمُه .

وقال : الجمال كاذب ، والحسن مخلِف ؛ وإنما تستحق المدحَ المرأةُ الموافقة .

الرسول صلى الله عليه وسلم وعكاف

مكحول ، عن عطية بن بشر ، عن عكّاف بن وداعة الهلالىّ ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : ياعكاف ، ألك امرأة ؟ قال : لا ! قال : فأنت إذاً من إخوان الشياطين ! إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم ، وإن كنت منا فانكح ، فإن من سُنَّتنا النكاح .

وقالت عائشة : النكاح رقٌّ ؛ فلينظر أحدُكم عند من يُرِقُّ كريمته .

النبي صلى الله عليه وسلم

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أُوصيكم بالنساء ، فإنهن عندكم عَوان. يعنى أسيرات .

قولهم فى المناكح

صعصعة وابن الظرب

خطب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظَّرب حكيمِ العرب ابنتَه عمرة ـ وهى أم عامر بن صعصعة ـ فقال : يا صعصعة ، إنك أتيتنى تشترى منى كَبِدِى ، فارحَمْ ولَدِى ، قبلتُك أو رددتُك ، والحسيب كفء الحسيب ، والزوج الصالح أبٌ بعدَ أب ، وقد أنكحتُك خشيةَ أن لا أجد مثلك ؛ أفرُّ من السرِّ إلى العلانية ... يا معشر عدوان ، خرجَتْ بين أظهُركم كريمتُكم ، من غير رغبةٍ ولا رَهْبة ، وأُقسم لولا قَسْمُ الحظوظ على [قدر] الجدود ماترك الأولُ للآخر ما يعيش به .

ابن حجر وابن محلم

العباس بن خالد السهمى قال : خطب عمرو بن حُجر إلى عوف بن محلم الشيبانى ابنتَه أمَّ إياس ، فقال : نعم ، أزوِّجكها ، على أن أُسمِّىَ بنيها وأزوِّج بناتها . فقال عمرو بن حجر : أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا ، وأما بناتنا فَيُنكحهن أكفاءهن من الملوك ، ولكنى أُصدِقُها عقارا فى كندة ، وأمنحها حاجات قومها ، لاتردّ لأحد منهم حاجة ؛ فقبل ذلك منه أبوها ، وأنكحه إياها ؛ فلما كان بناؤه بها خلت بها أمها فقالت :

أى بنية ، إنك فارقتِ بيتَك الذى منه خرجتِ ، وعُشَّك الذى فيه دَرَجتِ ، إلى رجل لم تعرفيه ، وقرينٍ لم تألفيه ، فكونى له أمة يكن لكِ عبدا ، واحفظى له خصالا عشرا تكن لك ذُخراً : أما الأولى والثانية ، فالخشوع له بالقناعة ، وحسن السمع له والطاعة ؛ وأما الثالثة والرابعة ، فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيبَ ريح ؛ وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن حَرارةَ الجوع مَلْهبة ، وتنغيصَ النوم مَغضبة ؛ وأما السابعة والثامنة ، فالاحتفاظ بماله ، والإرعاء على حشمه وعياله ، وملاكُ

الأمر فى المال حُسْنُ التقدير ، وفى العيال حُسْنُ التدبير ؛ وأما التاسعة والعاشرة فلا تَعصين له أمراً ، ولا تُفشِين له سرًّا ؛ فإنكِ إن خالفتِ أمرَه أوغَرتِ صدره ، وإن أفشيت سرّه لم تأمني غدره ؛ ثم إياك والفرحَ بين يديه إذا كان مهتمًّا ، والكآبةَ بين يديه إذا كان فرحا .

فولدت له الحارث بن عمرو ، جدّ امرئ القيس الشاعر . ٥

زرارة ولقيط وابنة ذى الجدين

الشيبانى قال : حدثنا بعض أصحابنا ، أن زرارة بن عدس نظر إلى ابنه لقيط فقال : مالى أراك مختالا ؟ كأنك جئتنى بابنة ذى الجدين أو مائة من هجائن النعمان ! فقال : والله لا يمسّ رأسى دهنٌ حتى آتيك بهما أو أبلى عذراً ! فانطلق حتى أتى ذا الجدين ـ وهو قيس بن مسعود الشيبانى ـ فوجده جالساً فى نادى قومه من شيبان ، فخطب إليه ابنتَه علانية ؛ فقال له : هلا ناجيتنى ؟ قال : علمت أنى إن ناجيتك لم أخدعْك ، وإن عالنتُك لم أفضَحْك ! قال : ومن أنت ؟ قال : لقيط ابن زرارة ، قال : لا جرم ، لاتبيتن فينا عَزَباً ولا محروماً ! فزوّجه وساق عنه المَهْر ، وبنى بها من ليلته تلك . ١٠

ثم خرج إلى النعمان ، فجاء بمائتين من هجائنه ؛ وأقبل إلى أبيه وقد وفى نذره فبعث إليه قيس بن مسعود بابنته مع ولده بسطام بن قيس ؛ فخرج لقيط يتلقاها فى الطريق ومعه ابن عم له [1] يقال له قراد ، فقال لقيط : ١٥

هاجت عليكَ ديارُ الحىّ أشجانا * وآستقبلوا من نوى الجيرانِ قُربانا

تامتْ فُؤادَكَ لم تَقضِ التى وعدَتْ * إحدى نساءِ بنى ذُهل بنِ شَيبانا

فانظرْ قرادُ وهل فى نظرةٍ جزَعٌ * عرضَ الشقائقِ؛ هل بيَّنتَ أظعانا

فيهن جارية تَضْحُ العبيرِ بها * تُكسى ترائبها دُرًّا ومَرجانا ٢٠

كيف اهتديْت ولا نَجمٌ ولا علمٌ * وكنت عِندى نَئومَ الليلِ وسْنانا

ولما رحل بها بسطام بن قيس ، قالت : مُرّوا بى على أبى أودعه ! فلما ودعته

(١) فى رواية الأغانى « ابن خاله » .

قال لها : يا بنية ، كونى له أمة يكن لك عبداً وليكن أطيب طيبك الماء ، ثم لا أذكرتِ ولا أيسرتِ ؛ فإنك تلدين الأعداء ، وتُقَرِّبين البُعَداء ! إن زوجك فارس من فرسان مضر ، [وإنه يوشك أن يُقتَل أو يموت] ؛ فإذا كان ذلك فلا تخمشى [عليه] وجها ، ولا تحلق شعراً .

٥ فلما قتل لقيط تحملت إلى أهلها ، ثم مالت إلى محلّة عبد الله بن دارم فقالت : نعم الأحياء كنتم يا بنى دارم ، وأنا أوصيكم بالغرائب خيرا ، فلم أر مثل لقيط .

ثم لحقت بقومها ، فتزوجها ابن عمٍّ لها ، فكانت لا تسلو عن ذكر لقيط ، فقال لها زوجها : أى يوم رأيت فيه لقيطا أحسن فى عينك ؟ قالت : خرج

١٠ يوما يصطاد ، فطرد البقر فصرع منها ، ثم أتانى مختضبا بالدماء ، فضمنى ضمة ، ولثمنى لثمة ، فليتنى مت ثَمَّة ! فخرج زوجُها ففعل مثل ذلك ، ثم أتاها ، فضمها ، ولثمها ، ثم قال لها : من أحسن ، أنا أم لقيط عندك ؟ قالت : مرعى ولا كالسعدان .

قيس بن زهير والنمر

أبو الفضل عن بعض رجاله ، قال : قدم قيس بن زهير — بعد ما قتل أهل

١٥ الهباءة — على النمر بن قاسط ، فقال :

يا معشر النمر ، نزعت إليكم غريبا حريبا ، فانظروا لى امرأة أتزوجها . قد أذلها الفقر ، وأدبها الغنى ، لها حسب وجمال .

فزوجوه على هيئة ما طلب ، فقال : إنى لا أقيم فيكم حتى أعلمكم أخلاقى : إنى غيور فخور أنفور ؛ ولكنى لا أغار حتى أرى ، ولا أفخر حتى أفعل ،

٢٠ ولا آنف حتى أظلَم .

فأقام فيهم حتى وُلد له غلامٌ سماه خليفة ، ثم بدا له أن يرتحل عنهم ، فجمعهم ثم قال :

يا معشر النمر ، إن لكم علىّ حقا ، وأنا أريد أن أوصيكم ، فآمُرَكم بخصال ،

وأنهاكم عن خصال : عليكم بالأناة ، فإن بها تنال الفرصة ؛ وسوّدوا من لا تُعابون بسؤدَدِه ؛ وعليكم بالوفاء ، فإن به يعيش الناس ؛ وبإعطاء ما تريدون إعطاءه قبل المسألة ؛ ومنع ما تريدون منعه قبل القسم ؛ وإجارة الجار على الدهر ؛ وتنفيس المنازل ؛ [عن بيوت اليتامى ، وخلْط الضيف بالعيال] وأنهاكم عن الرهان ، فإنى به ثكِلت مالكا . وأنهاكم عن البغى ، فإنه صرع زهيرا . وعن السرف فى الدماء ، فإن يوم الهباءة أورثنى الذلّ ، ولا تُعطوا فى الفضول فتعجزوا عن الحقوق ولا تَردوا الأكفاء عن النساء فتُحوِجوهُنّ إلى البلاء ؛ فإن لم تجدوا الأكفاء فخير أزواجهن القبور ؛ واعلموا أنى أصبحت ظالما مظلوما : ظلمنى بنو بدر بقتلهم مالكا ، وظلمت بقتلى من لا ذنب له .

الفاكه وزوجه هند فى ريبة

كان الفاكه بن المغيرة المخزومى أحد فتيان قريش ، وكان قد تزوج هند ابنة عتبة ، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس فيه بلا إذن ؛ فقال يوما فى ذلك البيت وهند معه ؛ ثم خرج عنها وتركها نائمة ، فجاء بعض من كان يغشى البيت . فلما وجد المرأة نائمة ولّى عنها ، فاستقبله الفاكه بن المغيرة ، فدخل على هند وأنبهها ، وقال : من هذا الخارج من عندك ؟ قالت : والله ماانتبهت حتى أنبهْتنى ، ومارأيت أحدا قط . قال : الحقى بأبيك ! وخاض الناس فى أمرها ، فقال لها أبوها : يا بنية العار وإن كان كذبا ، أنبئينى شأنك ، فإن كان الرجل صادقاً دسَسْت عليه من يقتله فيقطع عنك العار ، وإن كان كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن . قالت : والله يا أبت إنه لكاذب ! فخرج عتبة فقال : إنك رميْت ابنتى بشىء عظيم ، فإما أن تبيّن ما قلت ، وإلا فحاكمْنى إلى بعض كهان اليمن . قال : ذلك لك . فخرج الفاكه فى جماعة من رجال قريش ، ونسوة من بنى مخزوم . وخرج عتبة فى رجال ونسوة من بنى عبد مناف .

فلما شارفوا بلاد الكاهن تغيّر وجه هند ، وكَسَف بالُها . فقال لها أبوها : أى بنية ، ألَا كان هذا قبل أن يشتهر فى الناس خروجنا ؟ قالت : يا أبت ، والله ما ذلك لمكروهٍ قِبَلى ، ولكنكم تأتون بَشرا يخطئ ويصيب ، ولعله أن

يَسمّنى بسِمَة تبق على ألسنة العرب . فقال لها أبوها : صدقت . ولكنى سأخبره لك فصفّر بفرسه ، فلما أدلى عمد إلى حبة بر فأدخلها فى إحليله ، ثم أوكى عليها وسار . فلما نزلوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم ، فقال له عتبة : إنا أتيناك فى أمر . وقد خبأنا لك خبيئة ، فما هى ؟ قال : بُرّةٌ فى كمرة . قال : أريد أبْيَن من هذا . قال :
٥ حبةُ بُرٍّ فى إحليل مهر . قال : صدقت . فانظر فى أمر هؤلاء النسوة . فجعل يمسح رأس كل واحدة منهن ، ويقول : قومى لشأنك ! حتى إذا بلغ إلى هند مسح يده على رأسها ، وقال : قومى غير رقْحاء ولا زانية ، وستلدين ملكا يسمى معاوية .

فلما خرجت أخذ الفاكه بيدها ، فنثرت يده من يدها ، وقالت [إليك عنى !] والله لأحرِصَنّ أن يكون ذلك الولد من غيرك ! فتزوجها أبو سفيان ،
١٠ فولدت له معاوية .

هند وزواجها من أبى سفيان

وذكروا أن هند بنت عتبة بن ربيعة قالت لأبيها : ياأبت : إنك زوجتنى من هذا الرجل ولم تؤامِرْنى فى نفسى ، فعرَض لى معه ما عرَض ؛ فلا تزوّجنى من أحد حتى تعرض علىّ أمره ، وتبيِّن لى خصاله ، فخطبها سهيل بن عمرو ، وأبو سفيان بن حرب . فدخل عليها أبوها وهو يقول :

١٥ أتاكِ سُهيْلٌ وابنُ حربٍ وفيهما ٭ رضاً لك ياهِندَ الهنود ومَقنعُ
وما منهما إلا يُعاشُ بفضلِهِ ٭ وما منهما إلا يضُرُّ وينفع
وما منهما إلا كريم مُرَزَّأٌ ٭ وما منهما إلا أغرُّ سَمَيْدَع
فدونَكِ فاختارى فأنت بصيرةٌ ٭ ولا تُخدَعى إن المُخادَعَ يخدع

قالت : ياأبت ، والله ما أصنع بهذا شيئا ، ولكن فسِّرْ لى أمرهما وبيِّنْ لى
٢٠ خصالهما ، حتى أختار لنفسى أشدّهما موافقة لى . فبدأ بذكر سهيل بن عمرو ، فقال : أما أحدهما ففى ثروة واسعة من العيش ، إن تابعتيه تابعك ، وإن مِلْتِ عنه حطّ إليك ، تحكمين عليه فى أهله وماله . وأما الآخر فوسّع عليه ، منظور إليه ، فى الحسب الحسيب ، والرأى الأريب ، مِدْرَهُ أرُومته ، وعزُّ عشيرته ، شديد الغيرة ، كثير الطِّيرة ، لا ينام على ضَمَة ، ولا يرفع عصاه عن أهله .

فقالت : يا أبت ، الأول سيدٌ مِضياعٌ للحرّة ، فما عست أن تلين بعد إبائها، وتضيع تحت جناحه ، إذا تابعها بعلُها فأشرت ، وخافها أهلُها فأمنت ، فساء عند ذلك حالها ، وقبح عند ذلك دلالها ، فإن جاءت بولد أحمقت ، وإن أنجبَتْ فعن خطأ ما أنجبتْ ؛ فاطوِ ذِكرَ هذا عنى ، ولا تسمّه علىّ بعدُ . وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة ، الحرّة العفيفة ، وإنى لَلتى لا أريب له عشيرة فتُعيره ، ولا تصيّره بذُعْر فتضيره ، وإنى لأخلاق مثل هذا لموافقة ، فزوّجنيه .

فزوجها من أبى سفيان ، فولدت له معاوية ، وقبله يزيد؛ فقال فى ذلك سهيلُ ابنُ عمرو :

نُبِّئْت هِنداً تَبَّرَ اللهُ سعْيها * تأبّت وقالت وصفُ أهْوَجَ مائقِ
وما هَوَجى يا هِنْـدُ إلا سجيّة * أُجُرُّ لها ذيلى بحُسْن الخلائقِ
ولو شئْت خادَعْت الفتى عن قلوصه * ولاطَمت بالبطْحاء فى كل شارقِ
ولكننى أكرمْت نفسى تكرُّماً * ودافعْت عنها الذّمّ عند الحلائقِ
وإنى إذا ما حُرّةٌ ساء خُلْقُها * صبَرْتُ عليها صبْرَ آخر عاشقِ
فإن هى قالت خلّ عنى تركتُها * وأقلِلْ بترك من حبيبٍ مُفارقِ
فإن سامحونى قلتُ أمرى إليكمُ * وإن أبعدونى كنتُ فى رأس حالقِ
فلم تنكِحى يا هِندُ مِثْلِى وإنّنى * لِمَنْ لم يَبِقنى فاعلَمى غيْرُ وامِقِ

فبلغ أبا سفيان ، فقال : والله لو أعلم شيئا يُرْضِى أبا زيد سوى طلاق هند لفعلتُه ! وألح سهيلٌ فى تنقيص أبى سفيان ، فقال أبو سفيان :

رأيتُ سُهَيْلًا قد تفاوتَ شأوُهُ * وفرّط فى العلياء كلَّ عِنانِ
وأصبحَ يَسْمُو للمعالى وإنه * لَذُو جَفنةٍ منْشِيّةٍ وقِيانِ
وشَرْبُ كرامٍ من لُؤَىّ بن غالبٍ * عِراضِ المساعِى عرضةِ الحدَثانِ
ولكنّه يوماً إذا الحربُ شمّرتْ * وأبرزَ فيها وجهُ كلّ حِصانِ
تطأطأ فيها ما استطاع بنفسِهِ * وقَنّعَ فيها رأسَهُ ودعانى

فأكفيهما لا يُستطاعُ دفاعُهُ * وألقَيْتُ فيها كَلْكَلِي وجرانى

سهيل وابن له

قال : وتزوج سهيل بن عمرو امرأة ، فولدت له ولداً ؛ فبينا هو سائر معه إذ نظر إلى رجل يركب ناقة ويقود شاة ، فقال لأبيه : يا أبت ، هذه ابنةُ هذه ! يريد الشاة ابنة الناقة ! فقال أبوه : يرحم الله هندا ! يعنى ما كان من فِرَاستِها فيه .

الرسول صلى الله عليه وسلم وأم هانئ

وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : يارسول الله ، لو تزوجتَ أم هانئ بنت أبى طالب ، فقد جعل الله لها قرابة ، فتكون صهرا أيضا ! فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : والله لهو أحبُّ إلىّ من سمعى وبصرى ولكن حقه عظيم ، وأنا موتمة ؛ فإن قمتُ بحقه خفتُ أن أُضيّعَ أيتامى ، وإن قمتُ بأمرهم قصَّرْتُ عن حقه ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : خيرُ نساء ركِبْن الإبل نساء قريش ، أحناها على ولد فى صغره وأرعاها على بعل فى ذات يده ، ولو علمتُ أن مريم ابنةَ عمران ركِبَتْ جملا لاستثنيتُها .

زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من حفصة

ولما تُوُفيت رُقَيَّةُ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عثمان بن عفان ، عرض عليه عمرُ ابنتَه حفصة ؛ فسكت عنه عثمان — وقد كان بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يزوّجه ابنتَه الأخرى — فشكا عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سكوتَ عثمان عنه ؛ فقال له : سيزوِّج الله ابنتَك خيرا من عثمان ، ويزوِّج عثمان خيراً من ابنتك ! فتزوج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حفصة ، وتزوّج عثمانُ ابنته .

خطبته صلى الله عليه وسلم لخديجة

ولما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد بن عبد العزى ، ذكرت ذلك لورقة بن نوفل — وهو ابن عمها — فقال : هو الفحل لا يُقْدَعُ أنفُه ، تزوّجيه .

وخطب عمر بنُ الخطاب أمّ كلثوم بنت أبى بكر ، وهى صغيرة ، فأرسل [عمرُ] إلى عائشة ، فقالت : الأمر إليك . فلما ذكرت ذلك عائشة لأم كلثوم ، قالت : لا حاجة لى فيه ! فقالت عائشة : أترغبين عن أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم

إنه خَشِنُ العيش ، شديدٌ على النساء! فأرسلت عائشة إلى المغيرة ابن شعبة فأخبرته فقال لها : أنا أكفيك ! فأتى عمر فقال : يا أمير المؤمنين ، بلغنى عنك أمرٌ أُعيذك بالله منه ! قال : ماهو ؟ قال : بلغنى أنك خطبت أمّ كلثوم بنت أبى بكر. قال : نعم ، أفرغبت بها عنى ، أم رغبت بى عنها ؟ قال : لا واحدة منهما ، ولكنها حدثة نشأت تحت كنف خليفة رسول الله فى لين ورفق ، وفيك غلظة ، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خُلُق من أخلاقك ؛ فكيف بها ؟ إن خالفَتْك فى شىء فسطوت بها كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك ! فقال : كيف لى بعائشة وقد كلمتُها ؟ قال : أنا لك بها ؛ وأدلك على خير لك منها ، أمّ كلثوم بنت علىّ من فاطمة بنت رسول الله ؛ تتعلق منها بسبب من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

على وعمر فى أم كلثوم

وكان علىٌّ قد عزل بناته لولد جعفر بن أبى طالب ؛ فلقيه عمر فقال : يا أبا الحسن ، أنكحْنى ابنتك أم كلثوم ابنة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : قد حبستُها لابن جعفر ! قال : إنه والله ما على الأرض أحدٌ يُرضيك من حسن صحبتها بما أرضيك به ؛ فأنكحْنى يا أبا الحسن . قال : قد أنكحتكها يا أمير المؤمنين !

فأقبل عمر فجلس فى الروضة بين القبر والمنبر ، واجتمع إليه المهاجرون والأنصار ؛ فقال : زفّونى ! قالوا : بمن يا أمير المؤمنين ؟ قال : بأمّ كُلثوم ؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «كلُّ سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى» ! وقد تقدمت لى صحبةٌ ، فأحببت أن يكون لى معها سبب.

فولدت له أمُّ كلثوم زيدَ بن عمر ، ورقية بنت عمر ؛ وزيدُ بن عمر هو الذى لطم سمرة بن جندب عند معاوية إذ تنقّص عليا فيما يقال .

سلمان وعمر فى ابنته

وخطب سلمان الفارسى إلى عمر ابنته ، فوعده بها ؛ فشق ذلك على عبد الله ابن عمر ، فلقى عمرَو بن العاص فشكا ذلك إليه ؛ فقال له : سأكفيكه ! فلقى سلمان فقال له : هنيئاً لك يا أبا عبد الله ، أمير المؤمنين يتواضع لله عز وجل فى تزويجك

ابنته! فغضب سلمان وقال: لا، والله لا تزوجت إليه أبدا.

زواج بلال وأخيه

وخرج بلال بن رباح مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أخيه، إلى قوم من بني ليث، يخطب إليهم لنفسه ولأخيه. فقال: أنا بلال وهذا أخي، كنا ضالّين فهدانا الله، وكنا عبدين فأعتقنا الله، وكنا فقيرين فأغنانا الله؛ فإن ٥ تزوّجونا فالحمد لله، وإن تردّونا فالمستعان الله! قالوا: نعم وكرامة! فزوجوهما.

زواج عثمان من نائلة

قالت تماضر امرأة عبد الرحمن بن عوف لعثمان بن عفان: هل لك في ابنة عم لي، بكر جميلة، ممتلئة الخلق، أسيلة الخد، أصيلة الرأي، تتزوجها؟ قال: نعم. فذكرتْ له نائلة بنت الفرافصة الكلبية، فتزوجها وهي نصرانية، فتحنّفت وحُملت إليه من بلاد كلب، فلما دخلت عليه قال لها: لعلك تكرهين ما ترين ١٠ من شيبي؟ قالت: والله يا أمير المؤمنين، إني من نسوة أحب أزواجهن إليهن الكهل! قال: إني قد جُزت الكهول، وأنا شيخ! قالت: أذهبتَ شبابك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في خير ما ذهبت فيه الأعمار! قال: أتقومين إلينا أم نقوم إليك؟ قالت: ما قطعت إليك أرض السماوة وأريد أن أنثني إلى عرض البيت! وقامت إليه؛ فقال: لها: انزعي ثيابك. فنزعَتْها؛ فقال: حلي مِرطك. ١٥ قالت: أنت وذاك.

قال أبو الحسن: فلم تزل نائلة عند عثمان حتى قتل؛ فلما دُخِل إليه وقَتْه بيدها، فجذمت أناملها، فأرسل إليها معاوية بعد ذلك يخطبها، فأرسلت إليه: ما ترجو من امرأة جذماء!

وقيل: إنها قالت لما قتل عثمان: إني رأيت الحزن يبلى كما يبلَى الثوب، ٢٠ وقد خشيت أن يبلى حزنُ عثمان من قلبي! فدعت بفهر فهتمت فاها، وقالت: والله لا قعَد أحدٌ مني مقعد عثمان أبدا!

فاطمة بنت الحسين بن علي وابن عمرو

وكانت فاطمة بنت الحسين بن علي عند حسن بن حسن بن علي، فلما احتُضر قال لبعض أهله: كأني بعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان إذا سمع بموتي قد جاء يتهادى في إزار له مورّدٍ قد أسبله، فيقول: جئت أشهد ابنَ عمي،

وليس يريد إلا النظر إلى فاطمة ، فإذا جاء فلا يدخلنّ ! قال : فوالله ماهو إلا أن أغمضوه ، فجاء عبد الله بن عمرو فى تلك الصفة التى وصفها ، فمُنعَ ساعة ؛ فقال بعض القوم : لايدخل : وقال بعضهم : افتحوا له ، فإن مثلَه لا يُرد . ففتحوا له ، ودخل ؛ فلما صرنا إلى القبر قامت عليه فاطمة تبكى ، ثم اطلعت إلى القبر فجعلت تصكُّ وجهها بيديها حاسرة ؛ قال : فدعا عبد الله بن عمرو وصيفاً له فقال : انطلق إلى هذه المرأة وقل لها : يقرئك ابن عمّك السلام ، ويقول لك : كُفّى عن وجهك ؛ فإن لنا به حاجة ! فلما بلّغها الرسالة أرسلت يديها فأدخلتهما فى كمها حتى انصرف الناس .

فتزوجها عبد الله بن عمرو بعد ذلك ، فولدت له محمد بن عبد الله ؛ وكان يسمى المُذهب ، لجماله ؛ وكانت ولدت من حسن بن حسن ، عبد الله بن حسن الذى حارب أبو جعفر ولديه إبراهيمَ ومحمدا ابنى عبد الله بن الحسن بن الحسن حتى قتلهما .

محمد بن عبد الله ابن عمرو

وعن سلمة بن محارب قال : مارأيت قرشيا قط كان أكمل ولا أجمل من محمد بن عبد الله بن عمرو الذى ولدته فاطمة بنت الحسين .

وكانت له ابنة ولدَها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير : كانت أمها خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير وأم عروة أسماء بنت أبى بكر الصديق . وأم محمد فاطمة بنت الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأم فاطمة بنت الحسين أمُّ إسحق بنت طلحة بن عبيد الله ، وأم عبد الله بن عمرو بن عثمان سودةُ بنت عبد الله بن عمر ابن الخطاب .

شريح والشعبى فى نساء تميم

وعن الهيثم بن عدى الطائى قال : حدثنا مجالد عن الشعبى قال : قال لى شُريح : ياشعبى ، عليك بنساء بنى تميم ، فإنى رأيت لهن عقولا ، قال : ومارأيت من عقولهن ؟ قال : أقبلت من جنازة ظهرا ، فمررت بدورهم فإذا أنا بعجوز على باب دار ، وإلى جنبها جارية كأحسن مارأيت من الجوارى ، فعدلتُ

فاستسقيت ومابى عطش ؛ فقالت : أى الشراب أحب إليك ؟ فقلت : ماتيسّر . قالت : ويحك ياجارية ! ائتيه بلبن ؛ فإنى أظن الرجل غريبا ! قلت : من هذه الجارية ؟ قالت : هذه زينب ابنة جرير ، إحدى نساء بنى حنظلة . قلت : فارغة هى أم مشغولة ؟ قالت : بل فارغة . قلت : زوجينيها . قالت : إن كنت لها كفئاً ـ ولم تقل كفوا ، وهى لغة تميم ـ فمضيت إلى المنزل فذهبت لأقيل ، فامتنعت منى القائلة ؛ فلما صليتُ الظهر أخذت بأيدى إخوانى من القرّاء الأشراف : علقمة ، والأسود ، والمسيب ، وموسى بن عرفطة ؛ ومضيت أريد عمها ، فاستقبل فقال : ياأبا أمية ، حاجتك ؟ قلت : زينب بنت أخيك . قال : مابها رغبة عنك ! فأنكحنيها ، فلما صارت فى حبالى ندمتُ ، وقلت : أى شىء صنعتُ بنساء بنى تميم ؟ وذكرت غِلَظ قلوبهن ، فقلت : أطلّقها ! ثم قلت : لا ، ولكن أضمها إلىّ ، فإن رأيت ما أُحِب وإلا كان ذلك . فلو رأيتنى ياشعبى وقد أقبل نساؤهم يُهدينها حتى أُدخلت علىّ ، فقلت : إن من السُّنة إذا دخلت المرأةُ على زوجها أن يقوم فيصلى ركعتين فيسألَ الله من خيرها ويعوذ به من شرها . فصليت وسلمت ، فإذا هى من خلفى تصلى بصلاتى ، فلما قضيت صلاتى أتتنى جواريها ، فأخذن ثيابى وألبسننى ملحفة قد صبغت فى عكر العصفر .

فلما خلا البيت دنوت منها فمددت يدى إلى ناحيتها ، فقالت : على رِسلك أبا أمية ! كما أنت ! ثم قالت :

الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأصلى على محمد وآله ؛ إنى امرأة غريبة لا علم لى بأخلاقك ، فبيِّنْ لى ما تحب فآتيه ، وما تكره فأزدجِرَ عنه ... وقالت : إنه قد كان لك فى قومك منكح ، وفى قومى مثل ذلك ، ولكن إذا قضى الله أمراً كان ، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله به : ﴿إمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ بإحسانٍ﴾ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولك .

قال : فأحوجتنى والله ياشعبى إلى الخطبة فى ذلك الموضع ، فقلت :

الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأصلى على النبى وآله وأُسلم ، وبعد ؛ فإنك

قد قلتِ كلاماً إن تثبُتى عليه يكن ذلك حظَّك ، وإن تدعيه يكن حُجةً عليك ؛ أُحب كذا وأكره كذا ، ونحن جميع فلا تُفرِّق ، وما رأيتِ من حسنة فانشريها ، وما رأيت من سيئة فاستريها .

وقالت شيئا لم أذكره : كيف محبتُك لزيارة الأهل ؟ قلت : ما أحب أن يُملّنى أصهارى ! قالت : فمن تحب من جيرانك أن يدخُل دارك آذنُ لهم ، ومن تكرهُهُ أكرهه ؟ قلت : بنو فلان قوم صالحون ، وبنو فلان قوم سوء .

قال : فبتُّ ياشعبيُّ بأنعم ليلة ، ومكثت معى حولا لا أرى إلا ما أحب ، فلما كان رأسُ الحوْل جئت من مجلس القضاء ، فإذا بعجوز تأمر وتنهى فى الدار ! فقلت : من هذه ؟ قالوا : فلانة خَتَنُتك . فسُرى عنى ما كنت أجد ، فلما جلست أقبلت العجوز فقالت : السلامُ عليك أبا أمية . قلت : وعليك السلام ، من أنت ؟ قالت : أنا فلانة ختنتك . قلت : قرّبك الله . قالت : كيف رأيت زوجتك ؟ قلت خير زوجة . فقالت لى : أبا أمية ، إن المرأة لا تكون أسوأ حالا منها فى حالتين : إذا ولدت غلاما ، أو حظيت عند زوجها ؛ فإن رابك ريبٌ فعليك بالسوط ؛ فوالله ما حاز الرجال فى بيوتهم شرًّا من المرأة المدللة . قلت : أما والله لقد أدّبْتِ فأحسنت الأدب ، ورضْت فأحسنت الرياضة . قالت : تحبُّ أن يزورك أختانُك ؟ قلت ! متى شاءوا . قال : فكانت تأتينى فى رأس كل حول توصينى تلك الوصية .

فمكثت معى عشرين سنة لم أعتب عليها فى شىء ، إلا مرة واحدة ، وكنت لها ظالماً : أخذ المؤذّن فى الإقامة بعد ما صليت ركعتى الفجر ، وكنت إمام الحىّ ، فإذا بعقرب تدب ؛ فأخذت الإناء فأكفأته عليها ؛ ثم قلت : يا زينب ؛ لا تتحركى حتى آتى ! فلو شهدتَنى ياشعبى وقد صليت ورجعت فإذا أنا بالعقرب قد ضربتها ، فدعوت بالكسب والملح ؛ فجعلت أمغث أصبعها وأقرأ عليها بالحمد والمعوذتين .

وكان لى جارٌ من كندة يُفزع امرأته ويضربها ؛ فقلت فى ذلك :

رأيت رجالا يضربونَ نساءهُم * فشُلت يَميني حين أضرِب زينبا

أأضرُبها فى غيرِ ذنبٍ أتت به * فما العدلُ مِني ضربُ من ليس مُذنبا

فزينبُ شمس والنساء كواكبٌ * إذا طَلَعت لم تُبدِ منهُنّ كوكبا

الفرزدق وأمة له

٥ وقال أبو عبيدة : نكح الفرزدق أمة له زنجية ؛ فولدت له بنتا ، فسماها مكية ، وكان يكنى بها ، ويقول : أنا أبو مكية ! فكتبت النوار يوما إلى الفرزدق تشكو مكية ، فكتب إليها :

كتمْ زعمتُم أنها ظلمَتْكمُ * كذبتم وبيتِ اللهِ بل تَظلمونها

فإن لا تعدُّوا أمها من نسائِكم * فإنّ أباها والدٌ لن يَشينَها

١٠ وإنّ لها أعمامَ صِدقٍ وإخوة * وشيخاً إذا شئتم تأيّمَ دونَها

قالت النوار : فإذاً لا تَشاء .

وقال الفرزدق فى أمته الزنجية :

يا رُب خَودٍ من بناتِ الزَّنجِ * تَنقُلُ تنُوراً شديدَ الوهجِ

أغــيرَ مثلَ القدح الخَلَنجِ * يزدادُ طيباً بعد طُولِ الهرجِ

يعلى الهذلى وطلحة الطلحات

١٥ وعن الهيثم بن عدى : عن ابن عياش قال : حدثنا يعلى الهذلى[1] قال : كنت بسجستان مع طلحة الطلحات ، فلم أر أحداً كان أسخى منه ولا أشرف نفسا ؛ فكتب إلىّ عمى من البصرة : إنى قد كبرت ، ومالى كثير ، وأكره أن أوكله غيرك فاقدم أزوجك ابنتى وأصنع بك ما أنت أهله .

قال : فخرجت على بغلة لى تركية ، فأتيت البصرة فى ثلاثين يوما ، ووافيته
٢٠ فى صلاة العصر ، فوجدته قاعداً على دكانه ، فسلمت عليه ، فقال لى من أنت ؟ قلت له : ابن أخيك يعلى ، قال : وأين ثقلك ؟ قلت : تعجلت إليك حين أتانى

(١) فى بعض الأصول : « سلمى الهذلى » .

كتابُك وطربت نحوكم . قال : يابن أخى ، أتدرى ما قالت العرب ؟ قلت : لا .
قال : قالت العرب : شر الفتيان المُفْلس الطروب ! قال : فقمت إلى بغلتى
فأعددت سرجى عليها ، فما قال لى شيئا ، ثم قال : إلى أين ؟ قلت : إلى سجستان !
قال : فى كَنَف الله .

٥ قال : فخرجت فبتُّ فى الجسر ، ثم ذكرت أم طلحة ، فانصرفت أسأل عنها
حتى أتيت منزلها — وكان طلحة أبرّ الناس بها — فقلت : رسول طلحة ،
فقالت ائذنوا له . فدخلت ، فقالت : ويحك ! كيف ابنى ؟ قلت : على أحسن حال
قالت : فلله الحمد ! وإذا بعجوز قد تحدرت ، قالت : فما جاء بك ؟ قلت : كيت
وكيت . قالت : يا جارية . ائتينى بأربعة آلاف درهم ! ثم قالت : ائت عمك فابتِن
١٠ بابنته ، ولك عندنا ما تحب ! قلت : لا والله لا أعود إليه أبدا ، قالت : يا جارية
ائتينى ببغلة رحالتى . ثم قالت : راوح بين هذه وبغلتك حتى تأتى سجستان . قلت :
آكتبى بالوصاة بى والحالة التى آستقبلتُها . فكتبت بوجهها التى كانت فيه ، وبعافية
الله إياها ، وبالوصاة بى ؛ فلم تَدَعْ شيئا . ثم دفعت حتى أتيت سجستان ، فأتيت
باب طلحة ، وقلت للحاجب : رسول صفية بنت الحرث . وأنا عابس باسر ،
١٥ فدخل ؛ فخرج طلحة متوشّحا ، وخلفه وصيف يسعى بكرسى ، فقمت بين يديه ،
فقال : ويلك ! كيف أمى ؟ قلت : بأحسن حالة . قال : انظر كيف تقول ؟ قلت :
هذا كتابها . قال : فعرف الشواهد والعلامات ، قلت : آقرأ كتاب وصيتها . قال :
ويحك ! ألم تأتنى بسلامتها ؟ حسبُك ! فأمر لى بخمسين ألف درهم ، وقال لحاجبه :
اكتُبه فى خاصّة أهلى ، قال : فوالله ما أتى علىّ الحول حتى تم لى مائة ألف .

٢٠ قال ابن عياش : فقلت له : هل لقيت عمك بعد ذلك ؟ قال لا والله
ولا ألقاه أبدا .

السلامانى وقريب له

وعن الهيثم بن عدى عن ابن عياش قال : أخبرنى موسى السلامانى ، مولى
الحضرمى ، وكان أيسر تاجر بالبصرة ، قال : بينا أنا جالس إذ دخل علىّ غلام لى
فقال : هذا رجل من أهل أمّك يستأذن عليك — وكانت أمه مولاة لعبد الرحمن

ابن عوف — فقلت : ائذن له . فدخل شاب حلوُ الوجه ، يُعرف فى هيئته أنه قرشى ، فى طمرين . فقلت : من أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا عبد الحميد بن سهيل ابن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : فى الرحب والقرب . ثم قلت : ياغلام ، برّه وأكرمْه وألطفه ، وأدخله الحمام ، وآكسُه قميصاً رقيقا ، ومبطنا قوهيا ، ورداء عمريا . وحذونا له نعلين حضرميين ٥ فلما نظر الشاب فى عطفيه وأعجبته نفسه قال : ياهذا ، آبغِنى أشرف أيِّم بالبصرة أو أشرف بكر بها ! قلت : يابن أخى ، معك مال ؟ قال : أنا مالٌ كما أنا ! قلت : يابن أخى ، كُفَّ عن هذا . قال : انظر ما أقول لك ! قلت : فإن أشرف أيّم بالبصرة هند ابنة أبى صفرة . أخت عشرة ، وعمة عشرة ، وحالها فى قومها حالها . وأشرف بكر بالبصرة الملاة بنت زرارة ابن أوفى الجرشى قاضى البصرة ١٠ قال اخطبها علىّ . قلت : ياهذا ، إن أباها قاضى البصرة ! قال : انطلق بنا إليه . فانطلقنا إلى المسجد فتقدم . فجلس إلى القاضى ، فقال له : من أنت يابن أخى ؟ قال له : عبد الحميد بن سهيل بن عبد الرحمن بن عوف خال رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال مرحباً بك ، ما حاجتك ؟ قال : جئت خاطباً . قال : ومن ذكرتَ ؟ قال : الملاة ابنتك . قال : يابن أخى ، ما بها عنك رغبة . ولكنها ١٥ امرأة لا يُفْتات عليها [فى] أمرها ، فاخطبها إلى نفسها . فقام إلىّ ، فقلت : ما صنعت ؟ قال : قال كذا وكذا . قلت : ارجع بنا ولا تخطبها . قال : اذهب بنا إليها . فدخلنا دار زرارة ، فإذا دار فيها مقاصير ، فاستأذنا على أمها ، فلقيتْنا بمثل كلام الشيخ ، ثم قالت : وهاهى فى تلك الحجرة . قلت له : لا تأتها . قال : أليست بكرا ؟ قلت : بلى . قال : ادخل بنا إليها . فاستأذنا ، فأذنت لنا . فوجدناها ٢٠ جالسة وعليها ثوب قوهى رقيق معصفر ، تحته سراويل يُرى منه بياضُ جسدها ، ومرطٌ قد جمعته على فخذيها ، ومصحف على كرسى بين يديها . فأشرَجت المصحف ثم نحّته ، فسلمنا ، فردّت ، ثم رحبت بنا ، ثم قالت : من أنت ؟ قال : أنا عبد الحميد ابن سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري خال رسول الله صلى الله عليه وسلم !

ومد بها صوته ، قالت : يا هذا ، إنما يمدّ هذا الصوت للساسانيين ! قال موسى : فدخل بعضي في بعض ! ثم قالت : ما حاجتك ؟ قال : جئت خاطبا . قالت : ومن ذكرت ؟ قال : ذكرتك ! قالت : مرحبا بك ياأخا أهل الحجاز ، ماالذى بيدك؟ قال : لنا سهمان بخيبر أعطاناهما رسول الله صلى الله عليه وسلم — ومد بها صوته — وعين بمصر ، وعين باليمامة ، ومال باليمن . قالت : يا هذا ، كل هذا عنا غائب ، ولكن ما الذى يحصل بأيدينا منك ؟ فإنى أظنك تريد أن تجعلنى كشاة عكرمة ، أتدرى من عكرمة ؟ قال : لا . قالت : عكرمة بن ربعى . فإنه كان نشأ بالسواد ، ثم انتقل إلى البصرة وقد تغذى باللبن . فقال لزوجته : اشترى لنا شاة نحتلبها وتصنعين لنا من لبنها شرابا وكامخا . ففعلت وكانت عندهم الشاة إلى أن استحرمت ، فقالت : يا جارية خذى بأُذُن الشاة وانطلقى بها إلى التيّاس . فانزى عليها ! ففعلت فقال التياس : آخذ منك على النزوة درهما ! فانصرفت إلى سيدتها فأعلمتها . فقالت : إنما رأينا من يرحم ويعطى ، وأما من يرحم ويأخذ فلم نره !... ولكن ياأخا أهل المدينة ، أردت أن تجعلنى كشاة عكرمة . فلما خرجنا قلت له : ماكان أغناك عن هذا ! قال : ماكنت أظن أن امرأة تجترئ على مثل هذا الكلام .

ابن علفة وعبد الملك

وعن الأصمعى قال : كان عقيل بن عُلَّفة المرى غيوراً فخورا ، وكان يُصهِر إليه خلفاء بنى أمية ، فخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته لبعض ولده ، فقال : جنبنى هُجناء ولدك .

ابن علفة وأولاده

وكان إذا خرج يمتار خرج بابنته الجرباء معه . فخرج مرة فنزلوا دَيْراً من أديرة الشام يقال له دَيْرُ سعد ، فلما ارتحلوا قال عقيل :

قضتْ وطَرا من دَيْرسعدٍ ورُبّما * عَلاَ عُرُضٌ ناطَحْنَه بالجماجمِ

ثم قال لابنه : أجِزْ ياعُمَيْس . فقال :

فأصبحْن بالمَوْماة يَحمِلْن فتيةً * نَشاوَى من الإدْلاج مِيلَ العمائمِ

ثم قال لابنته : ياجرباء أجيزى ، فقالت :

كأنّ الكَرَى أسقاهُم صَرْخديّةً * عُقارا تَمَشّتْ فى المَطا والقوائمِ

فقال لها : وما يدريك أنت ما نعت الخز ؟ ثم سل السيف ونهض إليها ، فاستغاثت بأخيها عميس ، فانتزعه بسهم فأصاب فخذه ، فبرك . ومضوا وتركوه . حتى إذا بلغوا أدنى المياه منهم قالوا لهم : إنا أسقطنا جزوراً لنا فأدركوه . وخذوا معكم الماء ! ففعلوا . وإذا عقيلٌ بارك وهو يقول :

٥ إنَّ بَنِيَّ زمَّلوني بالدَّمِ * من يَلْقَ أبطال الرِّجالِ يُكلَم
ومن يكن درْءٌ به يُقوَّم * شِنْشِنةٌ أعرِفُها من أخزَم

الشنشنة : الطبيعة . وأخزم : فحل كريم . وهذا مثل للعرب .

عبد الملك وابنة عبد الرحمن

الشيباني عن عوانة قال : خطب عبد الملك بن مروان ابنة عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فأبت أن تتزوجه . وقالت : والله لا تَزَوَّجَني أبو الذباب ! ١٠ فتزوجها يحي بن الحكم . فقال عبد الملك : والله لقد تزوجت أفْوَه أشْوَه . فقال يحي : أما إنها أحبت مني ما كرِهَت منك . وكان عبد الملك رديء الفم يَدْمَى فيقع عليه الذباب فسمى أبا الذباب .

أخت أبي سفيان

وعن العتبي قال : خطب قريبة ابنة حرب أخت أبي سفيان بن حرب ، أربعة عشر رجلا من أهل بدر ، فأبتْهم وتزوجت عَقيل بن أبي طالب . قالت : ١٥ إن عَقيلا كان مع الأحبة يوم قتلوا ، وإن هؤلاء كانوا عليهم ! ولاحته يوما فقالت : ياعقيل ، أين أخوالى ؟ أين أعمامى ؟ كأن أعناقهم أباريق الفضة ! قال لها : إذا دخلت النار فخذى على يسارك .

زياد وسعيد بن العاص فى ابنته

وكتب زياد إلى سعيد بن العاص يخطب إليه ابنته ، وبعث إليه بمال كثير وهدايا ؛ فلما قرأ الكتاب أمر حاجبه بقبض المال والهدايا ، وأن يقسمها بين ٢٠ جلسائه ؛ فقال الحاجب : إنها أكثر من ظنك . قال سعيد : أنا أكثر منها ! ثم وقَّع إلى زياد فى أسفل كتابه : ﴿ كلاَّ إنَّ الإنسانَ ليَطْغَى أنْ رآه آستغْنَى ﴾ .

الحسن ورجل يزوج ابنته

وقال رجل للحسن : إن لى بنية ، فمن ترى أن أزوجها ؟ قال زوِّجْها ممن يتقى الله فإن أحبَّها أكرمها ، وإن أبغضها لم يَظلمها .

عبد الملك وعمر ابن عبد العزيز

وقال عبد الملك بن مروان، لعمر بن عبد العزيز: قد زوّجك أمير المؤمنين ابنته فاطمة، فقال عمر: وصلك الله يا أمير المؤمنين، فقد كفيتَ المسئلة، وأجزلت فى العطية.

للحسن

وقيل للحسن: فلان خطب إلينا فلانة. قال: أهو موسرٌ من عقل ودين؟ قالوا: نعم. قال: فزوِّجوه. ٥

لحيوة بن شريح

وقال رجل لحيوة بن شُريح: إنى أريد أن أتزوج، فماذا ترى؟ قال: كم المهر؟ قال: مائة. قال: فلا تفعل؛ تزوج بعشرة وأبق تسعين، فإن وافقتك ربحت التسعين، وإن لم توافقك تزوجت عشرا؛ فلا بد فى عشرة نسوة من واحدة توافقك.

هبنقة القيسى وراغب فى الزواج

١٠ وقال رجل: أردت النكاح فقلت: لأستشيرن أول من يطلع علىّ ثم أعمل برأيه؛ فكان أول من طلع هبنّقة القيسى، وتحته قصبة؛ فقلت له: أريد النكاح، فما تشير [به] علىّ؟ قال: البكر لك، والثيب عليك، وذاتُ الولد لا تقرَبْها واحذر جوادى لا ينفحك!

مكثر ومقل فى زواج

وعن الأصمعى قال: أخبرنى رجل من بنى العنبر عن رجل من أصحابه وكان مُقِلاًّ؛ فخطب إليه مكثِرٌ من مال مُقِلٌّ من عقل، فشاور فيه رجلا يقال له ١٥ أبو يزيد؛ فقال: لا تفعل، ولا تُزوِّج إلا عاقلا ديِّناً؛ فإنه إن لم يكرمها لم يظلمها. ثم شاور رجلا آخر يقال له أبو العلاء، فقال له: زوِّجه، فإن ماله لها وحمقه على نفسه. فزوَّجه، فرأى منه ما يكره فى نفسه وابنته؛ وأنشده فقال:

أَلَهْفِى إذ عصيتُ أبا يزيدٍ * ولهفِى إذ أطعتُ أبا العلاء

٢٠ وكانت هفْوَة من غير ريحٍ * وكانت زلّة من غيرِ ماء

زواج معبد بن خالد

المفضل بن محمد الضبى قال: أخبرنى مِسْعَر بن كدام عن معبد بن خالد الجدلى قال: خطَبْت امرأة من بنى أسد فى زمن زياد — وكان النساء يجلسن لخطّابهن — قال: فجئت لأنظر إليها؛ وكان بينى وبينها رواق؛ فدعت بجفنة عظيمة من الثريد مكللة باللحم، فأتت على آخرها وألقت العظام نقية، ثم دعت بشنّ عظيم مملوءة

لبناً ، فشربته حتى أكفأته على وجهه ، وقالت : يا جارية ارفعي السجف ، فإذا هي جالسة على جلد أسد ، وإذا شابة جميلة ؛ فقالت : يا عبد الله ، أنا أسدة ، من بني أسد ، وعليّ جلدُ أسد ، وهذا طعامي وشرابي ؛ فعلام ترى ؟ فإن أحببت أن تتقدم فتقدم ، وإن أحببت أن تتأخر فتأخر ! فقلت : أستخيرُ الله في أمري ٥ وأنظر ! قال : فخرجت ولم أعُدْ !

جارية لأمية وراغب في زواجها.

قال : وحدثنا بعض أصحابنا أن جارية لأمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ذات ظرف وجمال ، مرت برجل من بني سعد ، وكان شجاعا فارساً ، فلما رآها قال : طوبى لمن كانت له امرأة مثلك ! ثم إنه أتبعها رسولا يسألها : ألها زوج ؟ ويذكره لها ؛ فقالت للرسول : ما حرفتُه ؟ فأبلغه الرسول قولها ، فقال : ارجع ١٠ إليها فقل لهـا :

وسائلةٍ ما حرْفتي ؟ قلت:حرْفتي * مُقارعةُ الأبطال في كلّ شارقِ

إذا عرَضت لي الخيلُ يوماً رأيتني * أمام رعيلِ الخيلِ أحمِي حقائقي

وأصبِرُ نفسي حين لاحُرّ صابرٌ * على ألمِ البيضِ الرِّقاقِ البوارقِ

فأنشدها الرسول ما قال ، فقالت له : ارجع إليه وقل له : أنت أسدٌ فاطلب ١٥ لنفسك لبؤة ، فلست من نسائك ! وأنشدت هذه الأبيات :

ألا إنما أبغِي جَواداً بمـالِهِ * كريماً مُحيّاه قليل الصدائقِ

فتى همُّه مُذْ كان خَودٌ كريمةٌ * يعانقُها بالليل فوق النمارقِ

ويشربُها صِرْفا كُمَيْتاً مُدامةً * نداماهُ فيها كلُّ خِرْقٍ موافقِ

رجل بين زوجتين

يحيى بن عبد العزيز عن محمد بن الحكم عن الشافعي قال : تزوج رجل ٢٠ امرأة حديثة على امرأة له قديمة ، فكانت جارية الحديثة تمرُّ على باب القديمة فتقول :

وما يستوي الرِّجلان رجلٌ صحيحة * ورجلٌ رمى فيها الزمانُ فشلت

ثم تعود فتقول :

وما يستوي الثوبانِ ثوبٌ به البِلَى * وثوبٌ بأيدي البائعين جديدُ

فمرت جارية القديمة على الحديثة فأنشدت :

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى * ما القلبُ إلا للحبيبِ الأوّلِ
كم منزلٍ فى الأرضِ يألفهُ الفتى * وحنينُـهُ أبداً لأوّلِ منزلِ

المغيرة وغلام حارثى — وعن الشعبي قال . سمعت المغيرة بن شعبة يقول : ما غلبنى أحدٌ قط إلا غلام من بنى الحارث بن كعب ، وذلك أنى خطبت امرأة من بنى الحارث ، وعندى شاب منهم ، فأصغى إلىّ فقال : أيها الأمير ، لاخير لك فيها ! قلت : ياابن أخى ومالها ؟ قال : إنى رأيت رجلا يقبّلها ! قال : فبرئت منها ؛ فبلغنى أن الفتى تزوجها قلت : ألم تخبرنى أنك رأيت رجلا يقبّلها ؟ قال : بَلى رأيت أباها يقبلها .

أبو سعيد وابن سيرين فى الزواج — أبو سعيد قال : صحبتُ ابن سيرين عشرين سنة ، فقال لى يوما : ياأبا سعيد إن تزوجت فلا تتزوج امرأة تنظر فى يدها ، ولكن تزوج امرأة تنظر فى يدك .

صفات النساء وأخلاقهن

لعبدة بن الطبيب — قال أبو عمرو بن العلاء : أعلم الناس بالنساء عَبَدَة بن الطبيب حيث يقول :

فإن تسألونى بالنساء فإننى * عليمٌ بأدواءِ النساءِ طبيبُ
إذا شاب رأسُ المرءِ أوقلّ ماله * فليسَ له فى وُدّهِنّ نصيبُ
* يُرِدْنَ ثراءَ المالِ حيث علِمْنَهُ * وشرْخُ الشبابِ عِندَهُنّ عجيبُ

وهذه الأبيات لعلقمة بن عبدة المعروف بالفحل وأول القصيدة :

* طحا بِك قلبٌ فى الحسانِ طَرُوبُ *

لمعاذ بن جبل — وعن رجاء بن حَيوة عن مُعاذ بن جبل قال : إنكم ابتُليتم بفتنة الضراء فصبرتم وإنى أخاف عليكم فتنة السراء ؛ وهى النساء ، إذا تحلين بالذهب ، ولبسن ريط الشام وعصب اليمن ، فأتعبن الغنى ، وكلّفن الفقير ما لا يطاق .

لعبد الملك — وقال عبد الملك بن مروان : من أراد أن يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية ومن أراد للولد فليتخذها فارسية ، ومن أراد للخدمة فليتخذها رومية .

لابن — وعن أبي الحسن المدائني قال : قال يزيد بن عمر بن هُبيرة : اشتروا لى جارية شقَّاء مقّاء رسحاء ، بعيدةَ ما بين المنكبين ، ممسوحةَ الفخذين .

قوله : شقاء : يريد كأنها شقة جبل ؛ مقاء : طويلة ؛ رسحاء : صغيرة العجيزة، أرادها للولد ؛ لأن الأرسح أفرس من العظيم العجيزة .

٥ بين ابن هبيرة ورجل — وقال عمر بن هبيرة لرجل : ما أنت بعظيم الرأس فتكون سيدا ، ولا بأرسحَ فتكون فارسا .

للأصمعى — وقال الأصمعى وذكر النساء : بناتُ العم أصبر ، والغرائبُ أنجب ، وما ضَرَب رءوس الأبطال كابن الأعجمية .

يونس ومستشير له فى زواج — أبو حاتم عن الأصمعى عن يونس بن مصعب عن عثمان بن إبراهيم بن ١٠ محمد قال : أتانى رجلٌ من قريش يستشيرنى فى امرأة يتزوجها ، فقلت : يا ابن أخى ، أقصيرة النسب أو طويلته ؟ فلم يفهم عنى ؛ فقلت : يا ابنَ أخى ، إنى أعرف فى العين إذا عَرفت ، وأُنكر فيها إذا أنكرتْ ، وأعرف فيها إذا لم تَعرف ولم تُنكر ؛ أما إذا عرفت فتحاوص ، وأما إذا أنكرت فتجحظ ، وأما إذا لم تعرف ولم تنكر فتسجو ؛ وقد رأيت عينَك ساجية ؛ فالقصيرة النسب ١٥ التى إذا ذكرتْ أباها اكتفت به ، والطويلة النسب التى لا تُعرف حتى تطيلَ فى نسبتها ؛ فإياك أن تقع فى قوم قد أصابوا كثيراً من الدنيا مع دناءة فيهم ؛ فتضيع نفسك فيهم .

الوليد وعقائله — وعن العتبى قال كان عند الوليد بن عبد الملك أربع عقائل : لبابةُ بنت عبد الله ابن عباس ، وفاطمةُ بنت يزيد بن معاوية ، وزينب بنت سعيد بن العاص ، وأمُّ ٢٠ جحش بنت عبد الرحمن بن الحرث ؛ فكنّ يجتمعن على مائدته ويفترقن فيفخرن فاجتمعن يوما ، فقالت لبابة : أما والله إنك لتسوينى بهن وإنك تعرف فضلى عليهن ! وقالت بنت سعيد : ما كنت أرى أنّ للفخر علىّ مجازا ، وأنا ابنة ذى العمامة إذ لا عمامةَ غيرها ! وقالت بنت عبد الرحمن بن الحارث : ما أحبُّ بأبى بدلا ، ولو شئت لقلت فصَدقتُ وصُدّقت ! وكانت بنتُ يزيد بن معاوية جاريةً حديثة

السن ، فلم تتكلم ؛ فتكلم عنها الوليد فقال نطق مَن احتاج إلى نفسه ، وسكت من اكتفى بغيره ؛ أما والله لو شاءت لقالت : أنا ابنةُ قادتكم فى الجاهلية ، وخلفائكم فى الإسلام ! فظهر الحديث حتى تُحُدِّثَ به فى مجلس ابن عباس ، فقال : الله أعلم حيث يجعل رسالته .

الحجاج فى نسوة — ٥ الشيبانى عن عوانة قال : ذُكر النساء عند الحجاج ، فقال عندى أربع نسوة : هند بنت المهلب ، وهند بنت أسماء بن خارجة ، وأم الجلاس بنت عبد الرحمن بن أسيد ، وأمة الرحمن بنت جرير بن عبد الله البجلى . فأما ليلتى عند هند بنت المهلب فليلةُ فتى بين فتيان ، يلعب ويلعبون ؛ وأما ليلتى عند هند بنت أسماء فليلة ملك بين الملوك ؛ وأما ليلتى عند أم الجلاس فليلة أعرابى مع أعراب فى حديثهم وأشعارهم ؛ وأما ليلتى عند أَمَة الرحمن بنت جرير فليلة عالم بين ١٠ العلماء والفقهاء .

أبو الحر المخنث — وعن العتبي قال : حدثنى رجل من أهل المدينة قال : كان بالمدينة مخنث يدُلُّ على النساء ، يقال له أبو الحر ، وكان منقطعاً إلىّ ، فدلنى على غير ما امرأة أتزوجها ، فلم أرض عن واحدة منهن ، فاستقصرته يوما ، فقال : والله يامولاى لأدلنَّك على امرأة لم ترَ مثلها قط ، فإن لم ترها كما وصفت فاحلق لحيتى ! فدلنى ١٥ على امرأة ، فتزوجتها ، فلما زُفت إلى وجدتُها أكثرَ مما وصف ، فلما كان فى السحر إذا إنسان يدق الباب ، فقلت : من هذا قال : أبو الحر ، وهذا الحجّام معه فقلت : قد وفر الله لحيتك أبا الحر ، الأمر كما قلتَ !

للرسول صلى الله عليه وسلم فى مخنث — ابن بكير عن مالك بن هشام بن عروة عن أبيه : أن مخنَّثا كان عند أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لعبد الله بن أبى أمية ورسول الله صلى الله عليه ٢٠ وسلم يسمع : أبا عبد الله ، إن فتح الله لكم الطائف غداً فأنا أدلك على بنت غيلان فإنها تُقبل بأربع ، وتُدبر بثمان ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يدخل عليكن هؤلاء .

قوله : تقبل بأربع وتدبر بثمان ، يريد عكن البطن ، أنها إذا أقبلت أربع ، وإذا أدبرت ثمـان .

كوفى وابنة عمه

وضُرب البعث على رجل من أهل الكوفة ، فخرج إلى أذربيجان ، فاقتاد جارية وفرسا ، وكان مُملكا بابنة عمه ، فكتب إليها ليُغيرها :

٥ ألا أبلغوا أمَّ البنينَ بأننا * غَنِينا وأغْنَتْنا الغطارفةُ المُرْدُ

بعيدُ مَناطِ المنكِبَيْنِ إذا جرى * وبيضاء كالتمثالِ زيَّنها العِقْدُ

فهذا لأيامِ العَدُو ، وهٰذه * لحاجةِ نفسى حينَ ينصرفُ الجندُ

فلما ورد كتابُه قرأته وقالت : يا غلام ، هات الدواة . فكتبت إليه تجيبه :

ألا أقرِهِ منّا السلامَ وقُل لهُ * غَنِينا ـ فغيقوا ـ بالغطارفةِ المُردِ

١٠ بحمدِ أمـــيرِ المؤمنينَ أقرَّهم * شباباً ـ وأغزاكم ـ خوالفَ فى الجنْد

إذا شِئتُ غنّانى غُـــلامٌ مُرَجّلٌ * ونازَعتهُ من ماءِ مُعتصَرِ الوَرْد

وإن شاء منهم ناشئٌ مَدَّ كَفّهُ * إلى كبدٍ مَلساء أو كَفَلٍ نَهدِ

فما كنتُم تقضونَ من حاجِ أهلِكم * شُهوداً ، قضيناها على النَّأيِ والبُعد

فعجِّـــل علينا بالسَّراحِ فإنهُ * مُنانا ولا تَدْعو لك الله بالرَّدِّ !

١٥ فلا قَفَلَ الجنْدُ الذى أنت فيهمُ * وزادَكَ ربُّ الناسِ بُعداً إلى بُعدِ !

فلما ورد كتابها ، لم يزد على أن ركب فرسه وأردف الجارية ، والحق بها ، فكان أول شيء بدأ لها به بعد السلام أن قال : بالله هل كنت فاعلة ؟ قالت : الله أجل فى قلبى وأعظم ، وأنت فى عينى أذلُّ وأحقر من أن أعصىَ الله فيك ! فكيف ذقت طعمَ الغَيْرَة ؟ فوهب لها الجارية وانصرف إلى بعثه .

معاوية وابن صوحان

٢٠ وقال معاوية لصعصعة بن صوحان : أى النساء أشهى إليك ؟ قال : المواتية لك فيما تهوى . قال : فأيهن أبغض ؟ قال : أبعدهُن مما ترضى . قال : هـذا النقد العاجل . فقال صعصعة : بالميزان العادل .

وقال صعصعة لمعاوية : يا أمير المؤمنين ، كيف ننسبك إلى العقل وقد غلب عليك نصف إنسان ! يريد غلَبة امرأته فاختة بنت قرظة عليه ؛ فقال معاوية : إنهنّ يغلبن الكرام ويغلبُهُنّ اللئام !

جرير البجلي وابن الخطاب

وعن سفيان بن عيينة قال : شكا جرير بن عبد الله البجلي إلى عمر بن الخطاب ما يلقى من النساء ، فقال : لا عليك ، فإن التى عندى ربما خرجت من عندها فتقول : إنما تريد أن تتصنع لفتيان بنى عدى .

فسمع كلامَهما ابنُ مسعود ، فقال : لا عليكما ، فإن إبراهيم الخليل شكا إلى ربه رداءةً فى خلق سارة ، فأوحى الله إليه : أن آلبسْها على لباسها مالم تر فى دينها وصمة . فقال عمر : إن بين جوانحك لعلما .

الحجاج وابن القرية

وكتب الحجاج إلى أيوب بن القرية : أن آخطب على عبد الملك بن الحجاج امرأةً جميلة من بعيد ، مليحة من قريب ، شريفة فى قومها ذليلة فى نفسها ، مواتية لبعلها . فكتب إليه : قد أصبتها لولا عظمُ ثدييها . فكتب إليه : لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدياها ، فتدفئَ الضجيع ، وتُروى الرضيع .

أبو العباس وابن صفوان

وقال أبو العباس أمير المؤمنين لخالد بن صفوان : يا خالد ، إن الناس قد أكثروا فى النساء ؛ فأيهن أعجبُ إليك ؟ قال : أعجبُهن يا أمير المؤمنين التى ليست بالضَّرَع الصغير ، ولا الفانية الكبيرة ، وحسبك من جمالها أن تكون فخمة من بعيد ، مليحة من قريب ، أعلاها قضيب ، وأسفلها كثيب ، كانت فى نعمة ثم أصابتها فاقة ، فأترفها الغنى وأدّبها الفقر .

ابن صفوان وامرأة

ونظر خالد بن صفوان إلى جماعة فى المسجد بالبصرة ، فقال ما هذه الجماعة ؟ قالوا : على امرأة تدلّ على النساء . فأتاها فقال لها : أبغنى امرأة . قالت : صفها لى . قال : أريدها بكراً كثيّب ، أو ثيّبا كبكر ، حلوة من قريب ، فخمة من بعيد ؛ كانت فى نعمة فأصابتها فاقة ؛ فمعها أدب النعمة وذل الحاجة ؛ فإذا اجتمعنا كنا أهل دنيا ، وإذا افترقنا كنا أهل آخرة

قالت : قد أصبتُها لك . قال : وأين هى ؟ قالت : فى الرفيق الأعلى من الجنة فاعْمَلْ لها !

لأعرابى فى النساء

وسئل أعرابى عن النساء ، وكان ذا تجربة وعِلْم بهن ؛ فقال : أفضل النساء أطوَلهن إذا قامت ، وأعظمُهن إذا قعَدَتْ ، وأصدقُهن إذا قالت ؛ التى إذا غضبت حلمت ، وإذا ضحكتْ تبسمت ، وإذا صنعتْ شيئاً جَوَّدَتْ ؛ التى تطيع زوجَها ، وتلزم بيتها ؛ العزيزةُ فى قومها ، الذليلة فى نفسها ، الودود الوَلود ، وكل أمرها محمود .

غطفانى وعبد الملك

وقال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان : صف لى أحسنَ النساء . فقال : خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين ، ردماء الكعبين ، مملوءة الساقين ، جماء الركبتين ، لفّاء الفخذين ، مقرمدة الرفْغين ، ناعمة الأليتين ، منيفة المأكمتين ، فعْمة العضدين ، فخمة الذراعين ، رخْصة الكفين ، ناهدة الثديين ، حمراء الخدين ، كحلاء العينين ، زجّاء الحاجبين ، لمياء الشفتين ، بلجاء الجبين ، شمّاء العرْنين ، شنْباء الثغر ، حالكة الشعر ، غيداء العنق ، عيناء العينين ، مكسَّرة البطن ، ناتئة الركب . فقال : ويحك ! وأنّى توجد هذه ؟ قال : تجدها فى خالص العرب ، أو فى خالص الفُرس .

رجل وخاطب

وقال رجل لخاطب : ابغِنى امرأة لا تؤنس جاراً ، ولا توهِن داراً ، ولا تثقب ناراً .

يريد : لا تدخل على الجيران ، ولا يدخل عليها الجيران ، ولا تغرِى بينهم بالشر .

لبعض الشعراء

وفى نحو هذا يقول الشاعر :

مِنَ الأوانِسِ مثْل الشمسِ لم يَرَها * فى ساحةِ الدارِ لا بَعْلٌ ولا جارُ

للأعشى

وقال الأعشى :

لمْ تَمشِ مِيلًا ولم تركبْ على جمَلٍ * ولا ترَى الشمسَ إلا دونَها الكِلَلُ

لبعضهم

وقال آخر :

أبغى امرأة بيضاء مديدة ، فرعاء جعدة ؛ تقوم فلا يصيب قميصها منها إلا مُشاشة منكبيها ، وحلمتى ثديها ، ورانفتى أليتها .

وقال الشاعر :

أبتِ الرّوادفُ والثُّدِىُّ لِقُمْصِها * مسَّ البُطونِ وأن تَمسَّ ظهورَا ٥

وإذا الرِّياحُ مع العشىِّ تناوَحَتْ * نَبَّهْنَ حاسدةً وهِجْن غيورا

ولآخر :

إذا انبطحَتْ فوق الأثافى رَفَعْنَها * بِثَدْيينِ فى نَحْرٍ عريضٍ وكَعْثَبِ

ابن حطان وامرأته

ونظر عمران بن حطان إلى امرأته ، وكانت من أجمل النساء وكان من أقبح الرجال ؛ فقال : إنى وإياكِ فى الجنة إن شاء الله ! قالت له : كيف ذاك ؟ قال : ١٠ إنى أعطيتُ مثلكِ فشكرتُ ، وأُعطيتِ مثلى فصبرْتِ .

من أخبار عائشة بنت طلحة

ونظر أبو هريرة إلى عائشة بنت طلحة ؛ فقال : سبحان الله ! ما أحسن ما غذاك أهلُكِ ! والله ما رأيت وجهاً أحسنَ منك ، إلا وجه معاوية على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان معاوية من أحسن الناس وجها . ١٥

ونظر ابن أبى ذئب إلى عائشة بنت طلحة تطوف بالبيت ، فقال لها : من أنت ؟ فقالت :

من اللاء لم يَحْجُجْنَ يَبْغينَ حسبةً * ولكن لِيَقْتُلْنَ البَرِىء المُغَفَّلا

فقال لها : صان الله ذلك الوجهَ عن النار ! فقيل له : أفتنتْك أبا عبد الله ؟ قال : لا ، ولكن الحسْن مرحوم . ٢٠

وقال يونس : أخبرنى محمد بن إسحاق ، قال : دخلت على عائشة بنت طلحة ، فوجدتها متكئة ولو أن بختية توخت خلفها ما ظهرت !

السرّى بن إسماعيل عن الشعبى ، قال : إنى لفى المسجد نصف النهار ، إذ سمعت

باب القصر يفتح ؛ فإذا بمصعب بن الزبير ومعه جماعة ، فقال : يا شعبي آتبعْني .
فاتبعته ؛ فأتى دار موسى بن طلحة ، فدخل مقصورة ، ثم دخل أخرى ،
ثم قال : يا شعبي اتبعْني . فاتبعته ؛ فإذا امرأة جالسة ، عليها من الحلىّ والجواهر
مالم أر مثله ، ولهِى أحسنُ من الحلى الذى عليها ؛ فقال : يا شعبىّ ، هذه ليلى التى
يقول فيها الشاعر :

وما زِلتُ من ليلى لدُن طَرَّ شاربى * إلى اليومِ أُخفِى حُبّها وأُداجِنُ
وأَحمِلُ فى ليلى لقومٍ ضغينة * وتُحمَلُ فى ليلى علىّ الضّغائن

هذه عائشة ابنةُ طلحة ، فقالت له : أما إذ جلوتَنى عليه فأحسِنْ إليه ! فقال :
يا شعبى ، رُح العشية [إلى المسجد] فرُحْتُ ، فقال : يا شعبى ، ما ينبغى لمن
جُليت عليه عائشة بنت طلحة أن ينقص عن عشرة آلاف ، فأمر لى بها !
وبكسوة ، وقارورةِ غالية ، فقيل للشعبى فى ذلك اليوم : كيف الحال ؟ قال :
وكيف حال مَن صدَر عن الأمير ببدرة ، وكسوة ، وقارورة غالية ، ورؤية وجه
عائشة بنت طلحة .

زواج عمرو بن حجر من بنت عوف

وكان عمرو بن حُجْر ملك كندة ـ وهو جد امرئ القيس ـ أراد أن يتزوج
ابنةَ عوف بن محلِّم الشيبانى ، الذى يقال فيه : « لاحُرّ بوادى عوف » لإفراط
عزه ، وهى أم إياس ، وكانت ذات جمال وكمال ؛ فوجه إليها امرأة يقال لها عصام ،
لتنظر إليها وتمتحن ما بلغه عنها ؛ فدخلت على أمها أمامة ابنة الحرث ، فأعلمتْها
ما قدِمت له ، فأرسلت إلى ابنتها [فقالت] : أى بنية ، هذه خالتك أتتْ إليكِ
لتنظرَ إلى بعضِ شأنِك ؛ فلا تسترى عنها شيئاً أرادت النظر إليه ، من وجه وخلق ،
وناطِقيها فيما استنطقتك فيه . فدخلت عصام عليها ، فنظرت إلى ما لم تر عينُها مثلَه
قطّ ، بهجةً وحسنا وجمالا ، وإذا هى أكمل الناس عقلا ، وأفصحهم لساناً ؛ فخرجتْ
من عندها وهى تقول : « ترك الخداعَ مَن كشف القِناع » . فذهبت مثلا ، ثم أقبلت
إلى الحرث ، فقال لها : « ما وراءكِ يا عصامُ » ؟ فأرسلها مثلا . قالت : « صرّح
المحضُ عن الزبد » ، فذهبت مثلا . قال : أخبرينى . قالت : أخبرك صدقا وحقا :

رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة ، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل المضفورة ، إن أرسلته خِلْتَه السلاسل ، وإن مَشَطْتَه قلت عناقيد كرْم جلاها الوابل ، ومع ذلك حاجبان كأنهما خُطّا بقلم ، أو سُوِّدا بحُمَم ، قد تقوسا على مثل عين العبْهرة التى لم يَرُعْها قانص ولم يُذْعِرها قسورة ، بينهما أنف كحدّ السيف المصقول ، لم يخِلْس به قصر ، ولم يُمعن به طول ، حفَّت به وجنتـان كالأرجُوان ، فى بياض محض كالجمان ، شق فيه فم كالخاتم ، لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غُرّ ، ذوات أشر ، وأسـنان تبدوا كالدر ، وريق كالخمر ، له نشر الروض بالسحَر ، يتقلب فيه لسـان ذو فصاحة وبيان ، يقلّبه به عقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقى دونه شـفتان حمراوان كالورد ، يجلبان ريقاً كالشهد ، تحت ذلك عنق كإبريق الفضة ، رُكِّب فى صدر تمثال دمية يتصل به عضدان ممتلئان لحما ، مكتنزان شحما ، وذراعان ليس فيهما عظمٌ يُحَس ، ولا عِرق يجس ، رُكِّبَتْ فيهما كفان دقيق قصَبُهُما ، ليِّنٌ عصَبُهما ، تعقد إن شئت منهما الأنامل ، وتركّب الفصوص فى حُفَر المفاصل ، وقد تربع فى صـدرها حُقّان كأنهما رمانتان ، [يَخْرِقان عليها ثيابَها] ، من تحته بطن طُوى كطىّ القباطىّ المدمجة ، كسى عُكنا كالقراطيس المدْرجة ، تحيط تلك العكَن بسرّة كمدهن العاج المجلوّ ، خلف ذلك ظهر كالجدول ينتهى إلى خصر لولا رحمة الله لانخزل ، تحته كفَل يقعدها إذا نهضت ، ويُنهضها إذا قعدت ، كأنه دِعصُ رمل ، لبّده سقوط الطل ، يحمله فخذان لفاوان ، كأنهما نضيد الجمان ، تحملهما ساقان خدَلّجتان كالبَردى وُشِّيتا بشعر أسود ، كأنه حلق الزرد ، ويحمل ذلك قدمان كحذْو اللسان ، تبارك الله ، مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما ، فأما ما سوى ذلك فتركت أن أصفه غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنظم أو نثر .

قال : فأرسل إلى أبيها يخطبها ، فكان من أمرهما ما تقدّم ذكره فى صدر هذا الكتاب .

صفة المرأة السوء

للنبي صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إياكم وخضراء الدِّمَن». يريد الجارية الحسناء فى المَنْبِت السوء.

لداود عليه السلام

وفى حكمة داود : «المرأةُ السوء مثلُ شركِ الصياد ، لا ينجو منها إلا من ٥ رضى الله عنه».

لعمر بن الخطاب

الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء قال : قال عمر بن الخطاب : النساء ثلاثة : هينة عفيفة مسلمة ، تعين أهلَها على العيش ولا تعين العيش على أهلها . وأخرى وعاء للولد . وثالثة غُل قَمِل يلقيه الله فى عنق من يشاء من عباده .

لأعرابى

وقيل لأعرابى عالم بالنساء : صف لنا شر النساء . قال شرُّهن النحيفة الجسم ١٠ القليلة اللحم ، الطويلة السقم ، الحياض الممراض الصفراء ، المشئومة العسراء ، السليطة الذفراء ، السريعة الوثبة ، كأن لسانها حربة ، تضحك من غير عجب ، وتقول الكذب ، وتدعو على زوجها بالحرب ، أنف فى السماء ، وآستٌ فى الماء .

للخشنى

وفى رواية محمد بن عبد السلام الخشنى قال : إياك وكل امرأة مذكَّرة منكرة ، حديدة العرقوب ، بادية الظُّنبوب ، منتفخة الوريد ، كلامها وعيد ، ١٥ وصوتها شديد ؛ تدفن الحسنات ، وتفشى السيئات ؛ تعين الزمان على بعلها ، ولا تعين بعلها على الزمان ؛ ليس فى قلبها له رأفة ، ولا عليها منه مخافة ؛ إن دخل خرجت ، وإن خرج دخلت ، وإن ضحك بكت ، وإن بكى ضحكت ؛ وإن طلقها كانت حرفتَه ، وإن أمسكها كانت مصيبتَه ؛ سفعاء ورهاء ، كثيرة الدعاء ، قليلة الإرعاء ، تأكل لَمًّا ، وتوسع ذما ؛ صخوب غضوب ، بذيّة دنية ؛ ٢٠ ليس تَطفأ نارُها ، ولا يهدأ إعصارها ؛ ضيقة الباع ، مهتوكة القناع ، صبيها مهزول ؛ وبيتها مزبول ، إذا حدثت تشير بالأصابع ، وتبكى فى المجامع ، بادية من حجابها ، نباحة على بابها ، تبكى وهى ظالمة ، وتشهد وهى غائبة ، قد دُلّىَ لسانها بالزور ، وسال دمعُها بالفجور .

ابن قتيبة بين امرأة وزوجها

نافرت امرأةُ فضالة زوجَها إلى مسلم بن قتيبة، وهو والى خراسان فقالت: أُبغضه والله لخلالٍ فيه. قال: وما هى؟ قالت: قليلُ الغَيْر، سريع الطيرة، شديد العتاب، كثير الحساب، قد أقبل بخَرُه، وأدبر ذفرُه، وهجمت عيناه، واضطربت رجلاه، يفيق سريعا، وينطق رجيعا، يصبح حلسا، ويمسى رجسا، إن جاع جزع، وإن شبع جشع.

فى المرأة السوء

ومن صفة المرأة السوء يقال: امرأة سِمْعَنَّةٌ نِظْرَنَّة؛ وهى التى إذا تسمّعت أو تبصّرت فلم تر شيئاً تظنّته تظنّيا.

شعر لبعض الأعراب

قال أعرابى:

إنّ لنا لكَنَّهْ ٭ سِمْعَنَّةً نِظْرَنَّهْ
مِعَنَّةً مِفَنَّهْ ٭ كالرِّيح حول القُنَّهْ[1]
إلّا تَرَهْ تظنَّهْ

لابن هبيرة

وقال يزيد بن عمر بن هبيرة: لا تنكحنّ برشاء، ولا عمشاء، ولا وقصاء، ولا لثغاء؛ فيجيئك ولدٌ ألثغ؛ فوالله لَولد أعمى أحبُّ إلىّ من ولد ألثغ.

لبعضهم

وقال: آخِر عُمرِ الرجل خيرٌ من أوله؛ يثوب حلمه، وتثقل حصاتُه، وتُحمَد سريرته، وتكمُل تجاربه، وآخر عُمُرِ المرأة شر من أوله؛ يذهب جمالها، ويذرب لسانها، وتعقُم رحمها، ويسوء خُلقها.

لجعفر بن محمد

وعن جعفر بن محمد عليهما السلام: إذا قال لك أحد: تزوجت نَصَفا؛ فاعلم أن شر النصفين ما بقى فى يده؛ وأنشد:

وإن أتوك وقالوا إنها نَصَفٌ ٭ فإنّ أطيَبَ نصفيْها الذى ذَهَبا

الحطيئة

وقال الحطيئة فى امرأته:

أطوِّفُ ما أطوِّفُ ثم آوِى ٭ إلى بيْتٍ قعيدته لَكاعِ

---

(١) فى بعض الأصول: «كالذئب وسط العنة».

وقال فى أمّه :

تَنَحَّىْ فاجلِسى مِنِّى بعيداً * أراحَ الله منكِ العالَمِينا
أغِرْبالاً إذا استُودِعتِ سِرًّا * وكانوناً على المُتحدِّثينا
حياتُكِ ما علمتُ حياةُ سوءٍ * وموتُكِ قد يسُرُّ الصالحينا

لابن عمير

٥ وقال زيد بن عمير فى أمته :

أُعاتبُها حتى إذا قلتُ أقلَعَتْ * أبَى اللهُ إلّا خِزْيَها فتعودُ
فإن طَمِثَتْ قادتْ وإن طَهُرت زنتْ * فهى أبداً يُزْنَى بها وتقودُ

علامة الحب والبغض

ويقال : إن المرأة إذا كانت مُبْغِضة لزوجها ، فعلامة ذلك أن تكون عند قربه منها مرتدة الطرف عنه ، كأنها تنظر إلى إنسان غيره ؛ وإذا كانت مُحبة له ،
١٠ لا تقلع عن النظر إليه .

لبعض الشعراء

وقال آخر يصف امرأة لثغاء :

أوّلُ ما أسمعُ منها فى السَّحَرْ * تذكيرُها الأنثى وتأنيثُ الذكَرْ
* والسَّوْءةُ السوءاء فى ذِكرِ القمرْ *

لآخر فى زوجته

ولآخر فى زوجته :

١٥ لقد كنتُ محتاجاً إلى موتِ زوجتى * ولكن قرينُ السُّوءِ باقٍ مُعَمَّرُ
فياليتَها صارتْ إلى القبْرِ عاجلا * وعذَّبها فيه نكيرٌ ومُنكَرُ

عبد الملك وابن زنباع

كان روح بن زنباع أثيراً عند عبد الملك ، فقال له يوما : أرأيت امرأتى العبشمية ؟ قال : نعم . قال : بماذا شبهتَها ؟ قال : بمشجب بال قد أسىء صُنْعُه . قال : صدقت ، وما وضعتُ يدى عليها قط إلا كأنى وضعتها على الشُّكاعى ، وأنا
٢٠ أحب أن تقول ذلك إلى ابنيها الوليد وسليمان ! فقام إليه فزعا فقبل يده ورجله ، وقال : أنشُدك الله يا أمير المؤمنين ، أن لا تعرِّضنى لهما ! قال : ما من ذلك بُدٌّ ! وبعث من يدعوهما ؛ فاعتزل روح وجلس ناحية من البيت ؛ فقال لهما [عبد الملك] : أتدريان لم بعثت إليكما ؟ إنما بعثت لتعرفا لهذا الشيخ حقّه

وحُرمته ! ثم سكت .

ابن زنباع وزوجه

أبو الحسن المدائنى : كان عند روح بن زنباع ، هند بنت النعمان بن بشير ، وكان شديد الغَيْرة ، فأشرفت يوما تنظر إلى وفد جذام [إذْ] كانوا عنده ، فزجرها ؛ فقالت : والله إنى لأبغض الحلال من جذام ؛ فكيف تخافنى على الحرام فيهم . ٥

وقالت له يوما : عجبا منك ! كيف يسودك قومك ؛ وفيك ثلاث خلال : أنت من جذام . وأنت جبان . وأنت غيور ؟ فقال لها : أما جذام فإنى فى أرومتها ، وحسبُ الرجل أن يكون فى أرومة قومِه ؛ وأما الجبن فإنى مالى إلا نفسٌ واحدة ، فأنا أحوطها ؛ فلو كانت لى نفس أخرى جدت بها ؛ وأما الغَيْرة فأمر لا أريد أن أُشارك فيه ، وحقيق بالغيرة من كانت عنده حمقاء مثلك ، مخافة أن تأتيَه بولد من غيره فتقذفه فى حِجره ! فقالت : ١٠

وهل هِنْــدُ إلّا مُهْرَةٌ عربيّةٌ * سليلَة أفراسٍ تجلَّلها بغــلُ

فإن أنجبت مُهْرا عريقاً فبالحَرَى * وإن يَكُ إقرافٌ فما أنجب الفحْلُ

رجل وامرأة تخطب له

وعن الأصمعى قال : قال أبو موسى : جاءت آمرأة إلى رجل تدله على امرأة يتزوجها ، فقال : ١٥

أقولُ لهَا لمّا أتتْنِى تَدُلّنى * على آمرأة موْصُوفةٍ بجمالِ

أصبتِ لها والله زوْجاً كما آشتهت * إنِ آحتمَلت منه ثلاث خِصال

فمنهُنّ عجْزٌ لا يُنادِى وليدَهُ * ورِقّةُ إســلامٍ وقلّةُ مالِ

صفة الحسن

المدائنى

عن أبى الحسن المدائنى قال : الُحسْنُ أحمرُ ، وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث فى الكن والتضمُّخ بالطيب ، كما تضرب بيضة الأدحىّ واللؤلؤة المكنونة ؛ وقد شبه الله عز وجل فى كتابه فقال : ﴿ كأنهن بيْضٌ مكنونٌ ﴾ . ٢٠

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

كأنّ بيْضَ نعام فى ملاحِفِها * إذا اجتلاهنّ قَيْظٌ ليلُه ومِدُ

لآخر

وقال آخر :

مَروزىٌّ الأديمِ تغمُرُه الصُّفْ * رةُ حيناً لا يستحق آصفِرارا

٥ وجَرى من دَمِ الطبيعةِ فيه * لونُ ورد كَسَا البياضَ آحمِرارا

ابن صفوان وامرأة

وقالت امرأة خالد بن صفوان له : لقد أصبحت جميلا ! فقال لها : وما رأيت من جمالى ، وما فىّ رداء الحُسن ولا عمودُه ولا بُرنُسه ؟ قلت : وكيف ذلك ؟ قال : عمود الحُسن الشَّطاط ، ورداؤُه البياض ، وبرنُسه سواد الشعر .

لبعضهم

١٠ وقالوا : إن الوجه الرقيق البشرة الصافى الأديم ، إذا خجل يحمرّ وإذا فرِق يصفر .

ومنه قولهم : ديباج الوجه ؛ يريدون تلوُّنَهُ .

لعدى بن زيد

وقال عدىّ بن زيد يصف لونَ الوجه :

حُمْرَةٌ خلطَت صُفرة فى بياض * مثل ما حاكَ حائكٌ ديباجا

لبعضهم

١٥ وقالوا : إن الجارية الحسناء تتلون بلون الشمس ، فهى بالضحى بيضاء ، وبالعشى صفراء .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

بيضاء ضَحْوتُها وصفْ * راء العشِيّة كالعرارَهْ

لذى الرمة

وقال ذو الرمة :

٢٠ بيضاء صفراء قد تنازَعها * لونانِ من فضةٍ ومن ذهبِ

لابن عبد ربه

ومن قولنا :

بيضاء يحمرُّ خدّاها إذا خَجِلَتْ * كما جرَى ذهبٌ فى صفحتىْ ورِقِ

ومن قولنا :

ما إن رأيت ولا سمِعْت بمثْلِه * دُرًّا يعودُ من الحياء عقيقا

ومن قولنا :

كم شادِنٍ لطفَ الحياء بوجْهه * فأصارَهُ وردْاً على وجناته

ومن قولنا :

عقائلُ كالآرامِ أما وُجُوهُها * فَدُرٌ ولكن الُخدودَ عقيقُ

٥

ومن قولهم فى الجارية

لبعضهم جميلة من بعيد ، مليحة من قريب ؛ فالجميلة التى تأخذ بصرك جملة على بُعد ، فإذا دنت لم تكن كذلك ؛ والمليحة التى كلما كررت فيها بصرك زادتك حُسنا .

وقال بعضهم : الجميلة السمينة ، مِن الجميل ، وهو الشحم ، والمليحة أيضا من المَلحة ، وهو البياض ، والصبيحة مثل ذلك ، يشبهونها بالصبح فى بياضه .

١٠

المنجبات من النساء

قالوا : أنجبُ النساء الفَرُوك ، وذلك أن الرجل يغلبها على الشبق ، لزهدها فى الرجل .

للأصمعى أبو حاتم عن الأصمعى قال : النجيبة التى تنزع بالولد إلى أكرم العرْقين .

لعمر وقال عمر بن الخطاب : يا بنى السائب ، إنكم قد أضويتم ، فانكحوا فى النزائع .

١٥

وللعرب وقالت العرب : بنات العمّ أصبر ، والغرائب أنجب .

والعرب تقول : اغتربوا لا تُضووا : أى انكحوا فى الغرائب ، فإن القرائب يُضوين البنين .

وقالوا : إذا أردت أن يصلب ولدُ المرأة فأغضبها ثم قعْ عليها ؛ وكذلك الفزِعة .

٢٠

لبعض الشعراء وقال الشاعر :

ممنْ حملْن به وهُنّ عواقدٌ * حُبُكُ النّطاق فشبّ غير مُهَبّل

حَملت به في ليلةٍ مَزْءُودَةٍ ٭ كُرهاً وعقْدُ نطاقها لم يُحللِ

لأم تأبط شرا

قالت أم تأبط شرا : والله ما حملتُه تَضعا ولا وُضعا ، ولا وضعته يَتْنا ، ولا أرضعتُه غَيلا ، ولا أبتُّه مَئِقا .

حَملْته وُضعا وتُضْعا : وهي أن تحمله في مُقبلِ الحيض . ووضعتُه يتنا : وضعته منكسا ، تخرج رجلاه قبلَ رأسه . وأرضعتُه غيلا : أرضعته لبنا فاسداً ، وذلك ٥ أن ترضعه وهي حامل . وأبتّه مئقا . أي مغضبا مغتاظا .

ومن أمثال العرب قولهم : أنا مَئِقٌ وأنتَ نَئِق ، فلا نتفق .

المئق : المغضب المغتاظ . والنئق : الذي لا يحتمل شيئا .

من أخبار النساء

لابن أبي ربيعة في مقتل زوجة المختار

١٠ لما قتل مصعب بن الزبير ابنةَ النعمان بن بشير الأنصارية ، زوجة المختار ابن أبي عبيد ، أنكر الناسُ ذلك عليه وأعظموه ؛ لأنه أتى بما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه في نساء المشركين ؛ فقال عمر بن أبي ربيعة :

إنّ مِن أعظَم الكبائرِ عندِي ٭ قتلَ حَسناء غادةٍ عُطبُولِ

قُتِلت باطلا على غيرِ ذنبٍ ٭ إنّ لله دَرّها من قَتيل

١٥ كُتِبَ القتلُ والقِتالُ علينا ٭ وعلى الغانياتِ جَرُّ الذيولِ

الخوارج وامرأة أرادوا قتلها

ولما خرجت الخوارج بالأهواز ، أخذوا امرأة فهمّوا بقتلها ؛ فقالت لهم : أتقتلون من يُنَشّأُ في الحلية وهو في الخصام غيرُ مبين . فأمسكوا عنها .

باب الطلاق

للأصمعي

محمد بن الغاز قال : حدثني عبد الرحمن بن محمد ابن أخي الأصمعي قال : سمعت ٢٠ عمي يقول : توصّلت بالمُلَح ، وأدركت بالغريب .

الرشيد والأصمعي

وقال عمي للرشيد في بعض حديثه : بلغني يا أمير المؤمنين أن رجلا من العرب طلق في يوم خمسَ نسوة ! قال إنما يجوز ملك الرجل على أربع نسوة ؛

فكيف طلق خمسا ؟ قال : كان لرجل أربع نسوة ، فدخل عليهن يوما فوجدهن متلاحيات متنازعات — وكان شِنْظيرا ،[1] فقال : إلى متى هذا التنازع ؟ ما إخال هذا الأمر إلا من قِبلك — يقول ذلك لامرأة منهن — اذهبي فأنت طالق ! فقالت له صاحبتها : عجلت عليها بالطلاق ، ولو أدبتها بغير ذلك لكنت حقيقا ! فقال لها : وأنت أيضا طالق ! فقالت له الثالثة : قبحك الله ! فوالله لقد كانتا إليك محسنتين ، وعليك مُفضلتين ! فقال : وأنت أيتها المعددةُ أياديَهما طالق أيضا ! فقالت له الرابعة ، وكانت هلالية وفيها أناة شديدة : ضاق صدرُك عن أن تؤدب نساءك إلا بالطلاق ! فقال لها : وأنت طالق أيضا ! وكان ذلك بمسمع جارة له ، فأشرفت عليه وقد سمعت كلامه ، فقالت : والله ما شهدَت العرب عليك وعلى قومك بالضعف إلا لما بَلَوْهُ منكم ووجدوه فيكم ، أبيتَ إلا طلاق نسائك في ساعة واحدة ! قال : وأنت أيضاً أيتها المؤنِّبة المتكلفة طالق ، إن أجاز زوجُكِ ! فأجابه من داخل بيته : قد أجزت ! قد أجزتُ .

المغيرة وزوجته فارعة

ودخل المغيرة بن شعبة على زوجته فارعة الثقفية وهي تتخلل حين انفتلت من صلاة الغداة ؛ فقال لها : لئن كنت تتخللين من طعامك اليوم إنكِ لجشعة ، وإن كنت تتخللين من طعام البارحة إنك لشبعة ، كنتِ فبنتِ ، فقالت : والله ما اغتبطنا إذ كنا ، ولا أسِفنا إذ بِنَّا ، وما هو لِشيء مما ذكرت ، ولكني آستكت فتخللت للسواك ؛ فخرج المغيرة نادما على ما كان منه ، فلقِيه يوسف بن أبي عقيل فقال له : إني نزلت الآن عن سيدة نساء ثقيف : فتزوجها فإنها ستنجب ؛ فتزوجها فولدت له الحجاج .

الحسن وعائشة بنت طلحة

وقال الحسن بن علي بن حسين لامرأته عائشة بنت طلحة : أمرُكِ بيدك ! فقالت : قد كان عشرين سنة بيدك فأحسنت حفظه ، فلم أضيعه إذ صار بيدي ساعة واحدة ؛ وقد صرفته إليك ! فأعجبه ذلك منها وأمسكها .

---

(١) الشنظير . الفحاش .

لرجل فى طلاق امرأته

وقال أبو عبيدة : طلق رجل امرأته وقال :

لقد طلَّقْتُ أُختَ بنى غِلابٍ * طلاقاً ما أظنُّ له آرتدادا

ولم أكُ كالمُعدّلِ أو أُوَيْسٍ * إذا ماطلقـــا نَدِما فَعَادا

قال أبو عبيدة : وطلاق المعدّل وأويس يضرب به المثل .

لآخر فى مثله

٥ ونكح رجل امرأة من عدِىّ ، فلما اهتداها رأت رَبعَ داره أحسنَ ربع ، وشملَ عياله أجمعَ شمل ؛ فقالت : أما والله لئن بقيت لهم لأشتِّتن أمرهم ! وقالت فى ذلك :

أرى ناراً سأجعلُها إرِينا * وأتركُ أهْلَها شتّى عِزِينا

فلما انتهى ذلك إلى زوجها طلقها ، وقال فى ذلك :

١٠ ألا قالت هَدِىُّ بنى عدِىّ * أرى ناراً سأجعلُها إرِينا

فبِينى قبلَ أن تَلحىْ عَصانا * ويُصبحَ أهلُنا شتى عِزِينا

لابن عباس

وقيل لابن عباس : ما تقول فى رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء ؟ فقال : يكفيه من ذلك عددُ كواكب الجوزاء !

لأعرابى

وقيل لأعرابى : هل لك فى النكاح ؟ قال : لو قدرتُ أن أطَلِّقَ نفسى لطلقتها .

١٥ وعن الزهرى قال : قال أبو الدرداء لامرأته : إذا رأيتِنى غضبتُ فترَضَّيْنى ، وإن رأيتك غضبت ترضّيتك ، وإلا لم نصطحب ! قال الزهرى : وهكذا تكون الإخوان .

الأصمعى وأعرابى طلق امرأته أمامة

قال الأصمعى : كنت أختلف إلى أعرابى أقتبس منه الغريب ، فكنت إذا استأذنت عليه يقول : يا أمامة ائذنى له . فتقول : ادخل . فاستأذنت عليه مراراً فلم أسمعه يذكر أمامة ؛ فقلت : يرحمك الله ، ما أسمعك تذكر أمامة ؛ قال : فوجم

٢٠ وجمة ، فندمت على ماكان منى ، ثم أنشأ يقول :

ظعَنت أُمامةُ بالطلاق * ونَجوتُ من غُلِّ الوثاقِ

بانت فـــلم يَألم لهـا * قلبى ولم تَبكِ المآقى

لو لم يُرِحْ بطلاقِها * لأرَحتُ نفسى بالإباقِ
ودواءُ ما لا تَشتَهِيـ * ـهِ النفسُ تعجيلُ الفِراق
والعيشُ ليسَ يَطيبُ من * إلفينِ من غيرِ اتّفاق

لأبى موسى فى طلاق امرأته

وعن الشيبانى قال : طلق أبو موسى امرأته وقال فيها :

تجهّزى للطلاقِ وارتَحِلى * فذا دواءُ المجانبِ الشرسِ
ما أنتِ بالحبّةِ الوَلُودِ ولا * عِندَكِ نفعٌ يُرجَى لِمُلتَمِسِ
لَلَيلَتِى حينَ بِنتِ طالقةً * ألذُّ عِندى من ليلةِ العُرسِ
بِتُّ لديها بِشرِّ مَنزِلةٍ * لا أنا فى لذّةٍ ولا أنسِ
تلكَ على الخسفِ لا نظيرَ لها * وإننى ما يَسوغُ لى نَفسى

ابن زبان والزبير

أقبل منظور بن زَبّان بن سيار الفزارى إلى الزبير فقال : إنما زوجناك ولم نزوج عبد الله ! قال : مالهُ ؟ قال : إنها تشكوه . قال : يا عبدَ الله طلّقها ! قال عبد الله : هى طالق ! قال ابن منظور : أنا ابن قهدم[1] . قال الزبير : أنا ابنُ صفية أتريد أن يطلق المنذر أختها ؟ قال : لا ، تلك راضية بموضعها .

خديجة بين محمد وإبراهيم

وتزوج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان خديجة بنت عروة ابن الزبير ، فذُكر لها جماله — وكان يقال له المذهب من حسنه ، وكان رجلا مطلاقاً — فقالت : محمدٌ هو الدنيا لا يدوم نعيمها . فلما طلقها خطبها إبراهيم ابن هشام بن إسماعيل المخزومى ؛ فكتب إليها :

أُعيذُكِ بالرحمنِ من عيشِ شِقْوةٍ * وأن تطمَعى يوما إلى غيرِ مَطْمَعِ
إذا ما ابنُ مظعون تحدّر وسْقُه * عليكِ فبُوئى بعد ذلك أو دَعى

فردّته ولم تتزوجه .

الحجاج وزواجه بابنة جعفر

وعن العتبى عن أبيه قال : أمهر الحجاج ابنة عبد الله بن جعفر تسعين ألف دينار فبلغ ذلك خالد بن يزيد بن معاوية ، فأمهل عبد الملك ، حتى إذا أطبق الليل

---

(١) فى الأغانى : « قهطم » .

دق عليه الباب ؛ فأذن له عبد الملك ، ودخل عليه فقال له : ما هذا الطروق أبا يزيد ؟ قال : أمرٌ والله لم يُنتظر له الصبح ، هل علمتَ أن أحداً كان بينه وبين مَن عادَى ما كان بين آل أبى سفيان وآل الزبير بن العوام ؟ فإنى تزوجت إليهم ، فما فى الأرض قبيلة من قريش أحبُّ إلىّ منهم ؛ فكيف تركتَ الحجاج وهو سهم ٥ من سهامك يتزوج إلى بنى هاشم ، وقد علمتَ ما يقال فيهم فى آخر الزمان ؟ قال : وصلتْك رحِم .

وكتب إلى الحجاج يأمره بطلاقها وألا يراجعه فى ذلك . فطلقها . فأتاه الناس يعزونه ، وفيهم عمرو بن عتبة ؛ فجعل الحجاج يقع بخالد وينقّصه ، ويقول : إنه صيّر الأمرَ إلى من هو أولى به منه ، وإنه لم يكن لذلك أهلا !

١٠ فقال له عمرو بن عتبة : إن خالداً أدرك مَن قبله ، وأتعب مَن بعده ، وعلم علما فسلَّم الأمر إلى أهله ، ولو طلب بقديم لم يُغْلب عليه ، أو بحديث لم يُسْبَقْ إليه .

فلما سمعه الحجاج استحى ، فقال : يا بن عتبة ، إنا نسترضيكم بأن نعتب عليكم ، ونستعطفكم بأن ننال منكم ؛ وقد غَلبتم على الحلم فوثقنا لكم به ، وعلمنا أنكم تحبون ١٥ أن تحلموا فتعرّضنا للذى تحبون .

من طلق امرأته ثم تبعتها نفسه

بين العريان وبنت عم له

الهيثم بن عدى قال : كانت تحت العريان بن الأسود بنتُ عمٍّ له ، فطلّقها ، فتبعتْها نفسه ؛ فكتب إليها يعرّض لها بالرجوع ؛ فكتبت إليه :

إنْ كنتَ ذا حاجةٍ فاطلُبْ لها بدلا * إنّ الغزالَ الذى ضَيَّعْتَ مشغولُ

٢٠ فكتب إليها :

مَنْ كان ذا شُغُل فاللهُ يَكْلَؤُهُ * وقد لهوْنا به والحبلُ موصولُ

وقد قضيْنا مَنَ اسْتِطْرافِه طرَفاً * وفى الليالى وفى أيّامِها طولُ

وطلق الوليد بن يزيد امرأته سعدى ، فلما تزوجت اشتد ذلك عليه ، وندم

الوليد وزوجته سعدى

على ما كان منـه ؛ فدخل عليه أشعب ، فقال له : أبلـغ سعدى عنى رسالة ، ولك منى خمسة آلاف درهم ! فقال : عجِّلها ! فأمر له بها ؛ فلما قبضها قال : هات رسالتك . فأنشده :

أَسُعْدَى ما إليكِ لنا سبيلُ * ولا حتى القِيامةَ مِن تلاقِ ؟

بلى ، ولعل دهْراً أن يُوَاتى * بموْتٍ من حَليلِكِ أو فِراقِ ٥

فأتاها فاستأذن ، فدخل عليها . فقالت له : ما بدا لك فى زيارتنا يا أشعب ؟ فقال : ياسيدتى ، أرسلنى إليك الوليد برسالة . وأنشدها الشعر ؛ فقالت لجواريها : خُذْنَ هذا الخبيث ! فقال : يا سيدتى ، إنه جعل لى خمسةَ آلاف درهم ! قالت : والله لأعاقبنك أو لتُبلغن إليه ما أقول لك . قال : سيدتى ، اجعلى لى شيئاً . قالت : لك بساطى هذا . قال : قومى عنه ! فقامت عنه وألقاه على ظهره ، وقال : هاتى ١٠ رسالتك . فقالت : أنشده

أتبكى على سُعْدَى وأنت تركتَها * فقد ذهبتْ سُعْدَى فما أنت صانعُ

فلما بلغه وأنشده الشعر ، سُقط فى يده وأخذته كظمة ، ثم سُرِّىَ عنه ، فقال : اختر واحدة من ثلاث : إما أن نقتلك ، وإما أن نطرحك من هـذا القصر ، وإما أن نلقيَك إلى هذه السِّباع ! فتحير أشعب وأطرق حيناً ؛ ثم رفع رأسه فقال : ١٥ يا سيدى ، ما كنت لتعذِّبَ عينين نظرتا إلى سعدى ! فتبسم وخلى سبيله .

ابن أبى بكر وامرأته

ومن طلق امرأته فتبعتها نفسه ، عبـد الرحمن بن أبى بـكر : أمره أبوه بطلاقها ، ثم دخل عليه فسمعه يتمثل :

فلم أر مثْلِى طلَّقَ اليومَ مثلَها * ولا مثلَها فى غيْرِ شىء تُطلَّقُ

فأمره بمراجعتها . ٢٠

الفرزدق ونوار

ومن طلق امرأته فتبعتها نفسه ، الفرزدق الشاعر : طلق النَّوار ، ثم ندم فى طلاقها وقال :

نَدِمْتُ ندامةَ الـكُسَعِىِّ لَمَّا * غَـدَتْ منِّى مُطلَّقةً نَوارُ

وكانت جنّتى فخَرَجْت منها * كآدمَ حين أخرجَه الضِّرارُ

فأصبحتُ الغَداةَ ألومُ نفْسى * بأمرٍ ليس لى فيه خِيـار

من أخبار النوار

وكانت النوار بنت عبد الله قد خطبها رجل رضيته ، وكان وليُّها غائبا ، وكان الفرزدق وليّها إلا أنه كان أبعد من الغائب ؛ فجعلت أمرها إلى الفرزدق ، وأشهدت

٥ له بالتفويض إليه ؛ فلما توثّق منها بالشهود ، أشهدهم أنه قد زوّجها من نفسه ! فأبت منه ونافرته إلى عبد الله بن الزبير ؛ فنزل الفرزدق على حمزة بن عبد الله [ابن الزبير] ، ونزلت النوار على زوجة عبد الله بن الزبير ، وهى بنت منظور ابن زبّان ؛ فكان كل ما أصلح حمزة من شأن الفرزدق نهاراً أفسدته المرأة ليلا ؛ حتى غلبت المرأة وقضى ابن الزبير على الفرزدق ؛ فقال :

١٠ أمّا البنونَ فلم تقْبل شفاعتهم * وشُفِّعَتْ بنت منْظورِ بن زَبّانا

ليس الشّفيعُ الذى يأتيك مُؤْتزِراً * مثل الشفيع الذى يأتيك عُريانا

وقال الفرزدق فى مجلس ابن الزبير :

وما خاصَمَ الأقوامَ من ذى خُصومةٍ * كوَرْهاء مَدنُوٍ إليها خليلُها

فدونَكَها يابن الزبير فإنها * مُلعَّنةٌ يُوهى الحِجارة قيلُها

١٥ فقال ابن الزبير : إن هذا شاعر ، وسيهجونى ؛ فإن شئت ضربت عنقه وإن كرهت ذلك ؛ فاختارى نكاحه وقَرِّى . فقرّت واختارت نكاحه ، ومكثت عنده زمانا ، ثم طلقها وندم فى طلاقها .

وعن الأصمعى عن المعتمر بن سليمان عن أبى مخزوم عن راوية الفرزدق ، قال : قال لى الفرزدق يوما : امض بنا إلى حلقة الحسن ، فإنى أريد أن أطلق

٢٠ النوار ! فقلت له : إنى أخاف أن تتبعها نفسُك ، ويشهد عليك الحسن وأصحابه . قال : انهض بنا . فجئنا حتى وقفنا على الحسن ، فقال [الفرزدق] : كيف أصبحت أبا سعيد ؟ قال : بخير ، كيف أصبحت يا أبا فراس ؟ فقال : تعلَمُنّ أنى طلقت النوار ثلاثا ! قال الحسن وأصحابه : قد سمعنا فانطلقنا ، فقال لى الفرزدق :

ياهذا، إن فى نفسى من النوار شيئاً! فقلت: حذرتك! فقال:

ندمتُ ندامةَ الكُسَعِىِّ لمَّا * غــدتْ منى مُطلَّقةً نَوارُ

وكانت جَنَّتى فخرجتُ منها * كآدم حين أخرجَه الضِّرار

ولو أنى مَلَكتُ بها يمينى * لكانَ علىَّ للقَدَر الخِيار

قيس بن ذريح وطلاق امرأته

ومن طلق امرأته وتبعتْها نفسُه، قيس بن الذريح؛ وكان أبوه أمره بطلاقها فطلقها وندم؛ فقال فى ذلك: ٥

فوا كَبِدى على تسريح لُبْنَى * فكان فِراق لُبْنى كالخِداع

تكنَّفَنى الوُشاةُ فأزعجونى * فيا للنـاس للواشى المطاع

فأصبحتُ الغداةَ ألومُ نفْسى * على أمرٍ وليس بمستطاع

كمغبونٍ يعَضُّ على يديه * تبيَّن غَبْنَهُ بعــد البَياع ١٠

لرجل فى مثله

وطلق رجل امرأته، فقالت: أبعْدَ صحبة خمسين سنة؟ فقال: مالك عندنا ذنبٌ غيره!

ابن أم الحكم بين رجل وامرأته

العتبى قال: جاء رجل بامرأة كأنها بُرْج فضة، إلى عبد الرحمن بن أم الحكم وهو على الكوفة، فقال: إن امرأتى هذه شجَّتْنى! فقال لها: أنتِ فعلت به؟ قالت: نعم، غير متعمِّدة لذلك؛ كنت أعالج طيبا، فوقع الفهر من يدى على رأسه؛ وليس عندى عقل، ولا تقوى يدى على القصاص! فقال عبد الرحمن للرجل: ياهذا، علام تحبسها وقد فعلت بك ما أرى؟ قال: أصدقْتها أربعة آلاف درهم، ولا تطيب نفسى بفراقها! قال: فإن أعطيتُها لك أتفارقها؟ قال: نعم. قال: فهى لك. قال: هى طالق إذاً! فقال عبد الرحمن: احبسى علينا نفسَك. ثم أنشأ يقول: ١٥ ٢٠

ياشيْخُ ويحكَ مَن دلَّاك بالغَزَل * قد كنت ياشيْخُ عن هذا بمعتزَلِ

رُضْتَ الصِّعابَ فلم تُحسِن رياضتَها * فاعمِدْ لنفسِك نحو الجِلَّةِ الذُّلُل

فى مكر النساء وغدرهن

لداود عليه السلام

فى حكمة داود عليه السلام : وجدت من الرجال واحداً فى ألف ، ولم أجد واحدة فى النساء جميعا .

الغسانى والكندى وهند

وقال الهيثم بن عدى : غزا الغسانىُّ الحارث بن عمرو آكل المرار الكندى ، فلم يصبه فى منزله ، فأخذ ما وجد له واستاق امرأته ؛ فلما أصابها أُعجبت به ، فقالت له : آنجُ ، فوالله لكأنى أنظر إليه يتبعك فاغرا فاه كأنه بعيرٌ آكل مُرار ! وبلغ الحارث ، فأقبل يتبعه حتى لحقه فقتله ، وأخذ ما كان معه وأخذ امرأته ، فقال لها : هل أصابك ؟ قالت : نعم والله ما اشتملت النساء على مثله قط ! فأمر بها فأوقفت بين فرسين ، ثم استحضرهما حتى تقطعت . ثم قال :

كلُّ أُنثى وإن بدا لك منها * آية الوُدِّ حُبُّها خَيْتَعورُ

إن مَن غَرَّهُ النِّساء بوُدٍّ * بعدَ هندٍ لجاهلٌ مغرور

للحكماء

وقالت الحكماء : لا تثق بامرأة ، ولا تغترّ بمال وإن كثر .

لبعضهم

وقالوا : النساء حبائل الشيطان .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

تمتّع بها ما ساعفَتْك ، ولا تكن * جَزوعا إذا بانت ، فسوف تبينُ

وصُنها وإن كانت تفِى لك ، إنها * على مَدى الأيام سوف تخُون

وإن هى أعطتْك اللِّيانَ فإنها * لآخرَ من طُلَّابها ستَلين

وإن حلفَتْ لا ينقُض النأىُ عهدَها * فليس لمخضوب البَنانِ يمين

وإن أسبلَت يومَ الفِراقِ دُموعَها * فليس لعَمْرُ اللهِ ذاك يقين

للحكماء

وقالت الحكماء : لم تُنه امرأة قط عن شىء إلا فعلته .

لطفيل

وقال طفيل الغنوى :

إنّ النِّساء متى يُنْهين عن خُلقٍ * فإنه واقعٌ لا بُدّ مفعولُ

وعن الهيثم بن عدى عن ابن عياش قال : أرسل عبد الله بن همام السلولى

شابًا إلى امرأة ليخطبها عليه . فقالت له : فما يمنعك أنت ؟ فقال لها : ولى طمع فيك ! قالت : ما عنك رغبة ! فتزوجها ؛ ثم انصرف إلى ابن همام ، فقال له : ما صنعت ؟ قال والله ما تزوجتنى إلا بعد شرط ! قال : أو لهذا بعثتُك ؟ فقال ابن همام فى ذلك :

رأت غلاماً على شَرط الطّلابةِ لا ٭ يَعْيا بإرقاص بُردىّ الخلاخيل
مُبطّناً بدَحيس اللحم تحسَبُه ٭ مما يُصوَّر فى تلك التماثيلِ
أكفأمن الكُفْءِ فى عقدِ النكاح وما ٭ يَعْيا به حَلُّ هميان السّراويلِ
تركتُها والأيامَى غير واحدةٍ ٭ فاحبِسْه عن بيتها ياحابس الفيلِ

السلولى وامرأة خطبها

وعن الهيثم بن عدى عن ابن عياش ، قال : كان النساء يجلسن لخطابهن ؛ فكانت امرأة من بنى سلول تخطب ، وكان عبد الله بن همام السلولى يخطبها ؛ فإذا دخل عليها تقول له : فداك أبى وأمى ! وتقبل عليه تحدثه ، وكان شاب من بنى سلول يخطبها ، فإذا دخل عليها الشاب وعندها عبد الله بن همام قالت للشاب قم إلى النار ! وأقبلت بوجهها وحديثها على عبد الله ؛ ثم إن الشاب تزوجها ، فلما بلغ ذلك عبد الله بن همام قال :

أُودِى بحبِّ سُليمى فاتكٌ لقِنٌ ٭ كحيَّةٍ برزَتْ من بين أحجارِ
إذا رأتْنى تُفدّينى وتجعلُه ٭ فى النارِ ، ياليْتنى المجعولُ فى النارِ

وله فيها :

ماذا تظنُّ سُليمى إنْ ألمّ بها ٭ مُرَجّلُ الرأسِ ذُو بُرْدَيْنِ مَزّاحُ
حُلْوٌ فكاهَتُهُ ، خَزٌّ عِمامَتُهُ ٭ فى كفّهِ مِن رُقَى الشيطانِ مِفتاحُ !

فى السرارى

إبراهيم عليه السلام وهاجر

تسرّى الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام هاجر ، فولدت له إسماعيل عليه السلام .

وتسرّى النبي عليه الصلاة والسلام مارية القبطية ، فولدت له إبراهيم .

ولما صارت إليه صفية بنت حُيَيّ ، كان أزواجه يعيّرْنها باليهودية ، فشكت ذلك إليه ، فقال لها : أما إنكِ لو شئت لقلتِ فصدَقْتِ وصُدِّقت : أبي إسحاقُ ، وجَدّي إبراهيم ، وعمي إسماعيل ، وأخي يوسف .

هشام وزيد بن علي

ودخل زيد بن عليّ على هشام بن عبد الملك ، فقال له [هشام] : بلغني أنك ٥ تحدّث نفسك بالخلافة ، ولا تصلح لها ، لأنك ابن أمة ! فقال له : أما قولك إني أحدث نفسي بالخلافة فلا يعلم الغيب إلا الله ، وأما قولك إني ابن أمة ، فإسماعيل ابن أمة ، أخرج الله من صلبه خيرَ البشر محمدا صلى الله عليه وسلم ، وإسحاق بن حرّة ، أخرج الله من صلبه القردة والخنازير .

الرغبة في السراري

قال الأصمعي : وكان أكثر أهل المدينة يكرهون الإماء ، حتى نشأ منهم علي ١٠ ابن الحسين ، والقاسم بن محمد [بن أبي بكر] ، وسالم بن عبد الله [بن عمر] ؛ ففاقوا أهل المدينة فقها وعلما وورعا ؛ فرغب الناس في السراري .

عبد الملك وابن الحسين في جارية تزوجها

وتزوج علي بن الحسين جارية له وأعتقها ، فبلغ ذلك عبد الملك ، فكتب إليه يؤنّبه ، فكتب إليه عليّ : إن الله رفع بالإسلام الخسيسة ، وأتم به النقيصة وأكرم به من اللؤم ؛ فلا عار على مسلم ؛ وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٥ قد تزوج أمته وامرأةَ عبدِه ! فقال عبد الملك : إن عليّ بن الحسين يشْرُف من حيث يتّضع الناس .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

لا تشتُمَنّ امرءا في أن تكون له * أمٌّ من الرُّومِ أو سوداء عجْماء

فإنما أمهاتُ القوْمِ أوعِيَــةٌ * مُستوْدَعاتٌ ، وللأحسابِ آباء

لبعضهم

٢٠ وقال بعضهم : عجبت لمن لبس القصير كيف يلبس الطويل ؛ ولمن أحفى شعره كيف أعفاه ؛ وعجبا لمن عرف الإماء كيف يقدم على الحرائر .

وقالوا : الأمة تُشترى بالعين وتُرد بالعيب ؛ والحرة غُل في عُنق من صارت إليه .

الهُجنـــاء

العرب والفرس

العرب تسمى العجميّ إذا أسلم : المَسلمانى ؛ ومنه يقال : مُسالِمة السواد ، والهجين عندهم : الذى أبوه عربى وأمه أعجمية ؛ والمذرِّع : الذى أمه عربية وأبوه أعجمى وقال الفرزدق :

إذا باهِلىٌّ أنجبَتْ حنظَليّةٌ * له ولداً منها ؛ فذاكَ المُذرَّعُ ٥

والعجمى : النصرانى ونحوه وإن كان فصيحاً . والأعجمى : الأخرس اللسان وإن كان مسلماً .

ومنه قيل : زياد الأعجم ؛ وكان فى لسانه لكنة .

والفُرْس تسمى الهجين : دوشن ؛ والعبد : واش ونجاش . ومن تزوّج أمة: نفاش ، وهو الذى يكون المهد دونه ، وسمى أيضاً : بوركان . ١٠

والعرب تُسمِّى العبد الذى لا يخدم إلا ما دامت عليه عين مولاه : عبد العين .

وكانت العرب فى الجاهلية لا تورث الهجين .

وكانت الفرس تطرح الهجين ولا تعدّه ، ولو وجدوا أمّا أمة على رأس ثلاثين أما ، ما أفلح [ولدُها] عندهم ولا كان آزاد ، ولا كان بيده مزاد . والآزاد عندهم : الحر ، والمزاد : الريحان . ١٥

لابن الزبير

وقال ابن الزبير لعبد الرحمن بن أم الحكم :

تبلَّغتَ لمّا أن أتيتَ بلادَهم * وفى أرضنا أنت الهُمامُ القَلَمَّسُ

ألستَ ببغــــلٍ أمُّه عربيّةٌ * أبوهُ حِمارٌ أدبرُ الظهرِ يُنْخَس ؟

وشبه المذرع بالبغل ؛ إذا قيل له : من أبوك ؟ قال : أمى الفرس !

الهجناء

ومما احتجت به الهُجَناء : أن النبى صلى الله عليه وسلم زوّج ضُباعةَ بنت الزبير بن عبد المطلب من المقداد بن الأسود ، وزوّج خالدةَ بنت أبى لهب من عثمان بن أبى العاص الثقفى . ٢٠

وبذلك احتج عبد الله بن جعفر إذ زوّج ابنته زينب من الحجاج بن يوسف

فعيّره الوليد بن عبد الملك ، فقال عبد الله بن جعفر : سيف أبيك زوّجه ا والله ما فديت بها إلا خيط رقبتى . وأخرى : أن النبي صلى الله عليه وسلم قد زوّج ضباعة من المقداد ، وخالدة من عثمان بن أبى العاص ، ففيه قدوة وأسوة .

وزوّج أبو سفيان ابنته أم الحكم بالطائف فى ثقيف .

الهذم

٥ وقال لهذم الكاتب فى عبد الله بن الأهتم وسأله فحرمه :

ومابنُو الأهتمِ إلا كالرَّخِمْ * لا شىء إلا أنهم لحمٌ ودَمْ
جاءت به جُذامُ من أرضِ العجَمْ * أهتمَ سلّاحٍ على ظهرِ القدَمْ
مُقابلٌ فى اللؤمِ من خالٍ وعَمّ

بنو أمية وأولاد الإماء

وكانت بنو أمية لا تستخلف بنى الإماء ، وقالوا لا تصلح لهم العرب .

١٠ زياد بن يحيى قال : حدّثنا جبلة بن عبد الملك : قالوا : سابق عبد الملك [بين] سليمان ومسلمة ؛ فسبق سليمان مسلمة ، فقال عبد الملك :

ألم أنهكُمْ أن تحمِلُوا هُجَناءكم * على خيلِكم يومَ الرِّهان فتُدرَكُ ؟
وما يستوى المرءانِ ، هذا ابنُ حُرّة * وهذا ابنُ أخرى ظهرُها مُتشرَّك
وتَضعُفُ عضداهُ ويقصُرُ سوطُه * وتقصُرُ رجـلاهُ فلا يتحرّك
١٥ وأدركهُ خالاتُه فنزَعْنهُ * ألا إنّ عِرقَ السُّوء لابُدّ يُدرك

ثم أقبل عبد الملك على مصقلة بن هبيرة الشيبانى فقال : أتدرى من يقول هذا ؟ قال : لا أدرى . قال : يقوله أخوك الشّنّىّ .

قال مسلمة : يا أمير المؤمنين ، ما هكذا قال حاتم الطائى . قال عبد الملك : وماذا قال حاتم ؟ فقال مسلمة : قال حاتم :

٢٠ وما أنكَحونا طائعينَ بناتِهم * ولكن خطَبْناها بأسيافِنا قسْرا
فما زادها فينا السِّباءُ مذلّةً * ولا كُلِّفت خُبزاً ولا طبخت قِدْرا
ولكن خلَطْناها بخيرِ نسائنا * فجاءت بهم بِيضاً وُجوهُهم زُهرا
وكائن تَرى فينا منَ ابنِ سبيّة * إذا لقِىَ الأبطالَ يطعنُهم شزْرا

ويأخذُ راياتِ الطِّعانِ بكفِّه * فيُوردُها بِيضاً ؛ ويُصْدِرُها حُمْرا
أغرُّ إذا آغبرَّ اللئام رأيته[1] * إذ ما سرَى ليْل الدُّجى قمراً بدرَا

فقال عبد الملك كالمستحى :

وما شرُّ الثلاثةِ أمَّ عمرٍو * بصاحبِكِ الذى لاتصْبحِينا

بنو أمية فى أولاد الأمهات

قال الأصمعى : كانت بنو أمية لا تبايع لبنى أمهات الأولاد ؛ فكان الناس يرون أن ذلك لاستهانةٍ بهم ، ولم يكن لذلك ، ولكن لِمَا كانوا يرون أن زوال ملكهم على يد ابن أم ولد ؛ فلما ولِىَ الناقص ظن الناس أنه الذى يذهب ملك بنى أمية على يديه — وكانت أمه بنت يزدجرد بن كسرى — فلم يلبث إلا سبعة أشهر حتى مات ؛ ووثب مكانه مروان بن محمد — وأمه كردية — فكانت الرواية عليه . ولم يكن لعبد الملك آبنٌ أسدُّ رأيا ، ولا أذكى عقلا ، ولا أشجع قلباً ، ولا أسمح نفسا ، ولا أسخى كفًّا من مسلمة ؛ وإنما تركوه لهذا المعنى .

شىء عن يحيى ابن أبى حفصة

وكان يحيى بن أبى حفصة أخو مروان بن أبى حفصة يهوديا ، أسلم على يد عثمان بن عفان ، فكثر ماله ، فتزوج بخولة بنت مُقاتل بن قيس بن عاصم ، ونقدها خمسين ألفا . وفيه يقول القُلاخ :

رأيتُ مُقاتِلَ الطَّلبات حَلَّى * نُحُور بناتِه كَرَّ الموالى
فلا تفخرْ بقيْسٍ ، إنّ قيْسًا * خَرِيتُم فوق أعْظُمِه البوالى !

وله فيه :

نُبِّئتُ خولةَ قالت حين أنكَحَها * لطالمَا كنتُ مِنْكَ العارَ أنتظِرُ
أنكحتَ عبدَيْن ترجُو فضل مالِهما * فى فيكَ مما رجَوْتَ التُّربُ والحجرُ
لله درُّ جيادٍ أنت سائسُها * بَرْذَنْتَها وبها التَّحجيلُ والغرَرُ

(١) فى بعض الأصول : « كريم إذا اعتز اللئيم تخاله » .

فقال مقاتل يردّ عليه :

وما تَرَكتْ خمسون ألفاً لقائلٍ * عليكَ ـ فلا تحفِل ـ مَقالةَ لائمِ
فإن قلتمُ زوّجتمونى؛ فقدمَضت * بهِ سُنّةٌ قبلى وحُبُّ الدراهمِ

ويقال : إن غيره قال ذلك .

٥ ## باب فى الأدعياء

زياد

أول دَعِىّ كان فى الإسلام واشتهر ، زياد بن عبيد ، دعِىّ معاوية ؛ وكان من قصته أنه وجّهه بعض عمال عمر بن الخطاب رضى الله عنه على العراق إلى عمر بفتح كان ؛ فلما قدم وأخبر عمر بالفتح فى أحسن بيان وأفصح لسان ، قال له عمر : أتقدر على مثل هذا الكلام فى جماعة الناس على المنبر ؟ قال : نعم ، ١٠ وعلى أحسنَ منه ، وأنا لك أهيب ! فأمر عمرُ بالصلاة جامعة ؛ فاجتمع الناس ، ثم قال لزياد : قم فاخطب وقُص على الناس مافتح الله على إخوانهم المسلمين . ففعل وأحسن وجوّد ، وعند أصل المنبر على بن أبى طالب ، وأبو سفيان بن حرب فقال أبو سفيان لعلىّ : أيعجبك ما سمعتَ من هذا الفتى ؟ قال : نعم . قال : أما إنه ابن عمك ؟ قال : فكيف ذلك ؟ قال : أنا قذفته فى رحم أمّه سمية ! قال : ١٥ فما يمنعك أن تدّعيه ؟ قال : أخاف هـذا الجالس على المنبر ـــ يعنى عمر ـــ أن يُفسد على إهابى . فلما ولى معاوية استلحقه بهذا الحديث ، وأقام له شهوداً عليه؛ فلما شهد الشهود قام زياد على أعقابهم خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : هذا أمرٌ لم أشهد أوله ، ولا علم لى بآخره ؛ وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم ، وشهد الشهود بما قد سمعتم ، والحمد لله الذى رفع منا ماوضع الناس ، وحفظ منا ٢٠ ما ضيّعوا ؛ فأما عبيد فإنما هو والد مبرور ، أو ربيب مشكور . ثم جلس .

فقال فيه عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

ألا أبلِغ مُعاويةَ بن حربٍ * فقد ضاقتْ بما يأتى اليدانِ

أتغضبُ أن يُقالَ أبوكَ عف * وترضى أن يقال أبوكَ زانِ ؟

وأشهدُ أن قربَكَ من زيادٍ * كقُربِ الفيلِ من ولدِ الأتان

وقال زياد : ما هُجيتُ ببيتٍ قط أشد عليّ من قول يزيد بن مفرغ الحميرى :

فكّر ففى ذاك إن فكّرتَ مُعتبَرُ * هل نِلتَ مَكرمةً إلا بتأميرِ ؟

عاشت سُميّةُ ما عاشت وما علمتْ * أنّ ابنَها من قريشٍ فى الجماهيرِ ٥

سُبحان مَن مُلكُ عَبّاد بقدرته * لا يدفعُ الناسُ محتومَ المقاديرِ

وكان ولدُ سمية : زيادا ، وأبا بكرة ، ونافعا ؛ فكان زياد ينسب فى قريش ، وأبو بكرة فى العرب ، ونافع فى الموالى ؛ فقال فيهم يزيد بن مفرغ :

إنّ زياداً ونافعاً وأبا * بَكرةَ عندى من أعجب العجَبِ

إنّ رِجالا ثلاثة خُلقوا * من رَحِمِ أُنثى مُخالِفى النَّسبِ ... ١٠

ذا قرشىٌّ ، فيما يقولُ ، وذا * مَولًى وهذا ابنُ أُمّه عربى !

لبعض العراقيين فى أبى مسهر

وقال بعض العراقيين فى أبى مُسهر الكاتب :

حِمارٌ فى الكتابةِ يدَّعيها * كدعوى آلِ حَربٍ فى زيادِ

فدَعْ عنكَ الكتابةَ لستَ منها * ولو غَرّقتَ ثوبَكَ بالمداد

لبعض الشعراء فى دعى

وقال آخر فى دعيّ : ١٥

لعينٌ يورثُ الأبناءَ لعناً * ويَلطخُ كلَّ ذى نسبٍ صحيح

عبد الله بن حجاج

ولما طالت خصومة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، ونصر بن حجاج عند معاوية ، فى عبد الله بن حجاج ، مولى خالد بن الوليد — أمر معاوية حاجبه أن يؤخر أمرهما حتى يحتفل مجلسُه ، فجلس معاوية وقد تلفّع بمطرف خزّ أخضر ، وأمر بحجر فأتى منه ، وألقى عليه طرف المطرف ، ثم أذن لهما وقد احتفل المجلس ٢٠ فقال نصر بن حجاج : أخى وابن أبى ، عهد إلىّ أنه منه . وقال عبد الرحمن : مولاى وابن عبد أبى وأمتِه ، وُلد على فراشه . فقال معاوية : يا حرسىّ ، خذ هذا

الحجر ـ وكشف عنه ـ فادفعه إلى نصر بن حجاج . وقال يا نصر ، هذا مالكَ فى حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه قال : « الولد للفراش وللعاهر الحَجر » .
فقال نصر : أفلا أجْريت هذا الحكم فى زياد يا أمير المؤمنين ؟ قال ذاك حكم معاوية وهذا حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٥ وليس فى الأرض أحمى[1] من الأدعياء ؛ لتستحق بذلك العربية .
قال الشاعر :

دعىٌّ واحـدٌ أجدَى عليهم * من ألفْ عالمٍ مثلِ ابنِ دابِ
ككلْبِ السُّوءِ يحرسُ جانبيْه * وليس عدوهُ غيرَ الكلاب

للأصمعى فى دعى

وقال الأصمعى : استمشى رجل من الأدعياء ، فدخل عليه رجل من أصحابه
١٠ فوجد عنده شيحاً وقيصوما ؛ فقال له : ما هذا ؟ فقال ، ورفع صوته : الطبيعة تتوق إليه ! يريد أن طبيعته من طباع العرب ؛ فقال فيه الشاعر :

يَشمُّ الشِّيحَ والقيْصُو * مَ كى يستوجِبُ النَّسبا
وليس ضميرُهُ فى الصّدْ * رِ إلا التِّينَ والعِنبا

أبو سعيد المخزومى

وعن إسماعيل بن أحمد قال : أرأيت على أبى سعيد الشاعر المخزومى كُردوانيا
١٥ مصبوغا بتوريد ، فقلت : أبا سعيد ، هذا خز ؟ قال : لا ولكنه دعِىٌّ على دعىّ
وكان أبو سعيد دعيًّا فى بنى مخزوم ؛ وفيه قال الشاعر :

متّى تاهَ على الناسِ * شريفٌ يا أبا سـعْدِ[2]
فتِهْ ما شئت إذ كنتَ * بِلا أبٍ ولا جَـدِّ
وإذ حظّك فى النِّسـبَةِ بين الخز والعبـدِ
٢٠ وإن فارَقَكَ الفحشُ * ففى أمْنٍ من الحدّ

تزوج ابن عبد العزيز فى عبد القيس

وعن أحمد بن عبد العزيز قال : نزلت فى دار رجل من بنى عبد القيس بالبحرين

(١) فى بعض الأصول : « أسفى فى العرب » .
(٢) فى بعض الأصول : « لم يته قط على الناس شريف ... » .

فقال لى : بلغنى أنك خاطبٌ ؟ قلت : نعم . قال : فأنا أزوّجك . قلت له : إنى مولى . قال : اسكت وأنا أفعل ! فقال أبو بجير فيهم :

أمِن قِلةٍ صرتم إلى أن قبِلتُمُ * دعاوةَ زرّاعٍ وآخرَ تاجرِ
وأصهبَ رُومىّ وأسودَ فاحمٍ * وأبيضَ جعدٍ من سراةِ الأحامرِ
شُكولُهمُ شتى وكلٌّ نسيبُكم * لقد جئتمُ فى الناسِ إحدى المناكر
متى قال إنّى منكم فمُصدّقٌ * وإن كان زنجيًّا غليظَ المشافر
أكُلُّهمُ وافى النّساء جُدودهُ * وكُلُّهمُ أوفى بصدْقِ المعاذرِ ؟
وكلهمُ قد كان فى أوّليّةٍ * لهُ نِسبةٌ معروفةٌ فى العشائر ؟
على عِليكمْ أن سوف ينكحُ فيكمُ * لجدْعاً ورغماً للأنوفِ الصّواغِر
فهلّا أبيتم عِفّةً وتكرُّماً * وهلّا وجِلتمْ من مَقالةِ شاعرٍ ؟
تَعيبُونَ أمراً ظاهراً فى بناتِكم * وفخرُكم قد جاز كلّ مَفاخر
متى شاء منكم مُغرَمٌ كان جَدّهُ * عِمارة عبسٍ خيرَ تلك العمائر
وحِصنُ بن بدرٍ أو زُرارةُ دارِمٍ * وزبّانُ زبّانُ الرئيسُ ابنُ جابرِ
فقد صرتُ لا أدرى وإن كنتُ ناسباً * لعلّ نجاراً من هلالِ بنِ عامرِ
وعلّ رجالَ التركِ من آلِ مذحجٍ * وعلّ تميما عُصبةٌ من يُحابِر
وعلّ رجالَ العُجْمِ من آلِ عالجٍ * وعلّ البوادِى بُدّلت بالحواضِر
زعمتمْ بأنّ الهندَ أولادُ خندفٍ * وبينكمُ قُربَى وبين البرابر
ودَيلَم من نسلِ ابن ضَبةَ باسِلٍ * وبُرجانَ من أولادِ عَمرو بنِ عامرِ
بنو الأصفرِ الأملاكُ أكرمُ منكمُ * وأولى بقُربانا مُلوكُ الأكاسر
أأَطْمعُ فى صهرى دَعيًّا مُجاهِراً * ولم تَر شرا فى دعِىٍّ مُجاهر
ويَشتمُ لؤماً عِرضَهُ وعشيرَهُ * ويمدحُ جهلا طاهراً وابنَ طاهرِ

لزرارة

وقال زرارة بن ثروان ، أحد بنى عامر بن ربيعة بن عامر :

قدِ اختلَطَ الأسافِلُ بالأعالى * وباح الناسُ واختلَط النِّجارُ

وصار العبدُ مثلَ أبى قُبَيْس * وسيق مع المَعْلهَجَةِ العِشارُ

وإنك لن يَضِيرَكَ بعد حولٍ * أطِرْفٌ ناك أمّكَ أمْ حمارُ

لابن علفة

٥ وقال عقيل بن عُلَّفة :

وكنا بنى غَيْظٍ رجالا فأصبحتْ * بنو مالك غيْظاً ، وصِرْنا لمالكِ

لَحَى اللهُ دهراً ذَعْذَعَ المالَ كلَّه * وسوّد أستاهَ الإماء الفَوارِكِ

جعفر بن سليمان وولده أحمد

وذكر جعفر بن سليمان بن على يوما ولده ، وأنهم ليسوا كما يحب ، فقال له ولده أحمد بن جعفر : عمدتَ إلى فاسقات المدينة ومكة وإماء الحجاز ، فأوعيت ١٠ فيهم نُطَفك ، ثم تريد أن يُنجِبْنَ ! ألا فعلت فى ولدك ما فعل أبوك فيك حين اختار لك عقيلةَ قومها .

الأشعث وعلى

ودخل الأشعث بن قيس على علىّ بن أبى طالب ، فوجد بين يديه صبية تدرج ؛ فقال : من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال هذه زينب بنت أمير المؤمنين . قال زوِّجْنيها يا أمير المؤمنين ! قال : أعزب ، بفيك الكِثكِث ، ولك الأثلب ! أغرّك ١٥ ابنُ أبى قحافة حين زوّجك أم فروة ؟ إنها لم تكن من الفواطم ولا العواتك من سليم . فقال : قد زوجتم أخملَ منى حسباً ، وأوضع منى نسبا : المقدادَ بن عمرو ، وإن شئت فالمقداد بن الأسود . قال علىّ : ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فعَله ، وهو أعلم بما فعل ؛ ولئن عدت إلى مثلها لأسُوأنّك .

الكميت

وفى هذا المعنى قال الكميت بن زيد .

٢٠ وما وجدتْ بنات بنى نزار * حلائلَ أسودين وأحمرينا [1]

وما حَمَلوا الحَميرَ على عِتاقٍ * مُطهّمة فيُلْفَوْا مُبْغِلينا

(١) فى بعض الأصول :

وما ضربت فحول بنى نزار * فوالج من فحول الأعجمينا

بنى الأعمامِ أنكحْنا الأيامَى * وبالآباء سُمِّينـــا البَنينا

أراد تزويج أبرهة الحبشى فى كندة .

لخالد النجار

عن العتبى : قال : أنشدنى أبو إسحاق إبراهيم بن خداش لخالد النجار :

اليومَ من هاشم بَخْ ، وأنت غداً * مَوْلًى ، وبعدَ غد حِلْفٌ من العربِ

إن صح هذا فأنت الناسُ كلُّهُمُ * ياهاشِمىُّ ، وياموَلى ، وياعربِى ٥

فى الهيثم بن عدى

قال : وكان الهيثم بن عدىّ فيما زعموا دعيا ، فقال فيه الشاعر :

الهيثمُ بنُ عدِىّ من تَنقلَه * فى كلّ يوم له رَحْلٌ على حَسَب

إذا اجتَدَى مَعشراً من فضلِ نِسْبتِهِمْ * فلم يُنيلوه عـداهم إلى نَسَبِ

فما يزال له حـــلٌّ ومُرْتحَلٌ * إلى النصارى وأحياناً إلى العرب

إذا نَسَبْتَ عديًّا فى بنى ثعَل * فقدّم الدالَ قبل العيْنِ فى النسب ! ١٠

لبشار العقيلى

وقال بشّار العقيلى :

إنّ عَمْراً ، فاعرِفوه * عربىٌّ من زُجاجِ

مُظلِمُ النِّسبة لا يُعْـ * ـرفُ إلّا بالسِّراجِ !

وقال فيه :

أرفقْ بنسبة عمرٍو ، حين تَنْسُبُه * فإنه عربىٌّ من قَوارير ١٥

ما زال فى كيرِ حدّادٍ يُرَدّدُه * حتى بَدا عربيًّا مُظلِمَ النُّورِ

وقال أيضا فى أدعياء :

هم قعدوا فانتقوْا لهم حَسَباً * يدخلُ بعد العِشاء فى العرب

والناسُ قد أصبحوا صيارفةً * أعلَمَ شىءٍ بزائفِ الحسب

لأبى نواس فى أشجع

وقال أبو نواس فى أشجع بن عمرو : ٢٠

قل لمن يَدّعِى سُلَيْمَى سفاهاً * لستَ منها ولا قلامةَ ظُفْرِ

إنما أنت من سُلَيْمَى كواوٍ * أُلحِقتْ فى الهِجاء ظُلْماً بعمرو

وقال فيه :

أَيَا مُتَحَيِّراً فيـــه * لمن يتعجبُ العجبُ

لِأسمـــاءٍ تَعلَّمَهُنّ * أشجعُ حين يَنتسِبُ

ولأحمد بن أبي الحارث الخراز في حبيب الطائي :

هخراز في أبي تمام الطائي

٥ لوَ أنّكَ إذ جعلتَ أباك أوْساً * جعلتَ الجَدّ حارثةَ بنَ لامِ

وسَمّيْت التي ولدتك سُعْدَى * فكنت مقابِلًا بين الكرام !

وله فيه :

أنت عِنـدى عربيٌّ * ليس فى ذاك كلامُ

شعرُ فخذيْك وساقيـ * ـك خُزامَى وثُمـام

١٠ وضُلوعُ الصدرِ من * جسمك نبعٌ وبَشام

وقذَى عينيك صَمْغٌ * ونَواصيك ثُغـام

لوْ تحرّكْت كذا لا * نجفلتْ منك نَعـام

وظِبـاءٌ سانِحـاتٌ * ويرابيـــعٌ عِظـام

وحَمـامٌ يتغــــنّى * حبّذا ذاك الحمـام

١٥ أنا ما ذنبىَ إن كـ * ـذّبنى فيك الـكرام

القفـا يَشهد أدماً * عَرَفت فيـك الأنام

كذّبوا ما أنت إلّا * عربىٌّ والسـلام !

وقال فى المعلى الطائى :

مُعَلّى لست من طَيّ * فإنْ قَبِلَتْك فارهَنْها

٢٠ وإبنك فارمِ فى أجاٍ * فلا تَرغبْ به عنها

كأنّ دَماملًا جُمعت * فصُوّر وجهُه منهـا

لبعضهم ولآخر :

تعلّمها وإخوتُهُ * فكلّهم بها دربُ
لقد ربّوا عجوزَهُم * ولو زيّنتها غضبُوا
فيالكِ عُصْبَةً إن حدّ * ثوا عن أصلِهم كذبُوا
لهم فى بيتهم نسبٌ * وفى وسطِ الملا نَسَبُ
كما لم تَخْفَ سافرةٌ * وتَخْفَى حين تنتقِبُ

لخلف فى الأدعياء وقال خلف بن خليفة فى الأدعياء :

فقُل للأكرَمين بنى نِزَار * وعندَ كرائِم العربِ الشّفاء
أآخرَ مرّتينِ سَبَيْتُمونا * وفى الإسلامِ ما كُرِهَ السِّباء ؟
إذا آستحْلَلْتُمُ هذا وهٰذا * فليس لنا على ذاكم بقاء
فلا تأمَنْ على حالٍ دعِيًّا * فليس له على حالٍ وفاء

فى الباه وما قيل فيه

لابن أنس ذُكر عند مالك بن أنسٍ الباهُ ، فقال: هو نورُ وجهِك ، ومُخُّ ساقك ؛ فأقِلّ منه أو أكثِرْ .

لمعاوية وقال معاوية : ما رأيت نهماً فى النساء إلا عرَفْت ذلك فى وجهه .

وقال الحجاج لابن شماخ العكلى : ما عندك للنساء ؟ قال : أُطيلُ الظماء ، وأرِدُ فلا أشرب .

لرؤبة وقيل لرؤبة : ما عندك يا أبا الجحّاف ؟ قال : يمتد ولا يشتد ، ويرد ولا يشرب .

وقيل لآخر : ما عندك لهن ؟ قال : ما يقطعُ حجّتها ، ويشفى غُلّتها .

لكسرى وقال كسرى : كنت أرانى إذا كبِرت أنهن لا يُحبِبْننى ، فإذا أنا لا أُحِبُّهُن !

وأنشد الرياشى لأعرابىّ من بنى أسد :

تمنّيت لو عادَ شرْخُ الشبابِ * ومن ذا على الدّهرِ يُعطى المُنَى
وكنت مكيناً لدَى الغانياتِ * فلا شيء عندى لها مُمكِناً

فأمّا الحِسانُ فيأبَيْنَنى * وأما القِباحُ فآبَى أنا

عيسى بن موسى

ودخل عيسى بن موسى على جارية ، فلم يقدر على شيء ، فقال :

النفسُ تطمعُ والأسبابُ عاجزةٌ * والنفسُ تَهلكُ بين اليأسِ والطمَع

لابن أشرس

وخلا ثمامة بن أشرس بجارية له ، فعجز ؛ فقال : ويحكِ ! ما أوسع حِرك ! فقالت :

٥ أنت الفِداء لِمَنْ قد كان يَملَؤُه * ويشتكى الضِّيق منه حين يلقاهُ

لبعضهم

وقال آخر لجاريته :

ويُعجبُنى منكِ عند الجِماع * حياةُ الكلامِ وموتُ النَّظَرْ

وقال آخر :

شفاء الحبّ تقبيلٌ ولَمْسٌ * وسَبْحٌ بالبُطون على البطونِ

١٠ ورهْزٌ تذرف العيْنان منه * وأخذٌ بالذَّوائب والقُرونِ

عائشة بنت طلحة

وقالت امرأة كوفية : دخلت على عائشة بنت طلحة ، فسألت عنها ، فقيل هى مع زوجها فى القيطون ؛ فسمعت زفيراً ونخيراً لم يُسمع قط مثلُه . ثم خرجت وجبينها يتفصّدُ عرقاً ؛ فقلت لها : ما ظننت أن حرّة تفعل مثل هذا ! فقالت : إن الخيل العِتاق تشرب بالصفير .

لأعرابى

١٥ وقيل لأعرابىّ : ما عندك للنساء ؟ فأشار إلى متاعه وقال :

وتراهُ بعد ثلاث عشْرة قائماً * نظرَ المؤذّن شكّ يوم سحاب !

الفرزدق

وقال الفرزدق :

أنا شيخٌ ولى امرأةٌ عجوزُ * تُراوِدُنى على ما لايجوزُ

وقالت : رقّ أيْرُكَ مُذْ كبرنا * فقلت لها : بِل آتسعَ القفيزُ

لراجز

٢٠ وقال الراجز :

لا يُعقبُ التّقبيل إلّا زبّى * ولا يداوى من صميم الحبّ

إلا احتِضانِ الرّكب الأزبّ * يُنزع منه الأير نزع الضبّ

روى زياد عن مالك عن محمد بن يحي بن حسان ، أن جدته عاتبت جدّه فى

قلة إتيانه إياها ؛ فقال لها : أمّا أنا وأنت على قضاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؟ قالت : وما قضاء عمر ؟ قال : قضى أن الرجل إذا أتى امرأته عند كلّ طُهر فقد أدّى حقها . قالت : أفَتَرك الناس كلهم قضاء عمر وأقمت أنا وأنت عليه .

لأعرابي

وقال أعرابيٌّ حين كبِر وعجَز :

عجِبْتُ من أيرِىَ كيف يصنعُ * أدفعُـــهُ بأصبُعى ويرجِعُ ٥

يقوم بعد النّشرِ ثم يُصْرَعُ

كثير وعزة

ودخلت عزّة صاحبة كثيّر على أم البنين زوج عبد الملك بن مروان ، فقالت لها : أخبرينى عن قول كثير :

قضَى كلُّ ذى دين فوفّى غريمهُ * وعزّة ممطولٌ مُعَنًّى غريمُـها

ما هذا الدينُ الذى طلبك به ؟ قالت : وعدتَه بقُبلة فتحرّجت منها . قالت : أنجزيها وعلىّ إثمها .

عن أبى البيداء

على بن عبد العزيز قال : كان أبو البيداء رجلا عِنّيناً ، وكان يتجلد ويقول لقومه : زوّجونى امرأتين . فقالوا له : إن فى واحدة كفاية . قال : أمّا لى فلا . فقالوا : نزوّجك واحدة فإن كفتك وإلا نزوّجك أخرى . فزوّجوه أعرابية ؛ فلما دخل بها أقام معها أسبوعا ، فلما كان فى اليوم السابع أتوه فقالوا له : ما كان من أمرك فى اليوم الأول ؟ قال : عظيم جدا .. فقالوا : ففى اليوم الثالث ؟ قال : لا تسلونى ١٥ فاستجابت امرأته من وراء الستر فقالت :

كان أبو البيداء يزهو فى الوهقْ * حتى إذا أُدخـل فى بيت أنِق

فيه غزال حسن الدّلّ خرِق * مارسَـهُ حتى إذا ارفضّ العرق

انكسر المفتاح وانسدّ الغَلَق ٢٠

حماد عجرد وجارية

أُهديت جارية إلى حماد عجرد ، وهو جالس مع أصحابه على لذة ، فتركهم وقام بها إلى مجلس له فافتضها ، وكتب إليهم :

قد فتَحْتُ الحِصْن بعد امتناع * ببِنانٍ فاتح للقـــلاع

ظفِرت كفّى بتفريقِ جَمْعٍ ﴿ جاءنا تفريقُـهُ باجتماع
وإذا شَمْلِىَ وشملُ خليـلى ﴿ إنمـا يلْتامُ بعـد انصِداع

آخر :   لبعضهم

لم توافِق طِباعُ هذى طِباعى ﴿ فأنا وهْى دهْرنا فى صِراع
وتحرّيت أن أنالَ رضاها ﴿ فأبت غير جَفْوَة وامتناع ٥
فتفكّرْتُ لِمْ بُليت بهذا ؟ ﴿ فإذا أنّ ذا لضَعْف المتاع !

بين رجل وامرأة — وقع بين رجل وامرأته شرٌّ ، فجعل يحيل عليها بالجماع ، فقالت : فعل الله بك ! كلما وقع بيننا شىء جئتنى بشفيع لا أقدر على ردّه .

على بن أبى طالب وشاك من امرأة — وأقبل رجلٌ إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال : إن لى امرأة كلما غشيتُها تقول : قتلْتَنى قتلتنى ، قال : اقتلْها وعلىّ إثمها . ١٠

نساء كلب — وقال هشام بن عبد الملك للأبرش الكلبي : زوّجنى امرأة من كلب . ففعل وصارت عنده ، فقال له هشام ودخل عليه : لقد وجدنا فى نساء كلب سَعة ! فقال له الأبرش : إن نساء كلب خُلقْن لرجال كلب .

وقالوا : من ناك لنفسه لم يضعُفْ أبداً ولم ينقطع ، ومن فعل ذلك لغيره فذاك الذى يُصْفِى وينقطع . ١٥

يعنون : من فعل ذلك ليبلغ أقصى شهوة المرأة ويطلب الذِّكر عندها ...

وقال الشاعر :

من ناك للذكرِ أصفَى قبل مُدّتهِ ﴿ لا يقطع النَّيْكَ إلّا كلّ مَهُـومِ

فى النكاح — وقالوا : من قل جماعُه فهو أصحُّ بدناً وأطول عُمُراً ويعتبرون ذلك بذكر الحيوان ، وذلك أنه ليس فى الحيوان أطول عمراً من البغل ، ولا أقصر عمرا من العصافير ؛ وهى أكثر سفادا . والله أعلم . ٢٠

كتاب الجمانة الثانية

في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين

لابن عبد ربه

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه : قد مضى قولنا فى النساء والأدعياء ، وما قيل فى ذلك من الشعر .

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى كتابنا هذا ذِكر المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين ؛ فإن أخبارَهم حدائق مونقة ، ورياض زاهرة ، لما فيها من طُرفة ونادرة ، فكأنها أنوارٌ مزخرفة ، أو حُلل منشرة ، دانية القطوف من جانى ثمرتها ، قريبة المسافة لمن طلبها ؛ فإذا تأملها الناظر ، وأصغى إليها السامع ، وجدها ملهى للسمع ، ومرتعاً للنظر ، وسكناً للروح ، ولقاحاً للعقل ، وسميرا فى الوحدة وأنيسا فى الوحشة ، وصاحبا فى السفر ، وأنيسا فى الحضر .

المهدى ومدعى النبوة

قال أبو الطيب اليزيدى : أُخِذَ رجل ادعى النبوة أيامَ المهدى ، فأُدْخِل عليه فقال له : أنت نبيّ ؟ قال : نعم ! قال : وإلى من بُعثت ؟ قال : أو تركتمونى أذهب إلى أحد ؟ ساعةَ بُعثت وضعتمونى فى الحبس ! فضحك منه المهدى وخلّى سبيله .

سليمان بن على وآخر

ادعى رجل النبوّة بالبصرة ، فأُتى به سليمان بن على مقيّدا ، فقال له : أنت نبيٌ مرسل ؟ قال : أما الساعةَ فإنى مقيد ! قال : ويحك ! من بعثك ؟ قال : أبهذا يخاطَب الأنبياء ياضعيف ؟ والله لولا أنى مقيد لأمرت جبريل يدمدمها عليكم ! قال : فالمقيّد لا تجاب له دعوة ؟ قال : نعم ؛ الأنبياء خاصة إذا قُيدت لم يرتفع دعاؤها ! فضحك سليمان ، وقال له أنا أُطلِقك وأمر جبريل ، فإن أطاعك آمنا بك وصدّقناك . قال : صدق الله : ﴿ فلا يُؤْمنوا حتى يَرَوُا العذابَ الأليمَ ﴾ !

فضحك سليمان ، وسأل عنه فشُهِدَ عنده أنه ممرور ، فخلى سبيله .

المأمون وآخر

قال ثمامة بن أشرس : شهدت المأمون أُتِيَ برجل ادعى النبوة وأنه إبراهيم الخليل ، فقال المأمون : ما سمعت أجرأ على الله من هذا . قلت : أكلّمه . قال : شأنُكَ به . فقلت له : يا هذا ، إنّ إبراهيم كانت له براهين . قال : وما براهينُه ؟ ٥ قلت : أضرمت له نارٌ وأُلْقِيَ فيها فصارت برداً وسلاما ؛ فنحن نضرم لك ناراً ونطرحك فيها ، فإن كانت عليك برداً كما كانت على إبراهيم آمنّا بك وصدقناك . قال : هات ما هو ألين عليّ من هذا . قال : براهين موسى . قال : وما كانت براهينُ موسى ؟ قال : عصاه التي ألقاها فصارت حية تسعى تلقف ما يأفكون ، وضرب بها البحر فانفلق ؛ وبياض يده من غير سوء . قال : هذا أصعب ؛ هات ١٠ ما هو ألين من هذا . قلت : براهين عيسى . قال : وما براهين عيسى ؟ قلت : كان يُحيي الموتى ، ويمشي على الماء ، ويُبرئ الأكمه والأبرص . فقال في براهين عيسى جئت بالطامة الكبرى ! قلت : لا بدّ من برهان ! فقال : ما معي شيء من هذا ؛ قد قلت لجبريل : إنكم توجّهونى إلى شياطين ، فأعطونى حجة أذهب بها إليهم ، وأحتجُّ عليهم ؛ فغضب وقال : بدأت أنت بالشر قبل كل ١٥ شيء ، اذهب الآن فانظر ما يقول لك القوم . وقال : هذا من الأنبياء لا يصلح إلا للحُمُر . فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا هاج به مرار ، وأعلام ذلك فيه . قال : صدقت ؛ دَعْهُ .

المهدى وآخر

ادّعى رجل النبوّة فى أيام المهدى ، فأُدخل عليه ؛ فقال له : أنت نبيّ ؟ قال : نعم . قال : ومتى نُبئت ؟ قال : وما تصنع بالتاريخ ؟ قال : ففي أي المواضع ٢٠ جاءتك النبوة ؟ قال : وقعنا والله في شغل ! ليس هذا من مسائل الأنبياء ؛ إن كان رأيك أن تصدقنى فى كل ما قلت لك فاعمل بقولى ؛ وإن كنت عزمت على تكذيبي فدعنى أذهبْ عنك ! فقال المهدى : هذا ما لا يجوز ؛ إذ كان فيه فساد الدين . قال : واعجباً لك ! تغضب لدينك لفساده ، ولا أغضب أنا لفساد نبوّتى ؟ أنت والله ما قويت عليّ إلا بمعن بن زائدة والحسن بن قحطبة وما أشبههما

من فؤادك . وعلى يمين المهدى شريك القاضى ؛ قال : ما تقول فى هذا النبي يا شريك ؟ قال [المتنبّئ] : شاورت هذا فى أمرى وتركت أن تشاورنى ! قال : هات ما عندك ؟ قال : أحاكمك فيما جاء به مَن قبلى من الرسل . قال : رضيت . قال : أكافرٌ أنا عندك أم مؤمن ؟ قال : كافر . قال : فإنّ الله يقول ﴿ ولا تُطِعِ الكافرين والمنافقين ودَعْ أذاهم ﴾ ؛ فلا تطعنى ولا تؤذنى ؛ ودعنى أذهب إلى الضعفاء والمساكين ؛ فإنهم أتباع الأنبياء ؛ وأدع الملوك والجبابرة ؛ فإنهم حطب جهنم ! فضحك المهدى وخلى سبيله .

القسرى وآخر — قال خلف بن خليفة : ادّعى رجل النبوّة فى زمن خالد بن عبد الله القسرى ، وعارض القرآن ؛ فأُتِىَ به خالد ؛ فقال له : ما تقول : قال : عارضت فى القرآن ما يقول الله تعالى ﴿ إنّا أعطيناكَ الكوثَر ، فصلِّ لربِّك وانحَرْ ، إن شانِئَك هو الأبتَرُ ﴾ فقلت أنا ما هو أحسن من هذا : إنا أعطيناك الجماهر ، فصل لربك وجاهر ، ولا تطع كل ساحر وكافر . فأمر به خالدٌ فضُربت عنقُه وصلب على خشبة ؛ فمرّ به خلف بن خليفة الشاعر ، وقال : إنا أعطيناك العمود ، فصل لربك على عود ، وأنا ضامن أن لا تعود !

ابن خازم وآخر — قال : وإنى لقاعد على مجلس عبد الله بن خازم وهو على الجسر ببغداد ، فإذا بجماعة قد أحاطت برجل ادّعى النبوّة ، فقدِّم إلى عبد الله ؛ فقال له : أنت نبى ؟ قال : نعم . قال : وإلى من بُعِثتَ ؟ قال : وما عليك ؟ بعثت إلى الشيطان ! فضحك عبد الله بن خازم وقال : دعوه يذهب إلى الشيطان الرجيم !

ابن أشرس وآخر — وقال ثمامة بن أشرس : كنت فى الحبس ، فأُدخل علينا رجل ذو هيئة وبزة ومنظر ، فقلت له : من أنت جُعلت فِداك ؟ وما ذنبك ؟ — وفى يدى كأس دعوت بها لأشربها — قال : جاءوا بى هؤلاء السفهاء لأنى جئت بالحق من عند ربى ، أنا نبىٌّ مرسَل ! قلت : جعلت فداك ! معك دليل ؟ قال : نعم ، معى أكبر الأدلة ؛ ادفعوا إلىّ امرأة أحبلها لكم ، فتأتى بمولود يشهد بصدق ! قال ثمامة : فناولتُه الكأس وقلت له : اشرب ، صلى الله عليك !

ابن عتاب وآخر

محمد بن عتاب قال : رأيت بالرقة أيامَ الرشيد جماعة أحاطت برجل ، فأشرفتُ عليه ، فإذا رجل له جَهارة وبنية ، قلت : ما قصة هذا ؟ قالوا : ادّعى النبوة . قلت : كذبتم عليه ، مثل هذا لا يدّعى الباطل ! فرفع رأسه إلىّ فقال : وما علمك أنهم قالوا علىّ الباطل ؟ قلت له : وأنت نبىّ ؟ قال : نعم . قلت له : ٥ ما دليلك ؟ قال : دليلى أنك ولدُ زنا ! قلت : نبىٌّ يقذف المحصنات ؟ قال : بهذا بُعثت ! قلت : أنا كافر بما بُعثت به ! قال : ومن كفر فعليه كفرُه . فإذا حصاة عائرة جاءت حتى صكت صلعته ، قال : ما رماها إلا ابنُ الزانية ، ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : ما أردتم بى خيراً حين طرحتمونى فى يدى هؤلاء الجهال .

المأمون وابن أكثم مع آخر

ادّعى رجلٌ النبوة فى أيام المأمون ، فقال ليحيى بن أكثم : امضِ بنا ١٠ مستترَين حتى ننظر إلى هذا المتنبئ وإلى دعواه . [قال يحيى] : فركبنا متنكرين ومعنا خادم ، حتى صرنا إليه ، وكان مستتراً بمذهبة ، فخرج آذنه وقال : من أنتما ؟ فقلنا : رجلان يريدان أن يسلما على يديه . فأذن لهما ودخلا ، فجلس المأمون عن يمينه ، ويحيى عن يساره ؛ فالتفت إليه المأمون فقال له : إلى مَن بُعثت ؟ قال : إلى الناس كافة . قال : فيوحَى إليك ، أم ترى فى المنام ، أم ١٥ يُنفَث فى قلبك ، أم تُناجَى ، أم تُكلَّم ؟ قال : بل أناجَى وأكلَّم . قال : ومن يأتيك بذلك ؟ قال : جبريل ، قال : فمتى كان عندك ؟ قال : قبل أن تأتينى بساعة ! قال : فما أوحَى إليك ؟ قال : أوحى إلىّ أنه سيدخل علىّ رجلان ، فيجلس أحدهما عن يمينى والآخر عن يسارى ؛ فالذى عن يسارى ألْوَطُ خلق الله ! قال المأمون : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ! ٢٠ وخرجا يتضاحكان .

ابن عياش ومتنبئ

تنبأ رجل بالكوفة وأحل الخمر ، ولقى ابنَ عياش ، وكان مغرما بالشراب ، فقال له : أشعرتَ أنه بُعث نبى يحلّ الخمر ؟ قال : إذاً لا يُقبل منه حتى يبرئ الأكمه والأبرص . وأتى به عامل الكوفة ، فاستتابه فأبى أن يتوب ويرجع ، فأتته أمه تبكى ، فقال لها : تنحَّىْ ربَط الله على قلبك كما ربط على قلب أم موسى !

وأتاه أبوه يطلب إليه ، فقال له : تنحَّ ياآزَر ! فأمر به العامل فقُتل وصُلب .

بعض الكوفيين مع آخر

وذكر بعض الكوفيين قال : بينا أنا جالس بالكوفة فى منزلى ، إذ جاءنى صديق لى ، فقال لى : إنه ظهر بالكوفة رجل يدعى النبوة ، فقم بنا إليه نكلّمه ونعرف ما عنده . فقمت معه ، فصرنا إلى باب داره ، فقرعنا الباب وسألنا الدخولَ عليه ، فأخذ علينا العهودَ والمواثيق إذا دخلنا عليه وكلمناه وسألناه ، ٥ إن كان على حق اتبعناه ، وإن كان على غير ذلك كتمْنا عليه ولم نؤذِه ؛ فدخلنا فإذا شيخ خراسانى أخبثُ من رأيت على وجه الأرض ، وإذا هو أصلع ؛ فقال صاحبى وكان أعور : دعنى حتى أسائله . قلت : دونك . قال : جُعلت فداك ، ما أنت ؟ قال : نبى ! قال : وما دليلك ؟ قال : أنت أعورُ عينك اليمنى ، فأقلع عينك اليسرى تصير أعمى ؛ ثم أدعو الله فيردّ عليك بصرك ! فقلت ١٠ لصاحبى : أنصفَك الرجل ! قال : فاقلع أنت عينيك جميعا ! وخرجنا نضحك .

المأمون وآخر

وأُتى المأمون بإنسانٍ متنبئ ، فقال له : ألك علامة ؟ قال : نعم . علامتى أنى أعلم ما فى نفسك . قال : قربتَ علىّ : ما فى نفسى ؟ قال له : فى نفسك أنى كذاب ! قال : صدقت ! وأمر به إلى الحبس فأقام به أياما : ثم أخرجه فقال : أُوحى إليك بشىء ؟ قال : لا . قال : ولم ؟ قال : لأن الملائكة لا تدخل ١٥ الحبس ! فضحك المأمون وأطلقه .

متنبئ اسمه نوح

وتنبأ إنسان وسمى نفسه نوحا صاحبَ الفُلْك ؛ وذكر أنه سيكون طوفان على يديه [يَهلِك به الناسُ] إلا من اتبعه ، ومعه صاحب له قد آمن به وصدّقه ؛ فأُتىَ به الوالى فاستتابه فلم يتب ، فأمر به فصلب ، واستتاب صاحبَه فتاب ؛ فناداه [المتنبئ] من الخشبة : يافلان ، أتسلمنى الآن فى مثل هذه الحالة ؟ فقال : ٢٠ يانوحُ قد علمت أنه لا يصحبك من السفينة إلا الصارى !

المأمون وثمامة مع متنبئ

قال : وحُمل إلى المأمون من أذربيجان رجل قد تنبأ ، فقال : يا ثمامة ، ناظِرْهُ . فقال : ما أكثر الأنبياء فى دولتك ياأمير المؤمنين ! ثم التفت إلى المتنبئ فقال له : ما شاهدك على النبوة ؟ قال : تحضر لى يا ثمامة امرأتك أنكحها

بين يديك ، فسلد غلاماً ينطق فى المهد يخبرك أنى نبى ! فقال ثمامة : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ! فقال المأمون : ما أسرع ما آمنتَ به ! قال : وأنت يا أمير المؤمنين ما أهون عليك أن تتناول امرأتى على فراشك ! فضحك المأمون وأطلقه .

أخبار الممرورين والمجانين

من أخبار عليان

قال أبو الحسن : كان بالبصرة ممرور يقال له عَليان بن أبى مالك ، وكانت العلماء تستنطقه لتسمع جوابه وكلامه ، وكان راوية للشعر بصيراً بجيده ؛ فذُكر عن عبد الله بن إدريس صاحب الحديث .

قال [ابن إدريس] : أخرجه الصبيان مرة حتى هجم علينا فى الدار ؛ فقال لى الخادم : هـذا عليان قد هجم علينا ، والصبيان فى طلبه . فقلت : ادفع الباب فى وجوه الصبيان ، وأخرجْ إليه طعاما وطبقا عليه رطب مُشان وملبقات وأرغفة . فلما وضعه بين يديه حمد الله وأثنى عليه ، وقال : هذا رحمةُ الله — وأشار إلى الطعام — كما أن أولئك من عذاب الله — وأشار إلى الصبيان — ثم جعل يأكل والصبيان يرجمون الباب ، وهو يقول : « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبله العذاب » ! قال : ابن إدريس : فلما انقضى طعامه قلت له يا عليان ، مالك تروى الشعر ولا تقوله ؟ قال : إنى كالمِسَنّ : أشحذُ ولا أقطع ! وكان بصيرا بالشعر ، فقلت : أى بيت تقوله العرب أشعر ؟ قال : البيت الذى لا يُحجب عن القلب . قلت : مثل ماذا ؟ قال : مثل قول جميل :

ألا أيها النُّوَّامُ ويحكم هُبُّوا ... أسائلُكُمْ : هل يَقتُلُ الرَّجلَ الحبُّ؟

قال : فأنشد النصف الأول بصوت ضعيف ، وأنشد النصف الآخر بصوت رفيع ؛ ثم قال : ألا ترى النصف الأول كيف استأذن على القلب فلم يأذن له ، والنصف الثانى استأذن على القلب فأذن له ؟ قلت : وماذا ؟ قال :

مثل قول الشاعر :

نَدِمْت على ما كان مُنذُ فقدتِنى ٭ كما نَدم المغبُون عين يَبيع

قال : ألا تستطيب قوله « فقدتنى » بالله يا ابن إدريس ؟ قلت : بلى . فضرب بيده على فخذى وقال : لم يثبت الله لك قرنك ! وابن إدريس يومئذ ابن ثمانين سنة .

وحُكى عنه ابن إدريس قال : مررت به فى مربعة كندة ، وهو جالس على رماد وبيده قطعة من جص وهو يخبط بها فى الرماد ؛ فقلت له : ما تصنع ههنا يا ابنَ أبى مالك ؟ قال : ما كان يصنع صاحبنا . قلت : ومن صاحبك ؟ قال : مجنون بنى عامر . قلت : وما كان يصنع ؟ قال : أما سمعتَه يقول :

عشيَّةَ مالى حيلةٌ غيرَ أننى ٭ بلقْطِ الحصى والجصِّ فى الدارِ مُولَعُ[1]

قلت : ما سمعتُه ! فرفع رأسه إلىّ متضاحكا ، فقال : ما يقول الله عز وجل ﴿ ألم تَرَ إلى ربِّكَ كيفَ مدّ الظِّلَّ ولو شاء لَجَعلهُ ساكناً ﴾ فأنت سمعته أو رأيته هذا كلام من كلام العرب ولا علم لك به .

قلت : يا بنَ أبى مالك ، متى تقومُ القيامة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، غير أنه من مات قامت قيامتُه .

قلت : فالمصلوبُ يعذَّب عذابَ القبر ؟ قال : إن حقت عليه كلمةُ العذاب يعذب ، وما يدريك لعل جسده فى عذاب من عذاب الله لا تدركه أبصارُنا ولا أسماعُنا ، فإن لله لطفاً لا يُدرك .

قلت : ما تقول فى النبيذ حلال أم حرام ؟ قال : حلال . قلت : أتشربه ؟ قال إن شربتُه فقد شربهُ وكيع ، وهو قدوة . قلت : أتقتدى بوكيع فى تحليله ولا تقتدى بى فى تحريمه ، وأنا أسنُّ منه ؟ قال : إن قولَ وكيع مع اتفاق أهل البلد عليه أحبُّ إلى من قولك مع اختلاف أهل البلدة عليك .

(١) ينسب هذا البيت لذى الرمة .

قلت : فما تقول فى الغناء ؟ قال : قد غنى البراء ابنُ عازب ، وعبد الله ابن رواحة ؛ وسمع الغناء عبد الله بن عمر ، وكان عبد الله بن جعفر ... قلت : أيش كان عبد الله بن جعفر ؟ قال : إنما سألتنى عن الغناء ولم تسألنى عن ضرب العيدان .

مجنون بالبصرة

٥ وكان بالبصرة مجنونٌ يأوى إلى دكان خياط ، وفى يده قصبة قد جعل فى رأسها أكرة ولف عليها خرقة ، لئلا يؤذى بها الناس ؛ فكان إذا أحرده الصبيان ، التفت إلى الخياط وقال له : قد حمى الوطيس ، وطاب اللقاء ! فما ترى ؟ فيقول : شأنك بهم . فيشد عليهم ويقول :

أشدُّ على الكتيبةِ لا أبالى * أحَتْفى كان فيها أمْ سِواها

١٠ فإذا أدرك منهم صبيا رمى بنفسه إلى الأرض وأبدى له عورته ، فيتركه وينصرف ؛ ويقول : عورة المؤمن حِمًى ، ولولا ذلك لتَلِفَت نفسُ عمرِو بن العاص يوم صفين ! ثم يقول وينادى :

أنا الرجُلُ الضَّرْبُ الذى يَعرفوننى * خَشاشٌ كرأسِ الحيَّةِ المُتوقِّدِ !

ثمّ يرجع إلى دكان الخياط ، ويُلقِ العصا من يده ويقول :

١٥ فألقت عَصاها وٱستَقرّت بها النَّوى * كما قَرّ عيناً بالإيابِ المُسافِرُ

مليان وتاجر بالبصرة

وكان بالبصرة رجلٌ من التجار يكنى أبا سعيد ، وكانت له جارية تدعى جيرين ، وكان بها كلِفا ، فمر يوما بمليان وقد أحاط به الناس ، فقالوا له : هذا أبو سعيد صاحب جيرين . فناداه : أبا سعيد ! قال : نعم . قال : أتحب جيرين ؟ قال : نعم . قال : وتحبك ؟ قال : نعم فأنشأ يقول :

٢٠ نُبِّئتُها عَشِقت حَشًا فقلت لهم * ما يَعشِقُ الحشَّ إلا كلُّ كَنّاسِ

فضحك الناس من أبى سعيد ومضى .

صباح الموسوس

ومر ابنُ أبى الزرقاء صاحب شرطة ابنِ أبى هبيرة بصَبّاح الموسوس ، فقال له : يا بن أبى الزرقاء ، أسمنت بِرْذَوْنَكَ ، وأهزلتَ دينَك ! أما والله إن أمامك عقبةً

لايجاوزها إلا المُخِفّ ! فوقف ابن أبي الزرقاء ، فقيل له : هو صَباح الموسوس .
قال : ماهذا بموسْوس !

بهلول المجنون

وقال إبراهيم الشيباني : مررت ببهلول المجنون وهو يأكل خبيصاً ؛ فقلت : أطعِمني . قال : ليس هو لى ، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة ، بعثته إلى لآكله لها .

وكان البهلول هذا يتشيع ، فقيل له : اشتُم فاطمة وأعطيك درهما ! فقال : بل أشتُم عائشة وأعطنى نصف درهم !

أمارات الحمق

وقال ابن عبد الملك : يُعرف حمقُ الرجل فى أربعٍ : لحيتِهِ ، وشناعةِ كنيته ، وإفراط شهوته ، ونقشِ خاتمه . فدخل عليه شيخ طويل العثنون ؛ فقال : أما هذا فقد أتاكم بواحدة ، فانظروا أين هو من الثلاث . فقيل له : ما كنيتُك ؟ قال : أبو الياقوت . قيل : فنقش خاتمك ؟ قال : وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد . قيل : أى الطعام تشتهى ؟ قال : خلنجبين .

ابن عبد العزيز ومجنون

وسمع عمر بن عبد العزيز رجلا ينادى : يا أبا العُمَرين ، فقال : لو كان عاقلا لكفاه أحدهما .

وقيل لداود المصابِ فى مصيبة نزلت به : لا تتهم الله فى قضائه . قال : أقول لك شيئا على الأمانة ؟ قال : قل . قال : والله مابى غيره !

من أخبار أبى عتاب

ودخل أبو عتّاب على عمرو بن هَذاب وقد كُفَّ بصره والناس يعزُّونه ؛ فقال له : أبا يزيد ، لا يسوءك فقدُهما ، فإنك لو درَيْت بثوابهما تمنيتَ أن الله قطع يديك ورجليك ودق عنقك .

ودخل على قوم يعود مريضا لهم ، فبدأ يُعزّيهم ! قالوا : إنه لم يمتْ ! فخرج وهو يقول : يموت إن شاء الله ! يموت إن شاء الله .

ووقع بين أبى عتاب وبين ابنه كلام ، فقال : لولا أنك أبى ، وأسنُّ منى لعرفت .

أبو حاتم عن الأصمعى عن نافع قال : كان الغاضرىّ من أحمق الناس .

فقيل له : ما رأيت من حُمْقِه ؟ فسكت ، فلما أكثر عليه قال : قال لى مرة : البحر من حفره ؟ وأين ترابه الذى خرج منه ؟ وهل يقدر الأمير أن يحفر مثله فى ثلاثة أيام ؟

الشعبى ورجل من الذوكى

ودخل رجل من الذَّوكى على الشعبى وهو جالس مع امرأته ، فقال : أيكم الشعبى؟ فقال [الشعبى] : هذه [وأشار إلى امرأته] ! فقال : ماتقول أصلحك الله فى رجل شتمنى أولَ يوم من رمضان ، هل يؤجَر ؟ قال : إن كان قال لك «يا أحمق» فإنى أرجو له .

الشعبى ومجنون آخر

وسأل رجل آخرُ الشعبيَّ فقال : ما تقول فى رجل فى الصلاة أدخل أصبعه فى أنفه فخرج عليها دمٌ ، أترى له أن يحتجم ؟ فقال الشعبى : الحمد لله الذى نقلنا من الفقه إلى الحجامة .

وقال له آخر : كيف تسمى امرأةَ إبليس ؟ قال : ذاك نكاحٌ ما شهدناه

صوفى فى أيام المهدى

العتبى قال : سمعت أبا عبد الرحمن بشراً يقول : كان فى زمن المهدى رجل صوفى ، وكان عاقلا عاملا ورعاً ، فتحمّق ليجد السبيل إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ وكان يركب قصبة فى كل جمعة يومين : الاثنين والخميس ، فإذا ركب فى هذين اليومين فليس لمعلم على صبيانه حكمٌ ولا طاعة ، فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان ، فيصعد تلًا وينادى بأعلى صوته : ما فعل النبيون والمرسلون ، أليسوا فى أعلى عليين ؟ فيقولون : نعم .

قال : هاتوا أبا بكر الصديق . فأُخذ غلام فأجلس بين يديه ؛ فيقول : جزاك الله خيراً أبا بكر عن الرعية ، فقد عدلت وقمت بالقسط ، وخلفت محمداً عليه الصلاة والسلام فأحسنت الخلافة ، ووصلت حبلَ الدين بعد حلٍّ وتنازع ، وفرغت منه إلى أوثقِ عُرْوة وأحسنِ ثقة ؛ اذهبوا به إلى أعلى عليين .

ثم ينادى : هاتوا عمر . فأُجلس بين يديه غلام ، فقال : جزاك الله خيراً أبا حفص عن الإسلام ، قد فتحت الفتوح ، ووسّعت الفىء ، وسلكت سبيل الصالحين ، وعدلت فى الرعية ؛ اذهبوا به إلى أعلى عليين بحذاء أبى بكر .

ثم يقول : هاتوا عثمان . فأُتِىَ بغلام فأُجلس بين يديه ، فيقول له : خلطت فى تلك السنين ، ولكن الله تعالى يقول : ﴿ خَلَطوا عملا صالحاً وآخَرَ سيِّئاً عسى اللهُ أن يتوبَ عليهم ﴾ ! ثم يقول : اذهبوا به إلى صاحبيه فى أعلى عليين !

ثم يقول : هاتوا علىَّ بن أبى طالب . فأُجلس غلام بين يديه ، فيقول : جزاك الله عن الأمة خيراً أبا الحسن ، فأنت الوصى وولىّ النبىّ ، بسطت العدل ، وزهِدْتَ فى الدنيا ، واعتزلت الفَىْء فلم تخمش فيه بناب ولاظفر ، وأنت أبو الذرية المباركة ، وزوج الزكية الطاهرة ؛ اذهبوا به إلى أعلى عليين الفردوس . ٥

ثم يقول : هاتوا معاوية . فأُجلس بين يديه صبىٌّ ، فقال له : أنت القاتل عمارَ بنَ ياسر ، وخزيمةَ بنَ ثابت ذا الشهادتين ، وحُجْرَ بن الأدبر الكندى الذى أخلقت وجهَه العبادة ؛ وأنت الذى جعل الخلافة مُلْكا ، واستأثر بالفىء ، وحكم بالهوى ، واستنصر بالظَّلمة ؛ وأنت أول من غيّر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونقض أحكامه ، وقام بالبغىْ ؛ اذهبوا به فأوْقِفوه مع الظلَمة ! ١٠

ثم قال : هاتوا يزيد . فأُجلس بين يديه غلام ، فقال له : يا قوّاد ! أنت الذى قتلت أهل الحرّة ، وأبحت المدينةَ ثلاثةَ أيام ، وانتهكت حُرَمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآويتَ الملحدين ، وبُؤْتَ باللعنة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتمثلتَ بشعر الجاهلية : ١٥

ليت أشياخى ببدرٍ شَهِدُوا * جَزَعَ الخَزْرَجِ من وقْعِ الأسَلْ

وقتلت حُسَيْناً ، وحملتَ بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا على حقائب الإبل ؛ اذهبوا به إلى الدرك الأسفل من النار . ٢٠

ولا يزال يذكر والياً بعد وال ، حتى بلغ إلى عمر بن عبد العزيز ، فقال : هاتوا عمر . فأتى بغلام فأجلس بين يديه ، فقال : جزاك الله خيرا عن الإسلام ، فقد أحييتَ العدل بعد موته ، وألنْتَ القلوب القاسية ، وقام بك عمودُ الدين

على ساق ، بعد شقاق ونفاق ؛ اذهبوا به فألحقوه بالصدّيقين .

ثم ذكر من كان بعده من الخلفاء إلى أن بلغ دولة بنى العباس ، فسكت فقيل له : هذا أبو العباس أميرُ المؤمنين . قال : فبلغ أمرنا إلى بنى هاشم ؟ ارفعوا حساب هؤلاء جملة واقذفوا بهم فى النار جميعا .

من أخبار عيناوة

٥ ومن مجانين الكوفة : عيناوة وطاق البصل . قيل لعيناوة : مَن أحسن ، أنت أو طاق البصل ؟ قال : أنا شئٌ وطاق البصل شىء .

من أخبار طاق البصل

وكان طاق البصل يغنى بقيراط ويسكت بدانق ، وكان عيناوة جيد القفا ، فربما مر به من يعبث فيصفعه ، فحشا قفاه خراء وقعد على قارعة الطريق ، فإذا صفعه أحد قال : شمّ يدك يافتى ! فلم يصفعه أحد بعد ذلك .

رجل وأحمق

١٠ ووعد رجلٌ رجلاً من الحمق أن يُهدِىَ له نعلا حضرمية ، فطال عليه انتظارُها فبال فى قارورة وأتى الطبيبَ وقال : انظر فى هذا الماء إن كان يُهدِىَ إلىّ بعضُ إخوانى نعلا حضرمية .

من أخبار بجيبة

وكان بالكوفة امرأة حمقاء يقال لها بجيبة فَفقدا عيناوةُ فتى كان أرضعتْه بجيبة ، فقال له لما وجده : كيف لا تكون أرعن وبجيبة أرضعتْك ؟ فوالله لقد زقّت لى فرخا فما زلت أرى الرعونة فى طيرانه !

١٥

هبنقة وجرنفش

ومن المجانين : هبنقة القيسى ، وجرنفش السدوسى ، واسم هبنقة : يزيد بن ثروان ، وكنيته : أبو نافع ، وكان يحسن من إبله إلى السمان ويسىء إلى المهازيل ، فسئل عن ذلك فقال إنما أكْرِم ما أكرم الله ، وأهينُ ما أهان الله .

وشرد بعير له ، فجعل بعيرين لمن دلّ عليه ، فقيل له : أتجعل بعيرين فى بعير ؟ قال : إنكم لا تعرفون فرحة من وجد ضالته !

٢٠

وافترس الذئب له شاة ، فقال لرجل : خلِّصها من الذئب وخذها ، فإن فعلت فأنت والذئب واحد .

وساوم رجل هبنقة بشاة فقال : اشتريتها بستة ، وهى خير من سبعة ، وأعطيت فيها ثمانية ، وإن أردتَها بتسعة ، وإلا فزن عشرة !

باقل

وكان باقل الذى يُضرب به المثل فى العىّ ، اشترى شاة بأحد عشر درهما فسئل : بكم اشتريتَ الشاة ؟ ففتح يديه جميعا وأشار بأصابعه وأخرج لسانه ، ليتمّ العدد أحد عشر .

الفرزدق والجرنفش

ولما قرّب الفرزدق رأسَ بغلته من الماء ، قال له الجرنفش : نحِّ رأسَ بغلتِك حلق الله شأفتك ! قال : لماذا عافاك الله ؟ قال لأنك كذوب الحنجرة زانى الكمرة ، فصاح الفرزدق : يابنى سدود . فاجتمعوا إليه ، فقال : سوِّدوا الجرنفش عليكم ، فما رأيت فيكم أعقلَ منه .

الجرنفش وهبنقة

قال الأصمعى : سُوبِقَ بين الجرنفش وهبنقة ، أيُّهما أجنُّ وأحمق ، فجاء جرنفش بحجارة خِفاف من جِص ، وجاء هبنقة بحجارة ثقال وترْس ، فبدأ الجرنفش فقبض على حجر . ثم قال : درِّى عقاب ، بلبن وأشخاب ! ثم رفع صوته وقال : الترس ! فرمى الترس فأصابه ، فانهزم هبنقة ، فقيل له : لم انهزمتَ؟ فقال : إنه قال : الترس ! ورمى الترس فلم يخطئه ، فلو أنه قال العين ورماها أما كان يصيب عينى ؟

ابن المعتمر وامرأة

وتبع داود بن المعتمر امرأة ظنَّها من الفواسد ، فقال لها : لولا مارأيتُ عليك من سيما الخير ما تبعتُك . فضحكت المرأة وقالت : إنما يعتصم مثلى من مثلك بسيما الخير . فأما إذا صارت سيما الخير من سيما الشر فاللهُ المستعان .

بينه وبين أخرى

ووقع داود هـذا بجارية ، فلما أمعن فى الفعل قال لها : أثيِّبٌ أم بِكْر ؟ فقالت له : سل المجرِّب !

بين غزوان وأمه

قالت أم غزوان الرقاشى لابنها ، وهو يقرأ فى المصحف : ياغزوان ، لعلك تجد فى هذا المصحف حمارا كان أبوك فى الجاهلية فَقَدَه ! فقال : ياأماه ، بل أجد فيه وعدا حسنا ووعيدا شديدا .

رجل من النوكى وشيخ فى الحمام

ونظر رجل من النوكى إلى شيخ فى الحمام وعليه سُرَّة كأنها مدهن عاج ، فقال له : ياشيخ ، دعنى أجعل ذكَرى فى سرّتك ! فقال له : يابن أخى ، وأين يكون استك حينئذ ؟

مجانين القصاص

لأبى دحية

قال أبو دحية القاص : ليس فىّ خير ولا فيكم ، فتبلّغوا بى حتى تجدوا خيرا منى .

وقال فى قصصه يوما : كان اسمُ الذئب الذى أكل يوسُفَ كذا ! قالوا : إن يوسف لم يأكله الذئب . قال : فهذا اسمُ الذئب الذى لم يأكل يوسف .

قاص ببغداد

وقال ثمامة بن أشرس ، سمعتُ قاصا ببغداد يقول : اللهم ارزُقنى الشهادة أنا وجميعَ المسلمين .

ووقع الذباب على وجهه ، فقال : مالكم ، كثّر الله بكم القبور .

قاص آخر

قال : ورأيت قاصا يحدّث الناس بقتل حمزة ، فقال : ولما بقرتْ هندٌ عن كبد حمزة استخرجتها فعضتها ولاكتها ولم تزدردها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لو ازدردتها ما مسّتها النار ! ثم رفع القاص يديه إلى السماء وقال : اللهم أطعِمْنا من كبِدِ حمزة

باب نوكى الأشراف

ابن زيد مناة

من النوكى المتقدمين : مالك بن زيد مناة بن تميم ، لما دخل على آمرأته ناجية مغضباً ، فلما رأت مابه من الجهل والجفاء قالت له : ضع شملتك . قال جسدى أحفظ لها ! قالت : آخلع نعليك . قال : رجلاى أحقُّ بهما ! فلما رأت ذلك قامت وجلست إليه ، فلما شم رائحةَ الطِّيب وثب عليها .

ابن لجيم

ومن النوكى : عجل بن لجيم ، قال أبو عبيدة : أرسل ابنٌ لعجل بن لجيم فرسا فى حلبة فجاء سابقا ، فقال لأبيه : كيف ترى أن أسمّيه يا أبت ؟ قال : افقأ إحدى عينيه و سمِّه الأعور .

قال الشاعر :

رمتْنى بنو عِجْلٍ بداء أبيهمُ ۞ وأىُّ عبادِ الله أنوَكُ من عِجْلِ؟

أليسَ أبُوهم عارَ عينَ جوادِه ۞ فأضحت به الأمثالُ تضربُ فى الجهلِ؟

دغـة — ومن بنى عجل : دُغَة التى يضرب بها المثل فى الحُمق، وقد ذكرنا نسبَها وخبرها فى كتاب الأمثال .

عبيد الله بن مروان — ومن نوكى الأشراف : عبيد الله بن مروان عمّ الوليد بن عبد الملك ، بعث إلى الوليد قطيفة حمراء ، وكتب إليه : إنى قد بعثتُ إليك قطيفة حمراء . فكتب إليه : قد وصلت القطيفة وأنت والله ياعمّ أحمقُ أحمق . ٥

معاوية بن مروان — ومنهم معاوية بن مروان ، وقف على باب طحان ، فرأى حماراً يدور بالرحا وفى عنقه جلجل ، فقال للطحان : لم جعلت الجُلجُل فى عُنق الحمار ؟ قال : ربما أدركتنى سآمة أو نعاس ، فإذا لم أسمع صوت الجلجل علمت أنه وقف فصحت به فانبعث . قال : أفرأيت إن وقف وحرك رأسه بالجلجل وقال هكذا وهكذا — وحرك رأسه — [فما عِلمُك أنه واقف] ؟ فقال له : ومن لى بحمار يكون عقله مثل عقل الأمير ؟ ١٠

وهو القائل وضاع له باز : أغلقوا أبواب المدينة لايخرج البازى !

وأقبل إليه قوم من جيرانه فقالوا : مات جارك أبو فلان ، فمُرْ له بكفن! فقال : ما عندنا اليومَ شيء ، ولكن عودوا إلينا إذا نُبش .

وأقبل إليه رجلٌ أحمقُ منه ، فقال له : تعيرُنا أصلحك الله ثوبا نكفن فيه ميتا ؟ قال : أخشى أنه يُنجسه ، فلا تلبسه إياه حتى يغسل ويطهر ! ١٥

عيينة بن حصن — ومن النوكى الأشراف : عيينة بن حصن ، دخل على عثمان بغير إذن ، وكانت عنده ابنته ، فقال له عثمان : ألا استأذنت ! قال : ما ظننت أن هنا من أحتاج أن استأذن عليه ؛ قال : ادنُ فتعشَّ . فقال : أنا صائم . قال : تصوم الليل وتفطر النهار ! وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسميه السفيه المطاع. ٢٠

أبان بن عثمان — ومن حمقى قريش : أبان بن عثمان بن عفان . قال الشعبي : قدم أبان على معاوية فقال : ياأمير المؤمنين ، زوّجنى ابنتك . قال : يا ابن أخى ، هما اثنتان : إحداهما عند ابن عامر ، والأخرى عند أخيك عمرو . قال : كنت أظن

أن لك ثالثة ! قال : يا ابن أخى ، تخطب إلىّ ولا تدرى لى بنت أم لا ! رحم الله أباك .

معاوية بن مروان أيضا

ومرّ معاوية بن مروان بحقل له فلم ير فيها ما يعجبه ؛ فقال : ما كذب من قال : كل حقل لاترى آست صاحبها لا تُفلح أبدا ، ثم نزل عن دابته وأحدث فيها ثم ركب . ٥

وهو الذى يقول لابى امرأته : ملأتنى البارحة ابنتُك دما ! قال : إنها من نسوة يخبأن ذلك لأزواجهن [وقال له أيضا يوماً آخر : لقد نكحت ابنتك بمصيبة ما رأت مثلها قط ! قال] : لو كنت خصيا ما زوّجناك ، وعلى الذى غرّنا بك لعنة الله !

أبو العاج

١٠ وكان أبو العاج واليا بواسط ، فأتاه صاحب شرطته بقوّادة ، فقال : ما هذه ؟ قال : قوادة ؛ قال : وما تصنع ؟ قال : تجمع بين الرجال والنساء ! قال : وإنما جئتنى بها لتعرّفها بدارى ؟ خلّ عنها لعنك الله ولعنها .

الربيع العامرى

وكان الربيع العامرى واليا باليمامة ، فأُتى بكلب قد عقَرَ كلبا ، فأقاده ؛ فقال فيه الشاعر :

١٥ شهدتُ بأنّ الله حقٌّ لِقاؤهُ ۞ وأنّ الربيعَ العامِرىّ رقيعُ
أقادَ لنا كلباً بكلْب فلم يَدَعْ ۞ دِماء كلابِ المسلمينَ تضيعُ

وقال عوانة : استعمل معاوية رجلا من كلب ، فذكر يوما المجوس وعنده النار ، فقال : لعن الله المجوس ينكحون أمّهاتهم ، والله لو أعطيت مائة ألف درهم ما نكحتُ أمى [فبلغ ذلك معاوية ، فقال قبحه الله أتَرَوْنه لو زادوا ٢٠ فعَل ، وعزَله] .

ثلاثة إخوة من بنى عتاب

وكان بالبصرة ثلاثة إخوة من بنى عتاب بن أسيد ، كان أحدهم يحج عن حمزة ويقول : استشهد قبل أن يَحُج ! وكان الآخر يضحّى عن أبى بكر وعمر ، ويقول أخطآ السُّنة فى ترك الأضحيـة ، وكان الثالث يُفطِرُ أيام التشريق عن عائشة ، ويقول : غلطت رحمها الله صومها أيام التشريق .

الرشيد ورجل من النوكى

ولعب رجل من النوكى بين يدى الرشيد بالشطرنج ، فلما رآه قد استجاد لعبه قال له : يا أمير المؤمنين ، ولِّنى نهر بوق . فقال له : ويلك ! أولّيك نصفه ، اكتبوا عهده على بوق . قال : فولّنى أرمينية . قال : إذاً يبطئ على أمير المؤمنين خبرُك .

أهل العى والجهل المشبهون بالمجانين

٥

ابن أبى سود

خطب وكيع بن أبى سود وهو والى خراسان ، فقال فى خطبته : إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أشهر ! فقالوا له : بل فى ستة أيام ! فقال : والله لقد قلتها وأنا أستقلها .

عدى بن زياد

وخطب عدى بن زياد الإيادى فقال فى خطبته : أقول لكم ما قال العبد الصالح لقومه : « ما أُرِيكم إلّا ما أرى وما أَهدِيكم إلّا سبيل الرّشادِ » فقالوا له : إن هذا ليس من قول العبد الصالح ، إنما هو من قول فرعون ! فقال : من قاله فقد أحسن !

١٠

ابن ورقاء

وخطب عتاب بن ورقاء الرياحى فقال : أقول لكم كما قال الله فى كتابه :

كُتِب القتْلُ والقتالُ علينا * وعلى الغانياتِ جَرُّ الذُّيولِ

والٍ باليمامة

وخطب والٍ باليمامة فقال فى خُطبته : إن الله تبارك وتعالى لا يعاون عباده على المعاصى ، وقد أهلك أمة عظيمة على ناقة ما كانت تساوى مائتى درهم . فسُمِّىَ مقوِّم الناقة .

١٥

ابن سنان

وبكى حول ابن سنان أولادُه وأهله حين ودّعوه وهو يريد مكة حاجا ؛ فقال : لا تبكوا ، فإنى أرجو أن أضحِّىَ عندكم !

كردم السدوسى

ودخل قوم دارَ كردم السدوسى فقالوا له : أين القبلة فى دارك هذه ؟ فقال : إنما سكنّاها منذ ستة أشهر .

٢٠

ودخل كردم السدوسى على رجل ، فدعاه إلى الغداء ؛ فقال : قد أكلت . قال : وما أكلت ؟ قال : قليل أرزٍ فأكثرت منه !

عتاق

وقيل لأبى عبد الملك عتاق : بأىّ شىء تزعمون أن أبا على الأسوارى أفضل من سلام أبى المنذر ؟ قال : لأنه لما مات سلام أبو المنذر مشى أبو علىّ فى جنازته ، فلما مات أبو علىّ لم يمش سلام فى جنازته !

كردم

ومرض كردم ، فقال له عمه : أىّ شىء تشتهى ؟ فقال : رأس كبشين ! قال : لا يكون . قال : فرأسى كبش ! قال : لا يكون : فقال : لست أشتهى شيئا .

٥

ابن طارق

وقال مسعدة بن طارق الذّرّاع : إنا لوقوفٌ على حدود دار نقسمها ، إذ أقبل عيص سيدُ بنى تميم والمصلى على جنائزهم ، ونحن فى خصومة لنصلح بينهم ؛ فقال : خبرونى عن هذه الدار ، هل ضم بعضها إلى بعض أحدٌ ؟ . . . فأنا منذ ستين سنة أفكّر فى كلامه فما أدرك له معنى ولا مجازا .

١٠

وأقبل كردم السدوسى إلى قوم ليكسر لهم دورا ، فوجد دارا منها فيها زنقة فقال : ليست هذه الدارُ لكم . فقالوا : بلى ، والله ما نازعنا أحدٌ قط فيها . قال : فليست الزنقة لكم . قالوا : فكسر ما صح عندك أنه لنا ودع الزنقة . فكسر صحن الدار ، فقال : عشرون فى عشرين مائتان ! قالوا : من هذا المعنى لم تكن الزنقة عندك لنا ؛ عشرون فى عشرين مائتان .

١٥

فرضى

وسئل آخر كان ينظر فى الفرائض عن فريضة لم يعرفها ، فالتمسها فى كتابه فلم يجدها ؛ فقال لم يمت هذا الرجل بعد ، ولو مات لوجدت فريضته فى كتابى .

وعزى قوماً فقال : أجركم الله وأعظم أجورَكم وأجرَكم ، فقيل له فى ذلك ، فقال : مثل قول مروان بن الحكم : بارك الله فيكم وبارك لكم وبارك عليكم .

٢٠

أبو إدريس السمان

وكان أبو إدريس السمان يكتب : فلا صحبك الله إلا بالعافية ، ولا حيا وجهك إلا بالكرامة !

رجل ووكيله

العتبى قال : بعث رجل وكيله إلى رجل من الوجوه يقتضيه ما عليه ، فرجع إليه مضروبا ؛ فقال : مالك ويلك ؟ قال : سبك فسببته فضربنى . قال : وبأى شىء

سبنى ؟ قال : [قال] : هن الحمار فى حِرِ أمّ الذى أرسلك ! قال له : دعنى من افترائه علىّ ؛ وأخبرنى أنت كيف جعلت لأير الحمار من الحرمة ما لم تجعل لحر أمى ؟ هلا قلت : أيرُ الحمار فى هن أمّ من أرسلك !

أبو نواس ووراق — وقال أبو نواس : قلت لأحد الوراقين الذين يكتبون بباب البطوقى : أيّما أسنّ أنت أم أخوك ؟ قال : إذا جاء رمضان استوينا ! ٥

المأمون وابن أشرس — قال ثُمامة بن أشرس للمأمون : مررت فى غِبّ مطر والأرض ندية والسماء متغيمة والريح شمال ، وإذا بشخص أصفر كأنه جرادة ، وقد قعد على قارعة الطريق ، وحجّامٌ يحجمه على كاهله وأَخدَعيه بمحاجم كأنها قِعاب وقد مص دمه حتى كاد يستفرغه ، فقلت : يا شيخ ، لم تحتجم فى هذا البرد ؟ قال : لهذا الصّفار الذى بى . ١٠

أبو عتاب وبره بأمه — وقيل لأبى عتّاب : كيف بِرُّك بأمك ؟ قال : والله ما قرعتُها بسوط قط !

النوكى من نساء الأشراف

بعضهن — دغة العجلية ، وجَهيزة ، وشبولة ، وذَراعة ، وسارية الليل ، وريطة بنت كعب ، وهى التى نقضت غزلها أنكاثا ، وفيها يقال فى المثل : خرقاء وجدت صوفا . ١٥

حمقاء — وقال عمرو بن عثمان : شيعت القاضى عبد العزيز بن عبد المطلب المخزومى قاضى مكة إلى منزله ، وبباب المسجد حمقاء تصفق بيديها وتقول :

* أَرّقَ عينىَّ ضُراطُ القاضى *

فقال لى : يا أبا حفص ، أتراها تعنى قاضى مكة ؟

من حكم المجانين — وقد يأتى لهؤلاء المجانين كلام نادر محكم لا يُسمع بمثله ، كما قالوا : ربّ رمية من غير رامٍ . ٢٠

قيل لدُغة : أى بنيكِ أحبّ إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يُفيق ، والغائب حتى يرجع .

ومن أخبار أهل العي المشبهين بالمجانين

أبو طالب

دخل أبو طالب صاحب الحنطة على هاشمية جارية حمدونة بنت الرشيد ، ليشترى طعاما من طعامهم ؛ فقال لها : قد رأيت متاعك وقلبته ، قالت له : هلا قلتَ طعامكِ يا أبا طالب ! قال : قد أدخلت يدى فيه فوجدته قد حَمِىَ وصار مثل الجيفة ، قالت : يا أبا طالب ، ألست قد قلّبت الشعير فأعطنا به ما شئت وإن كان فاسدا . ٥

رجلان من النوكى وعبد لهما

قال الأصمعى : كان بين رجلين من النَّوكى عبدٌ . فقام أحدهما يضربه ، فقال له شريكه : ما تصنع ؟ قال : أنا أضرب نصيبي منه ! قال : وأنا أضرب حصتى فيه ! وقام فضربه ؛ فكان من رأى العبد أن سَلَحَ عليهما وقال : اقسما هذه على قدر الحصص . ١٠

باكية على زوجها

ومرّ بعضُهم بامرأة قاعدة على قبر وهى تبكي ، فقال لها : ما هذا الميّتُ منك ؟ قالت : زوجى ! قال : وما كان عمله ؟ قالت : كان يحفر القبور ! قال : أبعَده الله ، أما علم أنه من حفر حفرة وقع فيها .

ابن أشرس ورجل من النوكى

وطلب رجل من النَّوكى من ثُمامة بن أشرس أن يُسلفه مالا ويؤخّره به ؛ قال : هاتان حاجتان ، وأنا أقضى لك إحداهما . قال : رضيت . قال : أنا أؤخرك ما شئتَ ولا أُسلفك . ١٥

امرأة أبي رافع وصيرفي

وكان ابو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وآلُ أبي رافع من فضلاء أهل المدينة وخيارهم ، مع بَلَه فيهم وعِيّ شديد ؛ فمن ذلك : أن امرأة أبي رافع رأته فى نومها بعد موته ، فقال لها : أتعرفين فلانا الصيرفى ؟ قالت له : نعم . قال : فإن لى عليه مائتى دينار . ٢٠

فلما انتبهت غدتْ إلى الصيرفى فأخبرته الخبر ، وسألته عن المائتى دينار ؛ فقال : رحم الله أبا رافع ، والله ما جرتْ بينى وبينه معاملة قط ! فأقبلت إلى مسجد المدينة ، فوجدت مشايخ من آل أبي رافع ، كلهم مقبول القول ، جائز

الشهادة ؛ فقصّت عليهم الرؤيا ، وأخبرتهم خبرها مع الصيرفى وإنكارَه لما ادّعاه أبو رافع ؛ قالوا : ماكان أبو رافع ليكذب فى نوم ولا يقظة ! قدِّمى صاحبك إلى السلطان ، ونحن نشهد لك عليه !

فلما علم الصيرفى عَزْم القوم على الشهادة لها ، وعلم أنهم إن شهدوا عليه لم يبرح حتى يؤدّيها ، قال لهم : إن رأيتم أن تصلحوا بينى وبين هذه المرأة ٥ على ما ترونه فافعلوا . قالوا : نعم والصلح خير ، ونِعْمَ الصلحُ الشطر ؛ فأدِّ إليها مائة دينار من المائتين ! فقال لهم : أفعل ، ولكن اكتبوا بينى وبينها كتابا يكون وثيقة لى . قالوا : وكيف تكون هذه الوثيقة ؟ قال : تكتبون لى عليها أنها قبضت منى مائة دينار صلحاً عن المائتى دينار التى ادّعاها أبو رافع علىّ فى نومها ، وأنها قد أبرأتنى منها ، وشرطتْ على نفسها أن لا ترى أبا رافع ١٠ فى نومها مرة أخرى ، فيدعى علىّ بغير هذه المائتى دينار ، فتجىء بفلان وفلان يشهدان علىّ لها ! فلما سمعوا الوثيقة انتبه القوم لأنفسهم ، وقالوا : قبحك الله وقبح ما جئتَ به .

عامر بن عبد الله

ومنهم عامر بن عبد الله بن الزبير ، أُتى بعطائه وهو فى المسجد ، فقام ونسيه فى موضعه ؛ فلما أتى البيت ذكره ، فقال : يا غلام ، ائتنى بعطائى الذى ١٥ نسيتُ فى المسجد ! قال : وأين يوجد وقد دخل المسجد بعدك جماعة ؟ وبقى أحد يأخذ ما ليس له ! ؟

وسُرقت نعله مرة ، فلم يلبس نعلا بعدها حتى مات ، وقال : أكره أن أتخذ نعلا يجىء من يسرقها فيأثم !

وفى هذا الضرب يقول أبو أيوب السختيانى : فى أصحابى من أرجو بركته ٢٠ ودعاءه ولا أقبلُ شهادتَه .

عابد فى بنى إسرائيل

قال الأصمعى : كان الشعبى يحدّث أنه كان فى بنى إسرائيل عابدٌ جاهل قد ترهّب فى صومعته ، وله حمار يرعى حول الصومعة ؛ فاطّلع عليه من الصومعة فرآه يرعى ، فرفع يده إلى السماء فقال : يارب ، لو كان لك حمار

كنت أرعاه مع حمارى وما كان يشق علىّ ! فهمّ به نبىٌّ كان فيهم فى ذلك الزمان ، فأوحى الله إليه : دَعهُ ، فإنما أثيب كل إنسان على قدر عقله .

ابن سيرين ومجنون

هشام بن حسان قال : أقبل رجل إلى محمد بن سيرين فقال : ما تقول فى رؤيا رأيتُها ؟ قال : وما رأيتَ ؟ قال كنت أرى أن لى غنما ، فكنت أُعطى بها ٥ ثمانيةَ دراهم ، فأبيت من البيع ففتحت عينى فلم أر شيئاً ، فأغلقتها ومددتُ يدى ؟ وقلت : هاتوا أربعة . فلم أُعطَ شيئا فقال له ابن سيرين : لعل القوم اطلعوا على عيب فى الغنم فكرهوها ! قال : يمكن الذى ذكرتَ :

شعراء المجانين

لبعضهم

منهم أبو ياسين الحاسب ، وجعيفران ، وجرنفش ، وأبو حية النميرى ، ١٠ وريسيموس ، وصالح بن شهرزاد الكاتب .

أبو حية

وكان أبو حية أجنَّ الناس وأشعرَ الناس ، وهو القائل :

ألا حىِّ أطلالَ الرسومِ البَوالِيا * لبِسنَ البِلَى مما لبِسْنَ اللَّياليا

إذا ما تقاضَى المرءَ يومٌ وليلةٌ * تقاضـاهُ أمْرٌ لايملُّ التقاضِيا

وهو القائل أيضاً :

١٥ فلأبعثَنّ مع الرِّياحِ قصيدةً * منى مُغلْغلةً إلى القَعْقـاع

تَرِد المنازِلَ لاتزالُ غَريبةً * فى القومِ بعد تمتُّع وسماع

وهو القائل أيضا :

فأبدتْ قِناعا دُونَه الشمسِ واتّقتْ

بأحسنِ موصولَيْنِ كفٍّ ومِعصمِ

جعيفران

٢٠ وأما جعيفران الموسوس الشاعر ، وهو من مجانين الكوفة ، فإنه لقى رجلا فأعطاه درهما وقال له : قل شعراً على الجيم فقال :

عادنى الهمُّ فاعْتَلَجْ * كلُّ همٍّ إلى فـرَجْ

سلِّ عنك الهمومَ بالـــكأسِ والراحِ تنفرِجْ

وهو القائل :

ما جعفرٌ لأبيـــهِ ٭ ولا له بشبيـــهِ

أضحى لقوْمٍ كثيرٍ ٭ فكلهُمْ يدَّعيـــهِ

هـــذا يقولُ بُنـيِّ ٭ وذا يُخاصمُ فيـــه ٥

والأمُّ تضحك مِنهم ٭ لعلمِها بأبيـــه

قال أبو الحسن : استأذن جيفران على بعض الملوك ، فأذن له ، وحضر غداؤه ، فتغذى معه ؛ فلما كان من الغد استأذن لحجبه ، ثم أتاه فى الثالثة لحجبه ، فنادى بأعلى صوته :

عليكَ إذنٌ فإنا قد تغذَّينا ٭ لسنا نعودُ ، وإن عُدنا تعدَّينا ١٠

يا أكْلَةً ذهَبتْ أبقَت حرارتُها ٭ داءً بقلْبكَ ماصُمْنا وصلَّينا !

العتبي قال : قال أبو وائل لأبى : إن فىَّ حماقة ، ولكن إن طلبتَ الشِّعر وجدت عندى منه علماً . قال : وهل تقول منه شيئا ؟ قال : نعم ، أقول أجود من قولك ، وأنا الذى أقول :

لو أنَّ جومَلَ كلَّمتْنى بعدَ ما ٭ نسِيَت جوانِحىَ البكاء وأقبَرُ ١٥

لحسِبتُ ميِّتَ أعظُمى سَيُجيبُها ٭ أو أنَّ باليهـا الرَّميمِ سيُنْشَرُ

قال له أبى : أما الشعر لحسن ، إلا أن اسم المرأة قبيح . قال : الآن اسم المرأة جُمل ، ولكنى ملحته بجومل ! فقال له : إن هذا من الحماقة التى برئ إلينا منها .

قال العتبي : قال أبى وأنشدنى أبو وائل :

ما أوجعَ البيْنَ من غريبٍ ٭ فكيف إنْ كان من حبيب ٢٠

يكادُ من شوقِه فؤادِى ٭ إذا تذكرْتُه يَموتُ

فقال له أبى : إن هـذا باء وهذا تاء . قال : لا تنقط أنت شيئا . قلت :

يا هذا إن البيت الأول مخفوض وهذا مرفوع . قال : أنا أقول لا تنقط ؛ وهو يشكل !

ولما توفيت أم سليمان بن وهب الكاتب ، أخى الحسن بن وهب ، دخل عليه رجل من نوكى الكتاب يسمى صالح بن شيرزاد ، بشعر يرثيها ٥ فيه ، فأنشده :

لِأُمِّ سُليمانٍ علينا مُصيبةٌ * مُغلْغلةٌ مثل الحُسامِ البواترِ

وكنتِ سِراجَ البيتِ يا أمَّ سالمٍ * فأمسى سراجُ البيتِ وسْط المقابرِ

فقال سليمان : ما نزل بأحد ما نزل بى : ماتت أمى ، ورُثيتُ بمثل هذا الشعر ونُقل اسمى من سليمان إلى سالم !

١٠ ومن قول صالح بن شيرزاد هذا :

لا تعدِلَنَّ دواءً بالنساء فإن * كان الضراك فذاك الآذريطوس[1]

ابو الواسع ومجنون

ودخل بعض شعراء المجانين على أبى الواسع وحوله بنوه ، فاستأذنه فى الإنشاد فاستعفى ، فلم يزل به حتى أذن له ؛ فأنشده شعراً ، فلما انتهى فيه إلى قوله :

١٥ وكيفَ تُتقَى وأنتَ اليوم رأسُهُمُ * وحولَكَ الغُرُّ من أبنائِكَ الصِّيد

قال له : لِيتك تركنا رأسا برأس .

ابن سيار ومجنون

وقيل : وفد أعرابى من شعراء المجانين إلى نصر بن سيار بشعر تغزل فيه بمائة بيت ، ومدحه ببيتين ؛ فقال له : والله ما تركت قافية لطيفة ولا معنى إلا شَغلت به نسيبَك دون مدحك . قال : سأقول غير هذا . فغدا عليه بشعر ٢٠ يقول فيه :

هل تَعرِفُ الدارَ لأمِّ الغمرِ * دع ذا وحَبِّرْ مِدحةً فى نَصرِ

فقال له نصر : لا ذا ولا ذاك .

---

(١) الآذريطوس : دواء يونانى معرب .

وقال بعض العلماء : ما شبّهتُ تأويل الرافضة فى قبح مذهبهم إلا بتأويل رجل من مجانين أهل مكة للشعر ؛ فإنه قال : ما سمعت بأكذب من بنى تميم ؛ زعموا أن قول القائل :

بيتٌ زُرَارةُ مُحْتبٍ بِفِنائِه * ومُجاشِعٌ وأبو الفوارِسِ نَهْشَلُ

... زعموا أن هذه أسماء رجال منهم ! قال بعض أهل الأدب : قلت له : وما عندك أنت فيه ؟ قال : البيت بيت الله ، وزرارة الحجر ، ومجاشع زمزم جَشِعت بالماء ، وأبو الفوارس هو أبو قبيس جبل مكة ! قلت له : فنهشل ؟ قال نهشل ... ؟ وفكر فيه ساعة ، ثم قال : قد أصبته ؛ وهو مصباح الكعبة طويل أسود : فذلك النهشل !

من أخبار مجانين دير هزقل

قال المبرد محمد بن يزيد النحوى : خرجنا من بغداد نريد واسطا ، فملنا إلى دير هِزْقِل ننظر إلى المجانين ، فإذا المجانين كلهم قد رأونا ، ونظرنا إلى فتى منهم قد غسل ثوبه ونظفه وجلس ناحية عنهم ؛ فقلنا : إن كان فهذا فوقفنا به ، فسلمنا عليه فلم يردّ السلام ؛ فقلنا له : ما تجد ؟ فقال :

اللهُ يعــلمُ أننى كَمِدُ * لا أستطيعُ أَبُثُّ ما أجِدُ

نفسانِ لى نفسٌ تضمّنها * بَلدٌ وأُخرى حازّها بَلد

وأرى المُقيمةَ ليس يَنفَعها * صبرٌ وليس بَفوقُها جَلَدُ

وأظُنُّ غائِبتى كشاهِدتِى * فكأنّها تجدُ الذى أجد

فقلت له : أحسنتَ والله ! فأومأ إلى شىء ليرمينا به ، وقال : أمثلى يقال له أحسنت ! قال : فولّينا عنه هاربين . فقال : أسألكم بالله ألا ما رجعتم حتى أنشدكم فإن أحسنتُ قلتم لى أحسنت ، وإن أسأت قلتم لى أسأت . قال : فرجعنا ووقفنا ، وقلنا له : قل . فأنشأ يقول :

لما أناخوا قُبيْلَ الصبحِ عِيسَهُم * ورحّلوها وسارتْ بالدُّمَى الإبِلُ

وقلّبتْ من خلالِ السّجفِ ناظرَها * تَرنو إلىّ ودَمعُ العينِ مُنهمِل

ودَّعتْ ببنانٍ عقْدَهُ عَنَمٌ * ناديتُ: لا حَمَلتْ رِجلاكَ يا جَمَلُ

ويْلى منَ البيْنِ! ماذا حَلَّ بى وبها * من نازلِ البينِ؟ حلَّ البينُ وارتحلوا

يا راحِلَ العيسِ عرِّج كى أُودِّعهُم * يا راحِل العيسِ فى ترحالِكَ الأجل

إنى على العهدِ لم أنقض مودَّتهم * ياليتَ شعرى بطولِ العهدِ ما فعلوا

٥ قال: فقلنا له: ماتوا! فصاح وقال: وأنا والله أموت! وتربع وتمدد فمات، فما برحنا حتى دفناه.

وقال محمد بن يزيد المبرِّد: دخلنا دير هِزْقل، فإذا بمجنون بيده حَجَر، وقد تفرّق الناس عنه، وهو يقول: يامعشر إخوانى، اسمعوا منى. ثم أنشأ يقول:

وذى نَفَسٍ صاعدٍ * يَئِنّ بلا عائدِ

١٠ يَكرُّ على جحفَلٍ * ويضعُفُ عن واحِدِ

وأنشد أبو العباس لمان الموسوس: (مان الموسوس)

لهُ وجَناتٌ فى بياضٍ وحُمرةٍ * لِفافاتُها بيضٌ وأوساطُها حُمرُ

رِقاقٌ يجولُ الماءُ فيها كأنها * زُجاجٌ أُريقت فى جَوانِبها الخمر

وقال محمد بن يزيد: أصابتنا سحابة جود، ثم أقلعت سريعا، فمر بى مان

١٥ الموسوس فقال:

لا تظنَّ الذى جرى * مطراً كانَ مُمطِرَا

إنما ذاكَ كلُّهُ * دمعُ عينى تحدَّرا

وتوالت غُيومُها * من هُمومى تفكّرا

هكذا حالُ من يَرى * من حبيبٍ تغيُّرا

٢٠ وقف مان الموسوس على أبى دلف، فأنشده:

كَرَاتُ عينِكَ فى العدَا * تُغنيكَ عن سَلِّ السُّيوفِ

فقال أبو دلف: والله ما مُدحت قط بمثل هذا البيت! وأمر له بعشرة آلاف درهم، فأبى أن يقبضها وقال: نقنع من هذا بنصف درهم فى هريسة.

ولمان الموسوس :

من الظباء ظِبـاءٌ همُّها السُّخُبُ * وحَلْيُها الدُّرُّ والياقوتُ والذهبُ
ياحُسْنَ ماسرَقت عيْني وما انتهبتْ * والعينُ تسرِقُ أحياناً وتنتهِب
إذا يدٌ سرقت فالحـدُّ يقطعهـا * والحدُّ فى سرقةِ العينين لا يجب

أبو الجهم ومبرسم ٥ ومرّ علىّ بن الجهم بمبرسم قد اجتمع الناس عليه ، وتحلّقوا حوله ؛ فلما رآه المبرسم قصد نحوه ، وأخذ بعنانه ، ثم أنشأ يقول :

لا تحلِفَنّ بمعشر الـ * ـهمج الذين أراهمُ
فوحقّ مَن أبْلَى بهم * نفسى ومن عافاهم
لو قِيس موتاهم بهم * كانوا همُ موتاهم

١٠ ثم نظر حوله فرأى غلاما جيل الهيئة حسن الوجه ، فشق ثيابه وقال :

هـذا السعيدُ لديهِمُ * قد صار بى أشْقاهمُ

أبو لخمة قال أبو البحترى الشاعر : كان يبلغنى أن ببغداد مجنونا يكنى أبا لخمة ، له بديهة حسنة ، فتعرضتُ له ، فأتيح لى لقاؤه فى بعض سكك بغداد ؛ فقلت له : كيف أصبحت أبا لخمة ؟ فأنشأ يقول :

١٥ أصبحتُ منك على شَفا جُرُفِ * متعرِّضـا لِموارِدِ التَّلَفِ
وأراك نحوِى غيرَ ملتفِتٍ * متحرِّفاً عن غيرِ مُنحرَف
يامَن أطال بهجرِه كَلَفى * أسفى عليك أشـدُّ من كلفى

قال أبو البحترى : فأخرجت له قبضة نرجس كانت فى كُمّى فحيّيته بها ، فجعل يشمها مليا ، ثم أنشأ يقول :

٢٠ لمّا تزوجتِ الجَنوبُ بهاطِلٍ * جَوْنٍ هَتونٍ زِبْرِجٍ دَلّاجِ
أضحى يُلقّحُها بوَسْمِى الصَّبا * فاستثقلت حَمْـلا بغيرِ نِكاحِ
حتى إذا حان المَخاضُ تفجّرتْ * فأتت بوِلدانٍ بلا أرواحِ

حاكَ الربيعُ لها ثياباً وُشِّيَت * بيد النَّدَى وأناملِ الأرواح

من أصفرٍ فى أزهر قد زانَهُ * تِبرٌ على ورقٍ من الأوضاح

رُكِّبْنَ فى عَمَدِ الزَّبَرْجدِ فاغتدَى * نحو الغـزالة ناظراً بِمِلاح

من شعرمانى قال الحسن بن هانئ : لقيت مانياً الموسوس ، فأنشدنى :

٥ شِعْرُ حىّ أتاك من لفظِ ميْت * صار بين الحياةِ والموتِ وقْفَا

قد بَرَتْ جسمَه الحوادثُ حتى * كاد عن أعيُنِ البَرِيَّةِ يَخفَى

لو تأمَّلْتَنى لِتُبْصِرَ شخصى * لم تبِنْ من المحاسنِ حَرْفا

من شعر جعيفران ثم مضيت فأتيت جعيفران الموسوس ، وهو شيخٌ من بنى هاشم أرتّ اللسان ، وعليه قيد من فضة ، وفى عنقه غل من ذهب ؛ فقال لى : من أين دبيت

١٠ ياحسن ؟ قلت : من بيت مانويه . فقال : فى حِرِ أم مانويه . فدعا بدواة وقرطاس ، وقال لى : اكتب :

ما غرَّد الديكُ ليلا فى دُجُنَّتِه * إلا حَثَثْت إليك السيْرَ مجهودَا

ولا هَدَتْ كلُّ عينٍ لَذَّ راقدُها * بنومةٍ فى لذيذِ العيشِ مَهْودا

إلا امتطيتُ الدُّجا شوْقاً إليك ولو * أصبحتُ فى حِلَقِ الأقيادِ مصْفودا

١٥ أسعى مُخاطرةً بالنَّفسِ يا أملى * والليلُ مُدَّرِعٌ أثوابَه السُّودا

فلم تَرِقَّ ولم تَرْثى لمُكْتَئِبٍ * زوَّدْتَه حركاتِ القلبِ تزويدا

هيهاتَ لا عدْرَ فى جنٍّ ولا بشرٍ * من الخلائق إلا فيك موجودا

من شعر عدرد ثم قال : خرق رقعة مانويه . فخرقتها ثم مضيت ، فلقيت عدرد المصاب وحوله الصبيان ، وهو يلطم وجهه ويبكى ، وينادى : أيها الناس ، الفراق مُرُّ

٢٠ المذاق ! فقلت له : أبا محمد ، من أين أقبلت ؟ قال : شيعتُ الحاج . قلت : وما الذى حملك علىّ تشييعهم ؟ فقال : لى فيهم سَكَن . قلت : فهل قلت فيهم شيئاً ؟ قال : نعم . وأنشدنى :

همُ رحلوا يومَ الخميس عشيّةً * فودّعتهم لمّا استقلوا وودّعوا

فلما تولَّوْا ولَّتِ النفسُ معْهُمُ * فقلتُ ارجعى قالت إلى أين أرجع؟

إلى جسدٍ ما فيـــه لحمٌ ولا دمٌ * وما هو إلا أعـــظُمٌ تتقعقعُ

وعينان قد أعياهُما كثرةُ البُـكا * وأُذْنٌ عصَت عُذالَها ليس تسمع

أديب ذاهب العقل

أبو بكر الوراق قال : حدثنى صديقٌ لى ؛ قال : رأيت رجلا من أهل الأدب قد ذهب عقله بالمحبة ، وخلفه دابة له تدور معه ، فاستوقفتُه وقلت له : يا فلان ، ما حالك ؟ وأين النعمة ؟ قال : تغير قلبى فتغيرتِ النعمة ! قلت : بم تغيَّر ؟ قال : بالحب ! ثم بكى وأنشأ يقول :

أرى التجمُّل شيئا لست أُحْسِنُه * وكيف أُخْفى الهوى والدَّمْعُ يُعْلِنُه

أم كيف صبْرُ مُحبٍّ قلبُه دَنِفٌ * الهجرُ يُنْحِلُه والشَّوْقُ يحزنه ؟

وإنه حـــين لا وصـلٌ يُساعِفُه * يَهوَى السُّلوَّ ، ولـكن ليس يُمْكِنُه

وكيف يَنسى الهوى مَنْ أنت هِمَّتُه * وفترةُ اللَّحْظِ من عينيك تَفْتِنُه ؟

فقلت : أحسنت والله ! فقال : قف قليلا ، فوالله لأطرحنّ فى أذنيك أثقلَ من الرصاص وأخف على الفؤاد من ريش الحواصل ! وأنشد :

للحبِّ نارٌ على عبْقٍ مُضَرَّمَةٌ * لم تبلُغِ النارُ منها عُشْرَ مِعْشارِ

الماءُ ينبُعُ منها من مَحاجرِها * يا لَلرِّجال لماءٍ فاض من نار !

ثم وقف وأنشد :

أعاد الصُّدودَ وأحيا العَليلا * وأبْدَى الجفاء فصبراً جميلا

ورَدّ الكتابَ ولم يَقْرَهُ * لئلَّا أردّ إليـه الرسولا

وأحسِبُ نفسى على ماترى * ستَلْقَى من الهَجر همًّا طويلا

وأحسِبُ قلبى على ما أرى * سيذهبُ منِّى قليلا قليلا !

ثم ترك يدى ومضى

وحكى أبو العباس المبرد قال : دخل عمرو بن مسعدة على المأمون وبين

يديه جام زجاج فيه سكر طبرزذ وملح جريش ؛ قال : فسلمتُ ، فرد وعرض علىّ الأكل ؛ فقلت : ما أُريد شيئا ، هنّأك اللهُ ياأمير المؤمنين ، فلقد باكرت بالغداء فإنى بتُّ جائعا . ثم أطرق ورفع رأسه وهو يقول :

اعرِضْ طعامَكَ وابْذُلْهُ لمنْ دخلا * واحلِفْ على مَن أبى، واشكرْ لمنْ أكلا

٥ فلا تكنْ سابرِىّ العِرضِ مُحتشِما * من القليلِ ، فلستَ الدهرَ مُحتفلا

ودعا برطل ؛ ودخل رجل من أجلة الفقهاء ، فمد يده إليه ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما شربتُها ناشئا ، فلا تسقنيها شيخا ! فردّ يده إلى عمرو بن مسعدة فأخذها منه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، اللهَ الله ! إنى عاهدت الله فى الكعبة أن لا أشربها أبداً ! ففكر طويلا ؛ والكأس فى يد عمرو بن مسعدة ، حتى لقد ظن

١٠ أنه سيأمر فيها ؛ ثم قال :

رُدّا علىّ الكأسَ إنّكما * لا تعلمانِ الكأسَ ما تُجْدِى

لو ذُقتما ماذقتُ ما امتزجت * إلا بدمعِكما مِنَ الوَجْدِ

خوفتُمانى اللهَ ربَّكما * وكخِيفتيه رجاؤُهُ عندِى

إنْ كُنتما لا تشربانِ معى * خَوْفَ العِقابِ شربتُها وحدِى!

١٥ محمد بن يزيد الأسدى قال : حدثنى حبيب بن أوس قال : كنت فى غرفة لى على شاطئ دجلة فى وقت الخريف ، فإذا بغلام كنت أعرفه بجمال ، قد تجرد من ثيابه وألقى نفسه فى الدجلة يسبحُ فيها ، وقد احمرّ جلدُه من برْد الماء ؛ وإذا مانى الموسوس يرمقه ببصره ، فلما خرج من الماء قال :

ابن أوس ومانى فى غلام

خمّشَ الماءُ جلدَهُ الرطبَ حتّى * خِلْتُهُ لابِساً غِلالةَ خَمْرِ

٢٠ قلت له : لعنك الله يا مانى ! أبَعْدَ الجهاد والغزو تحبّ غلاماً قد بات مؤخراً فى الحانات ؟ فقال لى : ليس مثلك يُخاطَب يا أحمق ، وإنما يخاطب هذا وأشار إلى السماء ، وقال :

بكفّيكَ تَقليبُ القلوبِ وإننى * لَفى تَرحٍ ممّا ألاقى فما ذَنْبى ؟

خلقْتَ وجوهاً كالمصابيحِ فتنة * وقلتَ اهجروها عزَّ ذلكَ مِنْ خطْبِ!

فإما أبحت الصبَّ ما قد خلقتهُ * وإما زجرتَ القلبَ عن لوعةِ الحبِّ !

أخذ هذا المعنى يزيد بن عثمان فقال :

أياربِّ تخلقُ ما تخلُقُ * وتنهى عبادَك أنْ يعشقوا ؟

إلهى،خلقتَ حسانَ الوجوهِ * فأىُّ عبادِك لا يَعشقُ

أبو بكر الموسوس

وقال أبو بكر الموسوس فى نصرانى : ٥

أبصرتُ شخصَكَ فى نومى يُعانقُنى * كما تُعانقُ لامُ الكاتبِ الألِفا

يامن إذا درّسَ الإنجيلَ ظلّ لهُ * قلبُ الحنيفِ عن الإسلامِ منصرفا !

وله فيه :

زُنّارُهُ فى خصرِهِ معقُودُ * كأنه مِن كبدى مقدُودُ

أخبار البخلاء ١٠

بخل أهل مرو، ولابن أشرس فيهم

أجمع الناس على بخل أهل مرو ، ثم أهل خراسان .

قال ثمامة بن أشرس : مارأيت الديك قط فى بلدة إلا وهو يدعو الدجاج ويثير الحب إليها ويلطف بها ، إلا فى مرو ، فإنى رأيته يأكل وحده ، فعلمت أن لؤمهم فى المآكل .

ورأيت فى مرو طفلا صغيرا فى يده بيضة ، فقلت له : أعطنى هذه البيضة . ١٥ فقال : ليس تسعُ يدُك ! فعلمت أن اللؤم والمنع فيهم بالطبع المركب والجبلّة المفطورة .

مروزى اشتكى سعالا

واشتكى رجل مروزىٌّ ضررا من سعال ؛ فدلّوه على سويق اللوز ، فاستثقل النفقة ورأى الصبر على الوجع أخف عليه ؛ فلم يزل يماطل الأيام ويدافع الأوقات حتى أُتيح له بعض الموفقين ، فدله على ماء النخالة ، وقال له : إنه يجلو الصدر . ٢٠ فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب ماءها ، فجُلا صدره .

ووجدهُ بعضهم ، فلما حضر غداؤه أمر به فرُفع إلى العشاء وقال لأم عياله

اطبخى لأهل بيتنا النخالة ، فإنى وجدت ماءها يعصم ويجلى الصدر فقالت له زوجته : قد جمع الله لك فى هذا الدواء دواء وغذاء !

لابن صبيح فى

وقال خاقان بن صبيح : دخلت على رجل ليلا من أهل خراسان فإذا هو قد أتى بمسرجة فيها فتيل رقيق ، وقد ألقى فى دهن المسرجة شيئا من ملح ، وقد علق فيها عودا بخيط معقود إلى المسرجة ، فإذا غشا المصباحُ أخرج به رأس الفتيل ؛ فقلت : ما بال هذا العود مربوطا ؟ فقال : هذا عود قد شرب الدهن ، فإذا لم نحفظه وضاع احتجنا إلى غيره فلا نجده إلا عطشان ، فإذا كان هذا دأبنا ضاع من دهننا فى الشهر بقدر كفايتنا ليلة .

قال : فبينا أنا أتعجب وأسأل الله العافية ، إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو ونظر إلى العود فقال : أبا فلان ، فررتَ من شيء ووقعتَ فيما هو شرٌ منه ؛ أما علمت أن الشمس والريح تأخذان من سائر الأشياء ؟ أو ليس [قد] كان البارحة هذا العودُ عند إطفاء السراج أروَى ؛ وهو عند إسراجك الليلة أعطَش ؟ قد كنت أنا جاهلاً مثلك زمانا ، حتى وفقنى الله إلى ما [هو] أرشد : أربط عافاك الله مكان العود إبرة كبيرة أو مسلة صغيرة ؛ فإن الحديد أبقى ، وهو مع ذلك غير نشاف ؛ والعود والقصبة ربما تعلقت بهما العشرة من قطن الفتيلة فتشخص معها ؛ وربما كان ذلك سببا لانطفائها ! قال الخراسانى : ألا وإنك لا تعلم أنك من المسرفين حتى تعمل بأعمال المصلحين !

للجزامى

قال الأصمعى : قال لى أبو محمد الجزامى ، واسمه عبد الله بن كاسب ، ونحن فى العسكر ؛ إن للشيب سُهْكَة وبياض الشعر الأسود هو موته ، كما أن سواده حياتُه ، ألا ترى أن موضع دبَرةِ الحمار الأسود لاينبت فيها إلا شعر أبيض ، والناس لايرضون منا فى هـذا العسكر إلا بالعناق والمشامة والطيب غال ممتنع الجانب ، فلست أرى شيئا هو أحسن بنا من اتخاذ مشط صندل ؛ فان ريحه طيّبة ، والشعر سريع القبول [منه] ؛ وأقل ما تصنع أن ماينفى سَهَك الشيب ؛ حتى يكون حالٌ لا لنا ولا علينا .

لابن أشرس

وكان ثمامة بن أشرس يقول : إياكم وأعداء الخبز أن تأتدموا بها ، واعلموا أن أعدى عدوّ له المملوك ، فلولا أن الله أعان عليه بالماء لأهلك الحرث والنسل !

وكان يقول : كلوا الباقلاء بقشره ، فإن الباقلاة تقول : من أكلنى بقشرى فقد أكلنى ، ومن أكلنى بغير قشرى فقد أكلته ! ٥

من بخل هشام ابن عبد الملك

ومن البخلاء هشام بن عبد الملك : قال خالد بن صفوان : دخلت على هشام فأطرفته وحدثته ، فقال : سل حاجتك . فقلت : يا أمير المؤمنين ، تزيد فى عطائى عشرة دنانير . فأطرق حينا وقال : فيم ؟ ولم ؟ وبمَ ؟ ألعبادة أحدثتَها أم لبلاء حسن أبليتَه فى أمير المؤمنين ؟ ألا لا يآبن صفوان ، ولو كان لكَثُرَ السؤال ولم يحتمله بيت المال ! فقلت : وفقك الله يا أمير المؤمنين وسدد ؛ فأنت والله كما قال أخو خزاعة : ١٠

إذا المالُ لم يوجبْ عليك عطاءهُ ٭ صنيعةَ قرْبَى أو صديقٌ توافقهْ
مَنعت وبعضُ المنعِ حزمٌ وقوّةٌ ٭ ولم يستلِبْكَ المالَ إلا حقائقهْ

قيل لخالد بن صفوان : ما حملك على تزيين البخل له ؟ قال : أحببت أن يمنع غيرى فيكثُر من يلومه . ١٥

وخرج هشام بن عبد الملك متنزها ومعه الأبرش الكلبي ، فمر براهب فى دير ، فعدل إليه ، فأدخله الراهب بستانا له ، وجعل يجتنى له أطايبَ الفاكهة ؛ فقال له هشام : ياراهب ؛ بعنى بستانك ! فسكت عنه الراهب ، ثم أعاد عليه ، فسكت عنه ؛ فقال له : مالك لاتجيبنى ؟ فقال : وددت أن الناس كلهم ماتوا غيرَك ! قال : لماذا ويحك ؟ قال : لعلك أن تشبعَ ! فالتفت هشام إلى الأبرش ٢٠ فقال : أما سمعتَ ما قال هذا ؟ قال . والله إن لقيَك حرٌّ غيرُه .

من بخل ابن الزبير

ومن البخلاء عبد الله بن الزبير ، وكانت تكفيه أكلةٌ لأيام ، ويقول : إنما بطنى شِبر فى شبر ، فما عسى أن تكفيه أكلة .

وقال فيه أبو وجرة مولى الزبير :

لو كان بطنُكَ شِبراً قد شَبِعتَ وقد ، أبقَيتَ فضلًا كثيراً للمساكينِ
فإن تُصِبْك منَ الأيامِ جائحةٌ ، لمْ نبْكِ منك على دُنيا ولا دِينِ
ما زلتَ فى سورةِ الأعرافِ تدرُسُها ، حتى فؤادى كمِثْلِ الخزِّ فى اللِّين
٥ إنّ امْرَأً كنتُ مولاهُ فضيّعنى ، يَرْجُو الفَلَاحَ لَعبدٌ عيْنُ مغبونِ

وابن الزبير هو الذى قال : أكلتم تمرى وعصيتم أمرى ! فقال فيه الشاعر :

رأيتُ أبا بكرٍ ، وربُّك غالبٌ ، على أمرِهِ ، يبغى الخلافة بالتَّمْرِ!

وأقبل إليه أعرابىٌّ فقال : أعطنى وأقاتل عنك أهل الشام . فقال له :
١٠ اذهب فقاتل ، فإن أغنيتَ أعطيناك ! قال : أراك تجعلُ روحى نقدا ودراهمك نسيئة !

وأتاه أعرابى يسأله جملا ، ويذكر أن ناقته نقِبت ؛ فقال : آنعلها من النعال السبتية ، وآخصفها بهُلْب ! قال له الأعرابى : إنما أتيتُك مستوصلا ولم آتِكَ مستوصفاً ؛ فلا حُملتْ ناقةٌ حملتنى إليك ! قال : إنّ وصاحبَها .

١٥ ومن رؤساء أهل البخل محمد بن الجهم ، وهو الذى قال : وددت أن عشرة من الفقهاء ، وعشرة من الشعراء ، وعشرة من الخطباء ، وعشرة من الأدباء — تواطئوا على ذمّى ، واستهلوا بشتمى ، حتى يُنشر ذلك عنهم فى الآفاق ، حتى لا يمتدّ إلىّ أمَلُ آمِلٍ ، ولا ينبسط نحوى رجاءُ راجٍ .

من بخل ابن الجهم

وقال له أصحابه : إنما نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك ، فلو جعلت
٢٠ لنا علامة نعرف بها وقت استحسانك اقيامنا ! قال : علامة ذلك أن أقول : يا غلام ، هاتِ الغداء .

وذكر ثمامةُ بن أشرس محمد بن الجهم فقال : لم يطمع أحدٌ قط فى ماله إلا شغَله عن الطمع فى غيره ، ولا شفع فى صديق ، ولا تكلم فى حاجة مُحْرِم ، إلا ليلقن

المسئول حُجّة المنع ، ويفتح على السائل باب الحرمان!

من بخل ابن أبي حفصة

ومن البخلاء اللئام مروان بن أبى حفصة الشاعر ؛ قال أبو عبيدة عن ابن الجهم قال : أتيت اليمامة فنزلت على مروان بن أبى حفصة ، فقدّم إلىّ تمرا ، وأرسل غلامَه بفلس وسكرُّجة يشترى زيتاً ، فأتى الغلام بالزيت ، فقال له : خنتَنى وسرقتنى ! قال : وفيم كنت أخونك وأسرقك فى فلس ؟ قال : أخذت الفلس لنفسك واستوهبت الزيت . ٥

من بخل الصيرفى

ومن البخلاء : زبيدة بن حُميد الصيرفى ؛ استلف من بقال على بابه درهمين وقيراطا ، فمطله بها ستة أشهر ، ثم قضاه درهمين وثلاث حبات [شعير] ؛ فاغتاظ البقال وقال : سبحان الله ! أنت صاحب مائة ألف دينار ، وأنا بقال لا أملك مائة فَلس ، وإنما أعيش بكدى ، وأستقضى الحبة فى بابك والحبتين ؛ صاحَ على بابك حال ، [والمالُ لم يحضُرْك] ولا يحضر تلك الساعة وكيلُك ، فأعنْتك وأسلفتُك درهمين وأربع شعيرات ، فتقضينى بعد ستة أشهر درهمين وثلاث شعيرات ؟ فقال زبيدة : يا مجنون ، أسلفتنى فى الصيف وقضيتك فى الشتاء ، وثلاث شعيرات شتوية أوْزَنُ من أربع صيفية ؛ لأن هذه ندية وتلك يابسة ، وما أشك أن معك بعد هذا كله فضلا ! ١٠ ١٥

الأصمعى فى بخيل

قال الأصمعى : كنت عند رجل من ألأم الناس وأبخلهم ، وكان عنده لبن كثير ، فسمع به رجل ظريف ، فقال : الموت أو أشرب من لبنه ! فأقبل مع صاحب له ، حتى إذا كان بباب صاحب اللبن ، تغاشَى وتماوت ، فقعد صاحبه عند رأسه يستر.ـع ، فخرج إليه صاحب اللبن ؛ فقال ما باله يا سيدى ؟ قال : هذا سيد بنى تميم ، أتاه أمر الله ههنا . وكان قال لى : اسقنى لبناً ! قال صاحب اللبن : هذا هين موجود ؛ ائتنى يا غلام بعلبة من لبن . فأتاه به فأسنده صاحبُه إلى صدره وسقاه ، حتى أتى عليها ، ثم تجشأ ، فقال صاحبه لصاحب اللبن : أترى هذه الجشأة راحة الموت ؟ قال : أماتك الله وإياه ! ٢٠

ومن أمثال العرب فى البخل قولهم : ما هو إلا أبنة عصا أو عقدة رِشاء ؛

لأن عقدة الرِّشاء المبلول لا تكاد تنحل .

لمدنية

قيل لمدنية : ما الجرحُ الذى لا يندمل ؟ قالت : حاجةُ الكريم إلى اللئيم ثم يرده ! قيل لها : فما الذل ؟ قالت : وقوف الشريف بباب الدنىء ثم لا يؤذن له ! قيل لها : فما الشرف ؟ قالت : اتخاذ المِنن فى رقاب الرجال .

لبعض العرب

٥ والعرب تقول لمن لم يظفر بحاجته وجاء خائبا : جاء فلان على غُبيراء الظهر وجاء على حاجبه صوفة ، وجاء بخُفَّىْ حنين .

للسندى فى ابن هبيرة

وقال أبو عطاء السندى ، فى يزيد بن عمر بن هبيرة :

ثلاثٌ حُكْتُهُنّ لقَرْم قيس ۞ طَلَبْتُ بها الأُخوّةَ والسّناء

رجعْنَ على حواجبهنّ صُوفٌ ۞ وعندَ الله أحتَسِبُ الجزاء

١٠ طعام البخلاء

المروزى وزواره

قال الأصمعى : كان المروزىُّ يقول لزواره إذا أتوه : هل تغدّيتم اليوم ؟ فإن قالوا : نعم . قال : والله لولا أنكم تغديتم لأطعمتكم لونا ما أكلتُم مثله ، ولكن ذهب أولُ الطعام بشهوتكم ! وإن قالوا : لا . قال : والله لولا أنكم لم تتغدوا لسقيتكم أقداحاً من نبيذ الزبيب ما شربتم مثله ! فلا يصير فى أيديهم ١٥ منه شىء .

من بخل ثمامة

وكان ثمامة إذا دخل عليه أصحابه وقد تعشّوا عنده قال لهم : كيف كان مبيتكم ومنامكم ؟ فإن قال أحدهم إنه نام ليلته فى هدوء وسكون ، قال : النفس إذا أخذت قوتها اطمأنت ! وإذا قال أحدهم إنه لم ينم ليلته قال : إنه من إفراط الكِظّة والإسراف من البطنة ! ثم يقول : كيف كان شربُكم للماء ؟ فإن قال ٢٠ أحدهم : كثيراً . قال : التراب الكثير لا يبله إلا الماء الكثير وإن قال : قليلا . قال : ما تركت للماء مدخلا !

وكان إذا أطعم أصحابه استلق على قفاه ثم يتلو قوله تعالى : ﴿ إنما نُطعِمكم لوجهِ الله لا نُريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً ﴾ .

ودخل عليه رجل وبين يديه طبق فراريج ، فغطى الطبق بذيله ، وأدخل رأسه فى جيبه ، وقال للرجل الداخل : أدخل فى البيت الآخر حتى أفرغ من بَخُورى .

أبو جعفر

وشُوِىَ لأبى جعفر الهاشمى دجاج ففقد فخذاً من دجاجة ، فأمر فنودى فى منزله : من هذا الذى تعاطى فعقر ؟ والله لا أخبز فى التنور شهراً أو تُرَدّ ! فقال ابنه الأكبر : يا أبت ، لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا . ٥

سهل بن هارون

وقال دعبل الشاعر : كنا يوماً عند سهل بن هرون ، فأطلنا الحديث حتى أضرَّ به الجوع ، فدعا بغدائه ، فإذا بصحفة عُدْمُلِيَّة فيها مرق لحم ديك قد هرِم ، لا تحز فيه السكين ، ولا تؤثر فيه الضرس ؛ فأخذ قطعة خبز فقلب بها جميع ما فى الصحفة ، ففقد الرأس ، فأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه إلى الغلام ، وقال : أين الرأس ؟ قال : رميتُ به . قال : لِمَ ؟ قال : لم أظنك تأكله ولا تسأل عنه . ١٠ قال : ولأى شىء ظننتَ ذلك ؟ فوالله إنى لأبغض من يرمى برجله فضلا عن رأسه ، والرأس رئيس الأعضاء ، وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ! وفيه العين التى يضرب بها المثل فى الصفاء ، فيقال : شراب مثل عين الديك ؛ ودماغه عجيب لوجع الكلية ، ولم يُرَ قط عظم أهش من عظم رأسه ، فإن كان ١٥ بلغ من جهلك أن لا تأكله فعندنا من يأكله ، انظر أين هو ؟ قال : والله ما أدرى أين رميتُه . قال : لكنى والله أدرى ، رميتَ به فى بطنك !

زياد بن عبد الله

وأهدى رجل من قريش لزياد بن عبيد الله وهو على المدينة طعاماً فثقل عليه ذلك ، فقال : اجمعوا المساكين وأطعموهم إياه ! فجمعوا ، وكشف عن الطعام ، فإذا طعام له بال ، فندم على الإرسال للمساكين ، وقال للغلام : انطلق ٢٠ إلى هؤلاء المساكين وقل لهم : إنكم تجتمعون فى المسجد فتفسون فيه فتؤذون الناس ! لا أعلم أنه اجتمع فيه منكم اثنان !

عبد الله بن يحيى

وقال : دخلت على عبد الله بن يحيى بن خالد بن أمية ، وقوم يأكلون عنده ، فمدّ يده إلى رغيف من الخوان فرفعه ، وجعل يَرطُله بيده ويقول : يزعمون

أن خبزى صغير ؟ فمن هذا الزانى ابن الزانية الذى يأكل نصف رغيف منه .

قال : ودخلت عليه يوماً والمائدة موضوعة ، والقوم يأكلون ، وقد رفع بعضهم يده ، فمددتُ يدى لآكل ، فقال : اجهز على الجرحى ، ولا تتعرض للأصحاء ! يقول : تعرّض للدجاجة التى قد نِيل منها ، والفرخ المأخوذ منه ؛ فأما الصحيح فلا تتعرض له . هذا معناه فى الجرحى [والأصحاء] .

٥

جبن فى بخيل

وسأل يحيى بن خالد أبا الحارث جُمّين عن طعام رجل ، فقال : أما مائدته فقبّبة ، وأما صحافه فمخروطة من حب الخردل ، وبين الرغيف والرغيف فترة نبى . قال : فمن يحضرها ؟ قال : الكرامُ الكاتبون . قال : فمن يأكل معه ؟ قال : الذباب . قال له يحيى : وأرى ثوبك مخرقا ، أفلا يكسوك ثوباً وأنت فى صحبته ؟ قال : جُعلتُ فداك ، والله لوملك بيتا من بغداد إلى الكوفة مملوءا إبرا ، وفى كل إبرة منها خيط ، وجاءه يعقوب يسأله إبرة منها يَخيط بها قميص يوسفَ ابنه الذى قدّ من دُبُر ، ومعه جبريل وميكائيل يضمنان عنده ، لم يفعل .

١٠

لابن مسلمة

أخذ هذا المعنى محمد بن مسلمة ، فقال يهجو ابن الأغلب :

لو أنّ قصرَك يا ابنَ أغلبَ كلَّهُ * إبرٌ يضيقُ بهن رحْبُ المنزلِ

١٥

وأتاكَ يوسفُ يستعيرُكَ إبرةً * ليخيطَ قدّ قميصِهِ لم تفعلِ !

وقيل لجمّين : أتغذيت عند فلان ؟ قال : لا ، ولكننى مررت به يتغذى ! قيل : فكيف علمت أنه يتغذى ؟ قال رأيتُ غلمانه ببابه فى أيديهم قسى البندق يرمون الذباب فى الهواء !

وقال أبو الحارث جُمّين : دخلتُ على فلان ، فوضع بين أيدينا مائدةً ـ كنا أشوقَ إلى الطعام إذ رفعت منا إليه إذ وُضعت ـ !

٢٠

أعرابى على مائدة هشام

وحضر أعرابى سُفرة هشام بن عبد الملك ، فبينا هو يأكل إذ تعلقت شعرة فى لقمة الأعرابى ، فقال له هشام : عندك شعرة فى لقمتك يا أعرابى ! قال :

وإنك لتلاحظنى ملاحظة من يرى الشعرة فى لقمتى ! والله لا أكلت عندك أبدا !
وخرج وهو يقول :

وللموتُ خيرٌ من زيارةِ باخلٍ * يُلاحِظُ أطرافَ الأكيلِ على عَمْدِ

لبعض الشعراء
وقال آخر :

ولو عليكَ اتّكالى فى الغداء إذاً * لكُنتُ أوّلَ مقتول من الجوع ٥
يَقولُ عِنـــدَ دُعاءِ الضَّيفِ مُبتدِئاً * صوت ضعيفٌ وداعٍ غيرُ مَسمُوعِ

المغيرة وبخله
قال المدائنى : كان للمغيرة بن عبد الله الثقفى وهو والى الكوفة ، جدىٌ يوضع على مائدته بعد الطعام ، لا يمسه هو ولا أحد ممن يحضر ، فحضر مائدتَه أعرابىّ ، فبسط يده ، وأسرع فى الأكل ، فقال : يا أعرابى ، إنك لتأكل الجدى بحرد كأنّ أمه نطحتْك ، فقال له الأعرابى : أصلحك الله ، وأنت تُشفِق عليه كأنّ أمّه ١٠ أرضعتك ! ثم بسط الأعرابى يده إلى بيضة بين يده ، فقال : خذها فإنها بيضة العُقر ! فلم يحضر طعامه بعد ذلك.

أشعب ووالى المدينة
ودخل أشعب على والى المدينة ، فحضر طعامه ، وكان له جدىٌ على مائدته يتحاماه كل من حضر ، فبدر إليه أشعب فمزقه ، فقال له : يا أشعب ، إن أهل السجن ليس لهم إمامٌ يصلى بهم ، فإن رأيت أن تكون لهم إماما تصلى بهم ، ١٥ فإن فى ذلك أجرا ! فقال : والله ما أحبُّ هذا الأجر ، ولكن زوجتى طالق إن أكلت لحم جَدْيٍ عندك حتى ألقى الله !

الكندى
قال عمرو بن ميمون : تغدّيت يوما عند الكندى ، فدخل عليه رجل كان جاراً وصديقا لى ، فلم يَعرض عليه الطعام ، ونحن نأكل ، فاستحييت أنا منه ، فقلت : سبحان الله ، لو دنوتَ فأصبتَ معنا ! قال : قد والله فعلتُ . قال ٢٠ الكندى : ما بعد الله شىء ! قال : فكتفَه والله كِتافاً لو بسط يده لأكلٍ بعده لكان كافرا !

قال : ومررت ببعض طرق الكوفة ، فإذا أنا برجل يخاصم جاراً له ، فقلت :

ما بالُكما ؟ فقال أحدهما : إن صديقا لى زارنى واشتهى علىّ رأسا ، فاشتريته له وتغدينا ، فأخذتُ عظامه فوضعتها عند باب دارى أتجمل بها عند جيرانى ، فجاء هذا وأخذها ووضعها على باب داره ، يوهم الناس أنه هو الذى أكل الرأس .

بخيل وولده

قال رجل من البخلاء لولده : اشتروا لى لحما ، فاشتروا له ، وأمر بطبخه حتى تهرّأ ، فأكل منه حتى انتهت نفسه [ولم يبق إلا العظم] ، وشرعت إليه عيون ولده ، فقال : ما أنا مطعمُه أحداً منكم إلا من أحسن صفة أكله ! فقال الأكبر : أتعرّقه يا أبت ، حتى لا أدع للذرّة فيه مقيلا ! قال : لست بصاحبه ! فقال الأوسط : أتعرّقه يا أبت حتى لا يُدرَى ألعامه هو أم لعام أول ! قال : لست بصاحبه ! فقال الأصغر : أتعرّقه يا أبت ، ثم أدقه دقا ، وأسفه سفا ؟ قال : أنت صاحبُه ، وهو لك دونهم .

الثورى

وقال عمرو بن بحر الجاحظ : كان أبو عبد الرحمن الثورى يعجبه الرءوس ويصفها ، وكان يسمّى الرأس عرساً لما فيه من الألوان الطيبة ، وربما سماه الكامل والجامع ؛ ويقول : الرأس شىء واحد ، وهو ذو ألوان عجيبة وطعوم مختلفة ، والرأس فيه الدماغ ، وطعمه مفرد ، وفيه العينان ، وطعمهما مفرد ، والشحمة التى بين أصل الأذن ومؤخر العين ، وطعمها مفرد ، على أن هذه الشحمة خاصة أطيبُ من المخ ، وأرطب من الزبد ، وأدسم من السلاء ؛ وفى الرأس اللسان ، وطعمه مفرد ، والخيشوم ، والغضروف ، ولحم الخدين ، وكل شىء من هذه طعمه مفرد ؛ والرأس سيد البدن ، والدماغ هو معدِنُ العقل ، وحاسة الحواس وبه قوام البدن ، وفيه يقول الشاعر .

إذا نزعوا رأسِى ، وفى الرأسِ أكثرى ٭ وغُودِرَ عند الملتقَى ثَمّ سائِرى . . .

لأعرابى فى الرأس

وقيل لأعرابى : أتحسن أن تأكل الرأس ؟ قال : نعم ؛ أعض العينين ، وأفك لحييه ، وأنتق خديه ، وأرمى بالدماغ إلى من هو أحق به منى ، وكانوا يكرهون أكل الدماغ ، ولذا يقول قائلهم .

٭ ولا أبتغى المُخَّ الذى فى الجماجمِ ٭

نصيحة أبي عبد الرحمن لابنه

وكان أبو عبد الرحمن يجلس مع ابنه يوم الرأس ويقول له : إياك ونهم الصبيان وبغر السباع ، وأخلاق النوائح ، ونهش الأعراب ، وكل مما بين يديك ، فإنما حظك منه ما قابلك ، واعلم أنه إذا كان فى الطعام شىء طريف ، من لقمة كريمة ، أو مضغة شهية ، فإنما ذلك للشيخ المعظم ، والصبي المدلل ، ولست بواحد منهما ، وقد قالوا . مُدمِنُ اللحم كمدمِن الخمر ؛ أى بنىّ ، لا تخضم خضم البراذين ، ولا تُدمِن الأكل إدمان النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال ، ولا تنهش نهش السباع ، وعوِّدْ نفسك الأُثْرة ، ومجاهدةَ الهوى والشهوة ؛ فإن الله جعلك إنسانا فلا تجعل نفسك بهيمة ، واحذر سرعة الكظة وسرَف البطنة ، فقد قال بعض الحكماء : إذا كنت نَهِما فعدّ نفسك من الزّمْنَى ؛ واعلم أن الشِّبَع داعيةُ البشم ، والبشم داعية السقَم ، والسقَم داعية الموت . ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة ؛ لأنه قاتلُ نفسه ، وقاتل نفسه ألأمُ من قاتل غيره أى بنى ، والله ما أدى حق الركوع والسجود ذو كِظة ولا خشع لله ذو بطنة ، والصوم مصحة ؛ والوجَبات عيشُ الصالحين أى بنى ، لأمر ما طالت أعمارُ الرهبان ، وصحت أبدان الأعراب ؛ ولله درّ الحارث بن كلدة حيث زعم أن الدواء هو الأزم ، وأن الداء كله هو من فضول الطعام ؛ فكيف لا ترغب فى شىء يجمعُ لك صحة البدن ، وذكاء الذهن ، وصلاح الدين والدنيا ، والقرب من عيش الملائكة ؟ أى بنىّ ، ما صار الضبُّ أطول شىء عمرا إلا أنه يَتبلَّغ بالنسيم ؛ وما زعم الرسول أن الصوم وِجاء إلا أنه جعله حاجزاً دون الشهوات : فافهم تأديبَ الله وتأديبَ الرسول ؛ أى بنى ، قد بلغت تسعين عاما مانغض لى سن ، ولا انتشر لى عصب ، ولا عرفت وكف أنف ، ولا سيلان عين ، ولا سلس بول ؛ وما لذلك علة إلا التخفّف من الزاد ؛ فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيلُ الحياة ، وإن كنت تحب الموت فلا أبعد الله غيرَك .

أبو الأسود الدؤلى

ومن البخلاء : أبو الأسود الدؤلى : وقفت عليه امرأة وهو فى فسطاط وبين يديه طبق تمر ، فقالت : السلام عليك ! قال أبو الأسود : كلمة مقبولة .

ووقف عليه أعرابى ، وهو يأكل ، فقال الأعرابى : أَدْخُلُ ؟ قال وراءك أوسعُ لك ! قال : الرمضاء أحرقتْ رجلىّ ! قال : بُل عليهما تبردان ! قال أتأذن لى

أن آكل معك؟ قال : سيأتيك ما قُدِّر لك ! قال: تالله ما رأيت رجلا ألأم منك .
قال : بلى قد رأيتَ إلا أنك نسيت ! ثم أقبل أبو الأسود يأكل ، حتى [إذا]
لم يبق فى الطبق إلا تميرات يسيرة نبذها له ، فوقعت تمرة منها ، فأخذها الأعرابى
ومسحها بكسائه ، فقال أبو الأسود . ياهـذا ، إن الذى تمسحها به أقذر من
٥ الذى تمسحها له . قال : كرهتُ أن أدعها للشيطان ! قال : لا والله ، ولا لجبريل
وميكائيل ما كنت لتدعَها .

الأصمعى قال : مرّ رجلٌ بأبى الأسود الدؤلى وهو يقول : من يعشّى
الجائع ؟ فقال أبو الأسود : علىّ به ، فأتاه بعشاء كثير . وقال : كلْ حتى تشبع !
فلما أكل ذهب ليخرج ؛ قال: أين تريد ؟ قال: أريد أهلى . قال: لا أدعك تؤذى
١٠ المسلمين الليلة بسؤالك ! اطرحوه فى الأدهم ! فبات عنده مكبولا حتى أصبح !

ابن أبى حفصة وضيف

قال الهيثم بن عدى : نزل بابن أبى حفصة ضيف باليمامة ، فأخلى له المنزل ثم
هرب عنه ، مخافة أن يلزمه قِرَاه تلك الليلة ؛ فخرج الضيف فاشترى مايحتاجه ،
ثم رجع وكتب إليه .

يأيُّها الخارج من بيته * وهارباً من شدةِ الخوفِ
١٥ ضيْفُك قد جاء بزادٍ له * فارجِعْ تكن ضيفاً على الضَّيفِ !

وقال آخر :

بِتُّ ضيفاً لهِشامٍ * فى شَرابى وطعامى
وسِراجى الكوكبُ الدُّ * رِّىُّ فى داجِى الظلامِ
لا حراما أجِدُ الخُـ * ـبزَ ولا غير الحرام !

٢٠ وله :

بت ضيفا لهِشامٍ * فشكا الجوعَ ! عدِمْتُهْ !
وبكى — لا صنَعَ اللهُ له — حتى رحِمْتَه

وكان شيخ من البخلاء يأتى ابن المقفع ، فيلحُّ عليه أن يتغدّى عنده فى منزله ،

فيمطله ابن المقفع ، فيقول : أترانى أتكلف لك شيئاً ؟ لا والله ، لا أقدم لك إلا ما عندى ، فلا تتثاقل علىّ ! فلم يزل به حتى أجابه ، وأتى به إلى منزله ، فإذا ليس عنده إلا كِسَرٌ يابسة وملح جريش ، فقدمه له ؛ ووقف سائل بالباب ، فقال له : بورِك فيك ! فألح فى السؤال ، فقال : والله لئن خرجت إليك لأدقّنّ ساقيك ! فقال ابن المقفع للسائل : أرِحْ نفسك وانجُ والله لو علمتَ من صدق وعيده ما علمتُ أنا من صدق وعده ما وقفتَ ساعة ولا راجعتَه كلمة . ٥

وانتقل رجل من البخلاء إلى دار فابتاعها ، فلما حلها وقف سائلٌ ، فقال له : صنع الله لك ! ثم وقف ثان ، فقال له مثل ذلك ، ثم وقف ثالث ، فقال له مثل ذلك ؛ فقال لابنته : ما أكثر السؤالَ فى هذا المكان ! فقالت له : يا أبتِ ، ما تمسكتَ لهم بهذا القول فما تبالى كثروا أم قلوا ؟ ١٠

العرب — الأصمعى : تقول العرب : ما علمتك إلا بَرَماً قَرونا . البرم : الذى يأكل مع أصحابه ولا يجعل لهم شيئا ، والقَرون : الذى يأكل تمرتين تمرتين .

حميد الأرقط — وألأم اللئام وأبخل البخلاء حميد الأرقط ، الذى يقال له هجّاء الأضياف ؛ وهو القائل فى ضيف نزل به وآكله :

ما بين لُقمتِه الأولى إذا انحدرَتْ * وبين أُخرى تَليها قِيدُ أُظفورِ ١٥

وله :

تُجهِّز كفّاه ويحدُرُ حَلْقَه * إلى الزَّوْرِ ما ضمّتْ عليه الأنامِلُ

أتانا وما ساواه سَحبانُ وائلٍ * بياناً وعلماً بالذى هو قائل

فما زال عنه اللُّقمُ حتى كأنه * من العِىّ لما أن تكلم باقل

وله فى الأضياف : ٢٠

لامرحباً بوُجوهِ القوم إذ دخلوا * دُسْمَ العمائم تحكيها الشياطينُ

باتوا وجُلَّة تمر حلّ بينهم * كأنّ أيديَهم فيها السكاكين

فأصبحوا والنّوى عالى مُعَرَّسِهِم * وليسْ كلّ النّوى تلقى المساكين

ما قالت الشعراء فى طعام البخلاء

لجرير فى بنى تغلب

فمن أهجى ماقيل فى طعام البخلاء قول جرير فى بنى تغلب :

والتغلبىُّ إذا تنحنح للقِرَى * حكَّ آستَهُ وتمثَّلَ الأمثالا

وقوله فيهم :

٥ قومٌ إذا أكلوا أخفَوْا كلامَهم * وآستوثقوا من رِتاجِ البابِ والدارِ

قومٌ إذا آستنبحَ الأضيافُ كلبَهُمُ * قالوا لِأُمِّهِمُ بُولى على النارْ

الراعى

وقال الراعى :

اللّاقِطِينَ النوى تحت الشياهِ كما * نحت كرادِمَ دهم فى مخاليها

فأين هؤلاء من قول الآخر :

١٠ أَبْلَجُ بين حاجبيْهِ نورُهُ * إذا تغدّى رُفِعت سُتُورُهُ

لبعضهم

ولآخر :

أبو نوحٍ ، أتيْتُ إليه يوماً * فغــدّانى برائحةِ الطعامِ

وجاء بلحمٍ لا شىءَ سمينٍ * فقدّمَه على طبَقِ الكلامِ

فلما أنْ رَفَعتُ يَدى سقانِى * كُئوساً حَشوُها ريحُ المُدام

١٥ فكنتُ كمَنْ سقَى ظَمْآنَ آلًا * وكنت كمن تغدّى فى المَنام

ولآخر :

تَراهمْ خَشيةَ الأضيافِ خُرْسًا * يُصَلُّونَ الصلاةَ بِلا أذانِ

ولحماد بن جعفر :

حديثُ أبى الصَّلْتِ ذو خِبرةٍ * بما يُصْلِحُ المِعدةَ الفاسِدهْ

٢٠ تخــوّفَ تُخمـــةَ إخوانِهِ * فعَوّدَهُمْ أُكلةً واحـــدهْ

ولآخر :

أتانا بخُــبزٍ له حامِضٍ * كمِثْلِ الدراهمِ فى رِقّتِهْ

إذا ما تنفّس حولَ الخِوَانِ * تطايرَ فى البيت من خِفّتِهْ
فنحنُ كظُومٌ له كلُّنا * نَرُدُّ التنفسَ من خَشيتِهْ
فيَكْلِمُهُ اللحظُ من رِقّةٍ * ويأكُلُهُ الوهْمُ من قِلّتِهْ

لعربى فى جراد قدم له

نزل رجل من العرب ببخيل ، فقدّم إليه جراداً ، فعافه وأمر برفعه ، وقال :

لَحَا اللهُ بيتاً ضَمَّنِي بعدَ هَجْمةٍ * إليه دَجوْجِيٌّ من الليلِ مُظْلِمُ ٥
فأبصَرْتُ شيخا قاعِدا بفِنائه * هو العَيْرُ إلا أنه يتكلمُ
أتانا بيَرْقانِ الدَّبَى فى إنائِهِ * ولم يَكُ يَرْقانُ الدَّبَى لِى مَطْعَمُ
فقلتُ له غَيِّبْ إناءكَ واعتَزِلْ * فهذا وهذا لا أبَا لكَ مُسْلِمُ

القطامى وعجوز ضافها

ضاف القطامى الشاعر فى ليلةٍ ريحٍ ممطرة عجوزا من محارب ، فلم تَقْرِه شيئا ؛ فرحل عنها وقال : ١٠

تضيّفْتُ فى بَرْدٍ وريحٍ تَلُفُّنِى * وفى طِرْمِساءٍ غيرِ ذاتِ كواكِبِ
إلى حَيْزَبونٍ تُوقِدُ النارَ بعدَما * تلفّعتِ الظلماءُ من كلِّ جانبِ
تَصلى بها بَرْدَ العِشاءِ ولم تكن * تَخالُ وميضَ النارِ يبدو لراكِبِ
فما راعَها إلا بُغامُ مَطِيّتى * تُريحُ بمَحْسُورٍ من الصوتِ لاغِبِ
لجَنّتْ جُنونًا من دِلاثٍ مُناخةٍ * ومن رجلٍ عارِى الأشاجِعِ شاحِبِ ١٥
سَرَى فى جَليدِ الليلِ حتى كأنّما * تَخَزّمَ بالأطرافِ شوكُ العقارِبِ
تقولُ وقد قَرّبْتُ كُورِى وناقتى * إليكَ فلا تُذْعَرْ علىّ رَكائبى
فسَلّمْتُ والتسليمُ ليس يَسُرُّها * ولكنه حقٌّ على كلِّ جانبِ
فردّتْ سلامًا كارِهًا ثم أعرَضتْ * كما انحاشتِ الأفعى مخافةَ ضاربِ
فلما تنازَعْنا الحديثَ سألْتُها * مَنِ الحىُّ ؟ قالت : معشرٌ من محارِبِ ٢٠
من المُشْتوِينَ القِدَّ فى كلِّ شتْوةٍ * وإن كان عامُ الناسِ ليس بناصِبِ
فلما بَدا حِرْمانُها الضيفَ لم يكُنْ * علىّ مَبيتُ السُّوءِ ضَرْبةَ لازِبِ
وقُمتُ إلى مُهْرِيّةٍ قد تعوّدتْ * يداها ورِجْلاها حَثِيثَ المَواكِبِ

ألا إنها نيرانُ قيس إذا شتَوْا * لطارقِ ليلٍ مثل نارِ الحباحِبِ

الخليل

وقال الخليل بن أحمد :

كفّاهُ لم تُخْلَقا للندى * ولم يكُ بخلُهما بدعة
فكفٌّ عن الخيرِ مقبوضةٌ * كما نقصت مِائة سبعةْ
وكفٌّ ثلاثةُ آلافِها * وتسعُ مئاتٍ لها شِرعةْ ٥

لبعضهم

وقال غيره :

وجيرةٍ لاترى فى الناس مثلَهم * إذا يكونُ لهم عيدٌ وإفطار
إنْ يوقِدوا يُوسِعونا منْ دُخانهم * وليس يَبلُغُنا ماتُنضِجُ النارُ

لابن نعيم

وقال أحمد بن نعيم السلمى فى بنى حسان :

١٠ إذا احتفلوا للضيفِ لَوّجَ قِدْرَهُم * جرادِيم أشباه النُّخاعة تُبلعُ
تَبُلُّ جِيارَ الضيفِ حتى تَرُدّهُ * وتصبحُ من عينِ آبيْتِه تتطلّعُ
ويُقرِيكَ منْ أكرهتَه من سوادهمْ * قِرى الحىّ أو أدنى لجوعٍ وأبشعُ
عِظاما وأرْواثا وبعْراً وإن يكن * لدى القومِ نارٌ يشتَوِى لك ضِفدعُ

لآخرين

ولآخر :

١٥ فبتنا كأنّا بينَهم أهلُ مأتمٍ * على ميّتٍ مُستودَعٍ بطنَ ملحَدِ
يُحدِّثُ بعضٌ بعضَنا بمصابِه * ويأمُرُ بعضٌ بعضَنا بالتجلُّدِ ا

ولآخر :

ذهبَ الكِرامُ فلا كِرام * وبقى الغطاريف اللّئامُ
مَن لا يُقِيلُ ، ولا يُنيـ * ـلُ ، ولا يُشمُّ له طَعام

٢٠ ولآخر :

صدّق أَلِيَّتَهُ إن قال مجتهداً * لاوالرغيفِ ، فذاكَ البرُّ من قَسَمِهْ
فإن هَممتَ به فافتكْ بخبزته * فإنّ موقعَها من لحمِه ودَمِهْ
قد كان يُعجبنى لو أنّ غيرتَهُ * على جرادِته كانت على حرمِهِ

ولآخر :

إنّ هــذا الفتى يصونُ رغيفاً ٭ ما إليــه لناظرٍ من سبيلِ
هو فى سُفرتينِ من أَدَمِ الطا ٭ ئفِ فى سَلّتينِ فى منـديلِ
فى جرابٍ فى جَوْفِ تابوتِ موسى ٭ والمفاتيحُ عنـد ميكائيلِ

أبو نواس وقال أبو نواس فى فضل الرقاشى : ٥

رأيتُ قدورَ الناسِ سُوداً من الطّلا ٭ وقِدرُ الرَّقاشيّين زهْراء كالبدرِ
يَضيقُ بحيْزُومِ البَعوضةِ صدرُها ٭ ويخرجُ ما فيهـا على قلمِ الظُّفْرِ
إذا ما تنادَوْا للرَّحيلِ سَعى بهـا ٭ أمامهمُ الحوْليُّ من ولدِ الذَّرّ

وقال فى إسماعيل الكاتب :

خُبز إسماعيلَ كالوشْـيِ إذا ما انشقَّ يُرْفا ١٠
عَجباً من أثرِ الصنْـعةِ فيـه كيف يَخْفَى
إنّ رفّاءك هـذا ٭ ألطفُ الأمّةِ كفا
فإذا قابل بالنِّصـف من الجرْدقِ نصفاً
أحكمَ الصّنعةَ حتى ٭ ما يُرى مَغرَزُ إشفَى

لبعضهم ولآخر : ١٥

ارفعْ يمينَك من طعامِهْ ٭ إنْ كنتَ ترغبُ فى كلامِهْ
سِيانِ كسْرُ رغيفِهْ ٭ أو كسْرُ عظمٍ من عظامِهْ

ولآخر :

رأيتُ الخبزَ عزّ لديكَ حتى ٭ حسِبتُ الخبزَ فى جوفِ السّحابِ
وما روّحْتنا لتذُبَّ عنّا ٭ ولكن خِفتَ مَرْزِئةَ الذُّبابِ ٢٠

ولآخر :

يحذَرُ أنْ تُتخَمَ إخوانُه ٭ إنّ أذى التخمةِ محذُورُ
ويَشتهي أنْ يُؤْجَروا عنده ٭ بالصّومِ والصائمُ مأجورُ

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى نحوه :

لا يُفطِرُ الصائمُ من أكله * لكنه صـــومٌ لمنْ أفطرا
فى وجهه من لُؤمه شاهدٌ * يُكفى به الشاهدُ أنْ يُخبرا
لم يَعرفِ المعروف أفعالُه * قطُّ كما لم ينكرِ المنكرا

لبعضهم

٥ وقال آخر :

خليلَىَّ من كعبٍ أعينا أخاكُما * على دهرِه إن الكريم مُعِينُ
ولا تبخلا بُخلَ ابنِ قزعةَ إنه * مخافةَ أنْ يُرجَى نداهُ حَزينُ
كأن عُبيدَ اللهِ لم يلقَ ماجداً * ولم يدرِ أنّ المكرُماتِ تكونُ
فقل لأبى يحيى متى تدرِكِ العلا * وفى كل معروفٍ عليك يمينُ
١٠ إذا جِئتَهُ فى حاجةٍ سَدَّ بابهُ * فـلم تلقَه إلا وأنت كمينُ

باب من أخبار البخلاء

بين بخيلين

الرياشى قال : صاحَب رجلٌ من البخلاء ، فقال له : احملنى ! فقال : ما كنت لأنزل وأحملك ! قال . ما أنت بحاتم حيث يقول :

أنِخْها فأرْدِفها ، فإنْ حملَتكما * فذاك ؛ وإن كان العقابُ فعاقِبِ

١٥ قال : مافيها محمل ، ولأبى طاقة على المشى .

وقد قال شاعرهم حاتم :

أماوىَّ إمّا مانعٌ فمُبيِّنٌ * وإما عطاءٌ لا يُنَهْنِهُهُ الزجْر

لكثير

وقال كثير عزة :

مهينٌ تلادِ المالِ فيما ينوبُه * منوعٌ إذا ما منعُهُ كان أحْزما

عبد الرحمن بن حسان

٢٠ سأل عبدُ الرحمن بن حسان بن ثابت من بعض الولاة حاجة ، فلم يقضها ، فتشفع إليه برجل فقضاها ؛ فقال :

ذممْتَ ولم تُحمدْ، وأدركت حاجتى * تولَّى سِواكم أجرَها واصْطناعَها

أبى لك كسْبَ المجدِ رأىٌ مُقَصِّرٌ ٭ ونفسٌ أضاقَ الله بالخيرِ باعَها

إذا هى حَثَّتْهُ على الخيرِ مَرَّةً ٭ عصاها، وإن هَمَّتْ بشرٍّ أطاعها

أبو الأسود

احتاج أبو الأسود الدؤلى مرة، فبعث إلى جار له موسر يستسلفه، وكان حَسَن الظن به، فاعتل عليه ورده؛ فقال:

لا تُشْعِرَنَّ النَّفْسَ يأساً فإنما ٭ يعيش بجـــدٍّ حازمٌ وبليدُ ٥

ولا تطْمَعَنْ فى مالِ جارٍ لقُرْبِهِ ٭ فكلُّ قريبٍ لا يُنالُ بعيدُ

وكتب إلى آخر يستسلفه، فكتب إليه: المؤنة كثيرة، والفائدة قليلة، والمال مكذوبٌ عليه. فكتب إليه أبو الأسود: إن كنت كاذبا فجعلك الله صادقا، وإن كنت صادقا فجعلك الله كاذبا!

لبعض الشعراء

وقال بعض الشعراء فى بخيل: ١٠

ميِّتٌ ماتَ وهْو فى كنفِ العيْـ ٭ ـشِ، مُقيمٌ فى ظلِّ عيْشٍ ظليلِ

فى عِدادِ الموْتَى، وفى عامِرِ الدُّنْـ ٭ ـيا أبو جعفر أخى وخليـــلى

لم يَمُتْ ميتَةَ الحياةِ ولكنْ ٭ ماتَ عن كلِّ صالحٍ وجميـلِ

ولآخر:

فأمّا قِراهُ كلُّه فلِنفسِـه ٭ ومالُ يزيدٍ كلُّه ليَزيدِ ١٥

ولآخر:

له يومانِ: يومُ ندًى، ويومٌ ٭ يَسُلُّ السيْفَ فيه مِنَ القِرابِ

فأمّا جودُهُ فعلَى النَّصارَى ٭ وأمّا بأسُه فعَـــلَى الكِلابِ

ولآخر:

قدَحتُ بأظفارى، وأعملْتُ مِعْوَلِى ٭ فصادفتُ جُلْموداً مِنَ الصَّخرِ أملَسا ٢٠

تجهَّمَ لمّا قُمتُ فى وجه حاجَتى ٭ وأطرَق حتى قلتُ: قد مات أو عسى

فأجمعْتُ أنْ أنعاهُ لمّا رأيتُه ٭ يفوقُ فواقَ الموتِ حتى تنفّسا

للجلودى

وأنشد أبو جعفر البغدادى للجُلوديّ :

جاء بدينارينِ لى صالحٌ * أصلَحه اللهُ وأخزاهما
أدناهما تحمِلُه ذرّةٌ * وتلعبُ الريحُ بأقواهما
بل لو وزنّا لك ظِلَّيْهما * ثم عَمَدْنا فوزَنّاهما
لكان لا كانا ولا أفلحا * عليْهما يَرجحُ ظِلاّهما ٥

لحماد عجرد

ولحماد عجرد :

أورِقْ بخيْرك تُؤملْ للجزيل، فما * تُرْجَى الثمارُ إذا لم يورِقِ العودُ
وللبخيلِ على أمواله عِلَلٌ * زُرْقُ العيونِ عليها أوجُهٌ سودُ
إنّ الكريمَ تُرى فى الناسِ عِفّتُه * حتى يُقال غنىٌّ وهْو مجهودُ

١٠ وأنشد :

جادَ ابنُ موسى من دنانيره * لنا بدينارَيْنِ إسرارَا
كِلاهما فى الكفّ من خِفّةٍ * لو نُفِخا من فرسخٍ طارا
قلتُ، وقلبى لهما مُنْكِرٌ : * أدِّهما للخُبْز قسْطارا
فكان هذا عندهُ بهْرجاً * وكان هذا عِندَه بارا
١٥ ثم وزنّا واحِداً منهما * كان له القسطارُ مختارَا
فكان فى كِفّةِ ميزانه * ينقُصُ قيراطاً وديناراً

باب ما قيل فى البخلاء

لأبى العتاهية

سمع رجل أبا العتاهية ينشد :

فارْمِ بطرْفِك حيثُ شئْـ * ـتَ فلَنْ ترى إلّا بخيلا

٢٠ فقال له : بخّلتَ الناس كلّهم ! قال : فأرنى واحدا سمحاً !

لابن أبى حازم

وقال ابن أبى حازم :

وقالوا لو مدَحْت فتىً كريمًا ! * فقلتُ وأينَ لى بِفَتًى كريمِ ؟

بلَوْتُ ومَرّ بِى خمسونَ عاماً * وحسْبُكَ بالمُجرِّبِ من عليمِ
فلا أحدٌ يُعَدُّ ليومِ خيْرٍ * ولا أحدٌ يعودُ على عديمِ

لبعضهم ولآخر :

لمّا رآنا فـرَّ بوابُه * وارتدَّ من غيْرِ يدٍ بابُه
كلْبٌ له من بغْضِه حاجبٌ * يحْجُبُه إن غاب حُجّابه ٥

لابن عبد ربه ومن قولنا :

جعلَ اللهُ رزقَ كلِّ عدُوٍّ * لى بكفٍّ لبعضِ مَن لا أُسمّى
كفٌّ من لا يَهُزُّ عِطْفَيْهِ يوماً * لِمَديحٍ ، ولا يُنالُ بِذمّ
يتلقّى الرجاء منه بوجه * راشحِ الخدِّ والجبينِ بِسمّ
جئتُهُ زائراً، فما زال يشكو * لى حتى حسِبْتُه سيُدَمِّى ١٠
ألِفَ الُّلومَ فيه من كلِّ طرْفٍ * مُعْرِقاً فيه بين خالٍ وعمّ
قد نهانى النَّصِيحُ عنه مرارًا * بأبى أنت من نصيحٍ وأُمّى

ومن قولنا :

يَراعةٌ غرّنى منها وميضُ سَنا * حتى مددْتُ إليه الكفَّ مُقْتبِسَا
تصادَفتْ حجَرًا لو كنتَ تضرِبُه * من لؤمِه بعصا مُوسى لما انبَجسا ١٥
كأنما صِيغ من بُخلٍ ومن كذِبٍ * فكان ذاكَ له روحاً وذا نفَسَا
كلْبٌ يهِرُّ إذا ما جاء زائِره * حتى إذا جاء مُهْدِى تحْفةٍ بَسَا

ومن قولنا :

صحيفـةٌ طابَعُها اللُّومُ * عُنْوانُها بالبخلِ مختُومُ
أهداكَها والخُلْفُ فى طيِّها * والمطْلُ والتَّسويفُ واللومُ ٢٠
من وجهُهُ نحسٌ،ومَن قربُه * رِجسٌ، ومَن عِرْفانه شومُ
لاتهتضِمْ إن كنت ضيْفاً له * فخبزُه فى الجوْف هاضومُ
تكْلِمُهُ الألحاظُ من رِقّةٍ * فهوَ بلَحْظِ العيْنِ مكلومُ

لا تأتَدِمْ شيئاً على أكلِه * فإنه بالجـــوع مأدُومُ

احتجاج البخلاء

لأبي الأسود

الأصمعي قال: قال أبو الأسود الدؤلي: لو أطعمنا المساكين أموالنا لكنا أسوأ حالا منهم!

٥ وقال لبنيه: لاتطيعوا المساكين في أموالكم، فإنهم لايقنعون منكم حتى يروكم مثلهم!

وقال لهم أيضاً: لا تجاوِدوا الله، فإنه لو شاء أن يغني الناس كلهم لفعل، ولكنه علم أن قوما لايصلحهم الغنى ولا يصلح لهم إلا الفقر، وقوما لايصلحهم الفقر ولا يصلح لهم إلا الغنى!

لابن هارون

١٠ وقال سهل بن هارون: لو قسمتُ في الناس مائة ألف لكان الأكثر لائمي.

ونحوه قول ابن الجهم: منعُ الجميع أرْضَى للجميع.

كندي وتغلبي

وقال رجل من تغلب: أتيت رجلا من كندة أسأله، فقال: يا أخا بني تغلب إني لن أصِلك حتى أحرم من هو أقرب إليّ منك، وإني والله لو مكنت من داري لنقضوها طوبة طوبة، والله يا أخا بني تغلب ما بقي بيدي من مالي وأهلي ١٥ وعِرضي إلا ما منعتُه من الناس.

وقال آخر: من أعطى في الفضول قصَّرَ عن الحقوق.

ابن هارون وسائل

وقال رجل لسهل بن هارون: هبني مالا مرْزِئةَ عليك فيه، قال: وما ذاك يا ابن أخي؟ قال: درهم واحد! قال: يا ابن أخي لقد هَوَّنْتَ الدرهم وهو طائع الله في أرضه الذي لا يُعصى، والدرهم ويحك عشر العشرة، والعشرة عشر ٢٠ المائة، والمائة عشر الألف، والألف دية المسلم؛ ألا ترى يا ابن أخي إلى أين انتهاء الدرهم الذي هوَّنته؟ وهل بيوت المال إلا درهم على درهم.

من وصية لقمان لابنه

ورُوِي عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: يا بنيّ، أوصيك باثنتين ما تزال بخير ما تمسكت بهما: درهمك لمعاشك، ودينَك لمعادك.

لأبي الأسود — وقال أبو الأسود : إمساكك ما بيدك ، خيرٌ من طلبك ما بيد غيرك . وأنشد في المعنى :

يَلومُونَني في البُخلِ جهلا وضَلَّةً * ولَلبُخلُ خيرٌ من سُؤالِ بَخيلِ

للمتلمس — ونظيره قول المتلمس :

٥ وحبسُ المالِ خيرٌ من نَفادٍ * وضربٍ في البلادِ بغيرِ زادِ

وإصلاحُ القليلِ يَزيدُ فيه * ولا يَبقى الكثيرُ مع الفسادِ

لابن صفوان — وقيل لخالد بن صفوان : مالك لا تنفق فإن مالك عريض ؟ قال : الدهر أعرض منه ! قيل له : كأنك تؤمل أن تعيش الدهر كله ! قال : لا ، ولكن أخاف أن لا أموت في أوله !

١٠ الجاحظ والحزامى — وقال الجاحظ للحزامى : أترضى أن يقال لك بخيل ؟ قال : لا أعدمنى الله هذا الاسم ؛ لأنه لا يقال لى بخيل إلا وأنا ذو مال ، فسلِّم لِيَ المال وسَمِّنى بأى اسم شئت !

فقال : جمع الله لاسمِ السخاء المالَ والحمد ، وجمع لاسم البخلِ المالَ والذم . قال : بينهما فرق عجيب وبون بعيد : إن في قولهم بخيل ، سبباً لمكث المال ؛

١٥ وفي قولهم سخى ، سبباً لخروج المال عن ملكى ؛ واسم البخيل فيه حفظ وذم ، واسم السخى فيه تضييع وحمد ، والمال ناض نافع ، ومكرم لأهله ، والحمد ريح وسخرية ، ومسمعة وطَرمذة [1] ؛ وما أقل غَناء الحمد عنه إذا جاع بطنه ، وعرى ظهره ، ، ضاع عياله ، وشمت به عدوه !

لابن الجهم — وقال محمد بن الجهم : من شأن من استغنى عنك أن لا يقيم عليك ، ومن

٢٠ احتاج إليك أن لا يزول عنك ؛ فمن حبك لصديقك وضنك بمودته أن لا تبذل له ما يغنيه عنك ، وأن تتلطف له فيما يحوجه إليك وقد قيل في مثل هذا : أجِعْ كلبك يَتْبَعْك ، وسَمِّنه يأكلك ؛ فمن أغنى صديقه فقد أعانه على الغدر ، وقطع

---

(١) الطرمذة : المفاخرة والصلف .

أسبابه من الشكر ؛ والمعين على الغدر شريكُ الغادر ، كما أن مزيّنَ الفجور شريكُ الفاجر .

من وصية الأسدى لبنيه

وقال يزيد بن عمر الأسدى لبنيه : يا بنىّ ، تعلموا الردّ ؛ فإنه أسدّ من العطاء ولأن تعلم بنو تميم أن عند أحدكم مائة ألف درهم ، أعظمُ له فى أعينهم من أن ٥ يقسمها عليهم ؛ ولأن يقال لأحدكم بخيل وهو غنى ، خير له من أن يقال سخىّ وهو فقير .

للحزامى

وقال الحزامى : يقولون : ثوبك على صاحبك أحسن منه عليك ؛ فما ظنك إن كان أقصر منى ، أليس يتخيّل فى قميصى ؟ وإن كان أطول منى ، أليس يصير آية للسابلين ، فمن أسوأ أثراً على صديقه ممن جعله ضُحْكة ؟ فما ينبغى لى أن ١٠ أكسُوهُ حتى أعلمَ أنه فيه مثلى ؛ ومتى يتفق هذا ؟

أبو نواس وفقيه

وقال أبو نواس : كان معنا فى السفينة ونحن نريد بغداد ، رجل من أهل خراسان ، وكان من فقهائهم وعقلائهم ، وكان يأكل وحده ، فقلت له : لم تأكل وحدك ؟ فقال : ليس علىّ فى هذا مسألة ؛ إنما المسألة على من أكل مع الجماعة لأنه يتكلف ، وأكلى وحدى هو الأصل ، وأكلى مع الجماعة تكلُّفُ ١٥ ماليس علىّ .

لابن مزاحم فى درهم

ووقع درهم بيد سليمان بن مزاحم ، فجعل يقلبه ويقول . فى شِق : لا إله إلا الله محمد رسول الله ؛ وفى شق آخر : قل هو الله أحد ؛ ما ينبغى لهذا أن يكون إلا تعويذةً ورُقية ! ورمى به فى الصندوق .

لأبى عيسى

وكان أبو عيسى بخيلا ، وكان إذا وقع الدرهم بيده طنّه بظفره وقال : يا درهم ٢٠ كم من مدينة دخلتها ؟ وأيدٍ دوّختها ؟ فالآن استقر بك القرار ، واطمأنت بك الدار ! ثم رمى به فى الصندوق .

ابن أشرس وسائل

وقال رجل لثمامة بن أشرس : إن لى إليك حاجة ... قال : وأنا لى إليك حاجة ! قال : وما حاجتك إلىّ ؟ قال : لا أذكرها حتى تضمنَ قضاءها ! قال : قد فعلتُ .

قال : فإن حاجتى لك أن لا تسألنى حاجة ! فانصرف الرجل عنه .

وله فى الحرص

وكان ثمامة يقول : ما بالُ أحدِكم إذا قال له الرجل أسقنى ، أتى بإناء على قدر اليد أو أصغر ، وإذا قال أطعمنى ، أتاه من الخبز بما يفضل عن الجماعة ، والطعام والشراب أخوان ! أما إنه لولا رخصُ الماء وغلاء الخبز ما كلبوا على الخبز وزهدوا فى الماء ؛ الناس أرغب شىء فى المأكول إذا كثر ثمنه ، أو كان قليلا فى منبته ؛ ألا ترى الباقلّا الأخضر أطيب من الكمثرى ، والباذنجان أطيب من الكمأة ؛ ولكن أهل التحصيل والنظر قليل ، وإنما يشتهون قدر الثمن !

وكان يقول : إياكم وأعداء الخبز أن تأتدموا بها ، وأعدى عدو له المالح ، فلولا أن الله أعان عليه بالماء لأهلك الحرث والنسل .

وكان يقول : كلوا الباقلّا بقشره ، فإن الباقلّا يقول : من أكلنى بقشرى فقد أكلنى ، ومن أكلنى بغير قشرى فقد أكلتُه ؛ فما حاجتكم أن تصيروا طعاما لطعامكم ؟

ابن هبيرة وعقيلى

الأصمعى قال قدجاء رجل من بنى عُقيل إلى عمر بن هبيرة ، فمتّ إليه بقرابة وسأله أن يعطيَه ، فلم يعطه شيئا ؛ ثم عاد إليه بعد أيام فقال : أنا العقيلى الذى سألتك منذ أيام ! فقال له ابن هبيرة : وأنا الفرارى الذى منعك منذ أيام ! فقال معذرة إليك ؛ إنى سألتك وأنا أظنك يزيد بن هبيرة المحاربى ! قال : ذلك ألأم لك عندى ، وأهون بك علىّ ؛ نشأ فى قومك مثلى فلم تعرفه ، ومات مثل يزيد ولم تعلم به ! ياحرسىّ ، أسفع بيده !

من أشعار البخلاء

ومن أشعار البخلاء التى يتمثلون بها :

وزهّدنى فى كلّ خــيرٍ صنَعتُه ✽ إلى الناسِ ما جرّبتُ من قِلةِ الشكرِ

ولآخر :

ارقع قميصَكَ ما اهتَديتَ لجيبِهِ ✽ فإذا أضلّك جيبُه فاستَبدِلِ

لابن هرمة

ولابن هرمة :

قد يُدرِكُ الشَّرفَ الفتى ورِداؤه * خَلَقٌ وجيْبُ قميصه مَرْقوعُ

من أمثالهم

ومن أمثالهم فى البخل وخلف الوعد قولهم : تختلف الأقوال إذا اختلفت الإخوان ؛ وقولهم :

٥ * كلامُ الليلِ يمحوهُ النهارُ *

وقولهم:

* بُروقُ الصيفِ كاذبةُ الوعودِ *

رسالة سهل بن هارون فى البخل

بسم الله الرحمن الرحيم ، أصلح الله أمركم ، وجمع شَمْلكم ، وعلمكم الخير ١٠ وجعلكم من أهله ؛ قال الأحنف بن قيس : يامعشر بنى تميم ، لا تسرعوا إلى الفتنة فإن أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياء من الفرار . وقد كانوا يقولون : إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عيَّابا ، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب ، ومن أعيب العيب أن تعيب ما ليس بعيب ، وقبيح أن تنهى مرشداً وأن تغرِىَ بمشفق .

١٥ وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم ، وإصلاح فاسدِكم ، وإبقاء النعمة عليكم ، ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم فما أخطأنا سبيل حُسن النية فيما بيننا وبينكم ؛ وقد تعلمون أنا ما أوصيناكم إلا بما اخترناه لكم ، ولأنفسنا قبلكم وشُهرنا به فى الآفاق دونكم ؛ ثم نقول فى ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : «وما أريدُ أن أخالِفَكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريدُ إلا الإصلاح ما استطعتُ وما توفيق ٢٠ إلا بالله ، عليه توكلتُ وإليه أنيبُ» : فما كان أحقنا بكم فى حرمتنا بكم أن تَرْعَوْا حقّ قصدنا بذلك إليكم على ما رعيناه من واجب حقكم ، فلا العذرَ المبسوط بلغتم ولا بواجب الحرمة قمتم ، ولو كان ذكر العيوب بِرّا وفخراً لرأينا فى أنفسنا عن ذلك شُغُلا .

عبتمونى بقولى لخـادمى : أجيدِى العجين ، فهو أطيبُ لطعمه ، وأزيد فى ريعه ؛ وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنـه : أملكوا العجين ، فإنه أحدُ الريعين .

وعبتمونى حين ختمت على سدٍّ عظيم ، وفيه شىء ثمين من فاكهة رطبة نفيسة ؛ ومن رطبة غريبة ، على عبدٍ نهم ، وصبيٍّ جشع ، وأمَة لكعاء ، وزوجة مضيعة ؛ وليس من أصل الأدب ، ولا فى ترتيب الحكم ، ولا فى عادة القادة ، ولا فى تدبير السادة ، أن يستوى فى نفيس المأكول ، وغريب المشروب ، وثمين الملبوس ، وخطير المركوب ـ التابعُ والمتبوع ، والسيدُ والمسود ؛ كما لا تستوى مواضعهم فى المجالس ، ومواقع أسمائهم فى العنوان ؛ ومن شاء أطعم كلبَه الدجاج السمين ، وعَلَفَ حمارَه السمسم المقشّر !

فعبتمونى بالختم ، وقد ختم بعض الأئمة على مِزْوَدِ سَوِيق ، وعلى كيس فارغ ، وقال : طينة خيرٌ من ظِنّة ؛ فأمسكتم عمن ختم على لا شىء ، وعبتم مَنْ ختم على شىء !

وعبتمونى أن قلت للغلام : إذا زدت فى المرق فزِدْ فى الإنضاج ، ليجتمع مع التأدم باللحم طيب المَرَق ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا طبخ أحدكم لحماً فليزد من المـاء ، فمن لم يصب لحماً أصاب مرقاً » .

وعبتمونى بخصف النعل ، وبتصدير القميص ، وحين زعمتُ أن المخصوفة من النعل أبقى وأقوى وأشبه بالنُّسُك ، وأن الترقيع من الحزم ، والتفرّقَ مع التضييع ؛ والاجتماع مع الحفظ . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ، ويرقَعُ ثوبه ؛ ويلعق أصابعه ، ويقول : « لو أُهْدِىَ إلىّ ذراع لقبلت ، ولو دعيتُ إلى كراع لأجبْت » . وقال عليه الصلاة والسلام « من لم يستحىِ من الحلال خَفّتْ مئونته ، وقل كِبْرُه » ؛ وقالت الحكماء : لا جديد لمن لم يلبس الخَلَق . وبعث زياد رجلا يرتاد له محدّثاً ، واشترط عليه أن يكون عاقلا ، فأتاه به موافقاً ، فقال له : أكنت به ذا معرفة ؟ قال : لا ، ولكنى رأيته فى يوم قائظ

يلبس خَلَقا ويَلبَسُ الناسُ جديداً ؛ فتفرست فيه العقل والأدب ، وقد علمت أن الخاق فى موضعه مثل الجديد فى موضعه ؛ وقد جعل الله لكل شيء قدرا وسما به موضعاً ؛ كما جعل لكل زمان رجالا ، ولكل مقام مقالا ؛ وقد أحيا الله بالسم ، وأمات بالدواء ، وأغصّ بالماء ؛ وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكَسْبَيْن ، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليَسارين ؛ وقد جبر الأحنف بن قيس يدَ عنز ، وأمر مالك بن أنس بفرك النعل ؛ وقال عمر بن الخطاب : من أكل بيضة فقد أكل دجاجة ؛ ولَبِس سالم بن عبد الله جلد أُضحية ؛ وقال رجل لبعض الحكماء : أريد أن أهدى إليك دجاجة . فقال : إن كان لا بد فاجعلها بَيُوضا .

وعبتمونى حين قلت : من لم يعرف مواضع السرَف فى الموجود الرخيص لم يعرف مواضع الاقتصاد فى الممتنع الغالى ؛ فلقد أُتيت بماء للوضوء على مبلغ الكفاية وأشفّ من الكفاية ؛ فلما صرتُ إلى تفريق أجزائه على الأعضاء ، وإلى التوفير عليها من وظيفة الماء ، وجدت فى الأعضاء فضلا على الماء ؛ فعلمتُ أنْ لو كنتُ سلكتُ الاقتصاد فى أوائله لخرج آخره على كفاية أوله ، ولكان نصيبُ [العضو] الأول كنصيب الآخِرِ ؛ فعبتمونى بذلك وشنعتم علىّ ؛ وقد قال الحسن وذكر السَّرَف : أما إنه ليكون فى الماء والكلأ ؛ فلم يرض بذكر الماء حتى أردفه بالكلأ .

وعبتمونى أن قلت : لا يغترّنّ أحدكم بطول عُمُره ، وتقوُّسِ ظهره ، ورقة عظمه ، ووهن قوته ، وأن يرى نحوه أكثر ذريته ؛ فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يده ، وتحويلِه إلى مِلْكِ غيره ، وإلى تحكيم السرف فيه ، وتسليط الشهوات عليه ؛ فلعله أن يكون معمراً ؛ وهو لا يدرى ؛ وممدوداً له فى السنّ وهو لا يشعر ؛ ولعله أن يرزق الولدَ على اليأس ، أو يحدث عليه من آفات الدهر مالا يخطر على بال ولايدركه عقل ، فيستردّه ممن لايردّه ، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه ؛ أصعبَ ما كان عليه الطلب ، وأقبح ما كان به أن يطلب ؛ فعبتمونى بذلك وقد قال عمرو بن العاص : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ،

واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

وعبتمونى بأن قلت بأن السرف والتبذير إلى مال المواريث وأموال الملوك [أسْرَع] وأن الحفظ للمال المكتسب ، والغنى المجتلب ، وإلى ما يعرض فيه لذهاب الدين ، واهتضام العرض ، ونَصب البدن ، واهتمام القلب ـ أسرع ؛ ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دخله ، ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل ، ومن لم يعرف للغِنى قدره فقد أذن بالفقر ، وطاب نفساً بالذل .

وعبتمونى بأن قلت : إن كسب الحلال يضمن الإنفاق فى الحلال ، وأن الخبيث ينزع إلى الخبيث ، وأن الطيب يدعو إلى الطيب ، وأن الإنفاق فى الهوى حجازٌ دون الحقوق ؛ فعبتم علىّ هذا القول ؛ وقد قال معاوية : لم أر تبذيراً قط إلا وإلى جنبه تضييع . وقد قال الحسن : إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجلُ ماله ، فانظروا فيما ذا ينفقه ، فإن الخبيثَ إنما يُنْفَق فى السرف .

وقلت لكم بالشفقة عليكم وحسن النظر منى لكم : أنتم فى دار الآفات ، والجوائح غير مأمونات ؛ فإن أحاطت بمال أحدكم آفة لم يرجع إلى بقيّة ، فاحذروا النقم واختلاف الأمكنة ؛ فإن البلية لا تجرى فى الجميع إلا بموت الجميع ؛ و [قد] قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى العبد والأمة والشاة والبعير : فرّقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأسين . وقال ابن سيرين [لبعض البحْريّين] : كيف تصنعون بأموالكم ؟ قالوا : نفرّقها فى السفن ، فإن عطِب بعض سَلِمَ بعض ، ولولا أن السلامة أكثرُ ؛ ما حَمَلْنا أموالنا فى البحر . قال ابن سيرين : تحسبها خَرقاء وهى صَنَاع .

وعبتمونى بأن قلت لكم عند إشفاقى عليكم : إن للغِنى لَسُكراً ، وللمال لَنَزْوة ؛ فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله ؛ فعبتمونى بذلك ؛ وقد قال زيد بن جبَلة : ليس أحد أقصر عقلا من غنِيّ أمِنَ الفقر . وسُكر الغنى أكثر من سكر الخمر .

وقال الشاعر فى يحيى بن خالد بن برمك :

وهُوب تِلاد المـالِ فيما ينوبُهُ * منُوعٌ إذا مامنْعُه كان أحزما

وعبتمونى حين زعمتُ أنى أقدّم المـال على العلم ؛ لأن المـال به يفاد العلم ، وبه تقوم النفس قبل أن يُعرف فضلُ العلم فهو أصل ، والأصلُ أحق بالتفضيل

٥ من الفرع ؛ فقلتم : كيف هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء : آلأغنياء أفضلُ أم العلماء ؟ قال : العلماء ، قيل له : فمأبال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال ، وجهلِ الأغنياء بحقّ العلم ؛ فقلت : حالهما هى القاضية بينهما ، وكيف يستوى شىء حاجةُ العامة إليه ، وشىءٌ يغنى فيه بعضهم عن بعض ؛ وكان النبى صلى الله عليه وسلم يأمر

١٠ الأغنياء باتخاذ الغنم ، والفقراء باتخاذ الدجاج ؛ وقال أبو بكر رضى الله عنـه : إنى لأُبغِض أهل بيت ينفقون نفقة الأيام فى اليوم الواحد ، وكان أبو الأسود الدؤلى يقول لولده : إذا بسط اللهُ لك الرزق فابسط ، وإذا قبض فاقبض .

وعبتمونى حين قلت : [إن] فضل الغنى على القوت إنمـا هو كفضل الآلة تكون فى البيت ، إن احتيج إليها استُعملت ، وإن استُغنى عنها كانت عُدّة ، وقد

١٥ قال الحضين بن المنذر : وددت أن لى مثلَ أُحد ذهباً لا أنتفع منه بشىء ! قيل له : فما كنت تصنع به ؟ قال : لكثرة من كان يخدمنى عليه ، لأن المـال مخدوم ؛ وقد قال بعض الحكماء : عليكَ بطلب الغنى ، فلو لم يكن [لك] فيه إلا أنه عزٌّ فى قلبك ، وذلٌّ فى قلب عدوّك ، لكان الحظ فيه جسيما ، والنفعُ فيه عظيما .

٢٠ ولسنا ندع سيرة الأنبياء ، وتعليمَ الخلفاء ، وتأديب الحكماء لأصحاب اللهو ؛ ولستم علىّ تردّون ، ولا رأيى تُفنّدون ، فقدّموا النظر قبل العزم ، وادّكِرُوا ماعليكم قبل أن تدركوا مالكم ، والسلام عليكم .

* * *

التطفيل

ومن اللؤم : التطفيل ، وهو التعرّض للطعام من غير أن يُدْعى إليه .

أخبار الطفيليين

طفيل العرائس

أولهم طفيل العرائس ، وإليه نسب الطفيليون . وقال لأصحابه : إذا دخل أحدكم عرساً فلا يتلفّت تلفتَ المُريب ، وليتخير المجالس ؛ وإن كان العرس كثير الزحام فليمض ولا ينظر فى عيون الناس ، ليظنّ أهل المرأة أنه من أهل الرجل ؛ ويظن أهل الرجل أنه من أهل المرأة ؛ فإن كان البواب غليظاً وَقَاحاً فتبدأ به وتأمره وتنهاه ، من غير أن تعنف عليه ، ولكن بين النصيحة والإدلال .

قال : يقول الطفيليون : ليس فى الأرض عودٌ أكرمَ من ثلاثة أعواد : عصا موسى ، وخشب منبر الخليفة ، وخوانُ الطعام !

أبو العرقين

وكان أبو العرقين الطفيلى قد نقش فى خاتمه : « اللؤم شؤم » ، فقيل له : هذا رأس التطفيل !

طفيلى بالبصرة

أحمد بن على الحاسب قال : مرّ طفيليٌّ بسكة النخع بالبصرة على قوم وعندهم وليمة ، فاقتحم عليهم وأخذ مجلسه مع من دُعِىَ ، فأنكره صاحبُ المجلس فقالوا له : لو تأنيتَ أو وقفت حتى يُؤذن لك أو يبعث إليك ! قال : إنما اتُّخذت البيوتُ ليُدخَلَ فيها ، ووُضِعتِ الموائدُ ليؤكلَ عليها ، وما وجهت بهدية فأتوقّع الدعوة ، والحشمة قطيعة ، وطرحُها صلة ؛ وقد جاء فى الأثر : صِلْ مَنْ قطعَك ، وأعط من حَرَمَك ؛ وأنشد :

كلَّ يومٍ أدورُ فى عَرْصَةِ الدا ... رِ أشمُّ القُتارَ شمَّ الذُّبابِ
فإذا ما رأيتُ آثار عُرسٍ ... أو دُخانٍ أو دعوةً اصحابِ
لم أعرِّجْ دونَ التقحُّمِ لا أر ... هَبُ طعناً أو لكزَةَ البواب
مستَهيناً بمن دخلتُ عليهمْ ... غير مستأذِنٍ ولا هيّابِ
فترانِى ألفُّ بالرغم منهمْ ... كلَّ ما قدموهُ لَفَّ العُقاب

ومنهم أشعب الطماع ؛ قيل له : ما بلغ من طمعك ؟ قال : لم أنظر إلى

اثنين يتسارّان إلا ظننتهما يأمران لى بشىء ! وفيه يقال : « أطمع من أشعب » .

أشعب الطماع

وقف أشعب إلى رجل يعمل طبقاً ، فقال له : أسألك بالله ألا ما زدتَ فى سَعته طوقاً أو طوقين ! فقال له : وما معناك فى ذلك ؟ قال : لعلَّ يُهدَى إلىَّ فيه شىء ! ٥

ساوم أشعبُ رجلا فى قوس عربية ، فسأله ديناراً فقال له : والله لو أنها إذا رُمِىَ بها طائرٌ فى جوّ السماء وقع مشويا بين رغيفين ، ما أعطيتك بها ديناراً !

وبينا قوم جلوس عند رجل من أهل المدينة يأكلون عنده حيتانا ، إذ استأذن عليهم أشعب ؛ فقال أحدهم : إن من شأن أشعبَ البسطَ إلى أجل الطعام ١٠ فاجعلوا كبار هذه الحيتان فى قصعة بناحية ، ويأكل معنا الصغار . ففعلوا وأذن له ، فقالوا له : كيف رأيُك فى الحيتان ؟ فقال : والله إن لى عليها لحرداً شديدا وحنقا ، لأن أبى مات فى البحر وأكلته الحيتان ! قالوا له : فدونك خذ بثأر أبيك !! فجلس ومد يده إلى حوت منها صغير ، ثم وضعه عند أذنه ـ وقد نظر إلى القصعة التى فيها الحيتان فى زاوية المجلس ـ فقال : أتدرون مايقول لى هذا ١٥ الحوت ؟ قالوا : لا . قال : إنه يقول : إنه لم يحضر موتَ أبى ولم يُدْرِكْه ؛ لأن سنه يصغر عن ذلك ، ولكن قال لى : عليك بتلك الكبار التى فى زاوية البيت ، فهى أدركت أباك وأكلته !

أمير وطفيلى

وكان رجل من الأمراء يستظرف طفيليا يحضر طعامه وشرابه ، وكان الطفيلى أكولا شروبا ، فلما رأى الأمير كثرةَ أكلِهِ وشربه اطّرحه وجفاه ، فكتب ٢٠ إليه الطفيلى :

قد قلّ أكلى وقلّ شرْبى * وصرتُ مِن بابة الأميرِ
فليدْعُ بى وهو فى أمانٍ * أنْ أشْرَبَ الراح بالكبيرِ

طفيلى فى صنيع

وأقبل طفيلى إلى صنيع ، فوجد بابا قد أُرتِج ولا سبيل إلى الوصول ؛

فسأل عن صاحب الصنيع إن كان له ولد غائب أو شريك فى سفر ؟ فأخبر عنه أن له ولد ببلد كذا . فأخذ رقا أبيض وطواه وطبع عليه ، ثم أقبل متدللا فقعقع الباب قعقعة شديدة واستفتح ، وذكر أنه رسول من عند ولد الرجل ؛ ففُتح له الباب ، وتلقاه الرجل فَرِحا فقال : كيف فارقت ولدى ؟ قال : له بأحسن حال ، وما أقدر أن أكلمك من الجوع ! فأمر بالطعام فقدم إليه ، وجعل يأكل ؛ ثم قال له الرجل : ما كتب كتابا معك ؟ قال : نعم . ودفع إليه الكتاب ، فوجد الطين طريا ، فقال له : أرى الطين طريا ! قال : نعم وأزيدُك إنه من الكدّ ما كتب فيه شيئا ! فقال : أطفيلى أنت ؟ قال : نعم أصلحك الله ! قال : كلْ لاهنأك الله !

أشعب على ثريدة — وقيل لأشعب : ماتقول فى ثُرْدة مغمورة بالزبد مشققة باللحم ؟ قال فأُضْرَبُ كم ؟ قيل له : بل تأكلها من غير ضرب . قال : هذا ما لايكون ، ولكن كم الضرب فأتقدم على بصيرة ! ١٠

مزبد المدينى — وقيل لمزبّد المدينى ، وقد أكل طعاما كظّه : قِئْ ! قال : أَقِىءُ نَقًا ولحم جدى ! امرأتى طالق لو وجدتُهما قيئًا لأكلتهما !

الطفيلى — وقيل لطفيلى : ما أبغضُ الطعامِ إليك ؟ قال : القريض . قيل له : ولِمَ ذا ؟ قال : لأنه يؤخر إلى يوم آخر . ١٥

طفيلى وكتبة — ومر طفيلى بقوم من الكتبة فى مشربة لهم ، فسلم ثم وضع يده يأكلُ معهم ؛ قالوا : أعرفت فينا أحدا ؟ قال : نعم ، عرفت هذا . وأشار إلى الطعام ! فقالوا : قولوا بنا فيه شعراً .

فقال الأول : ٢٠

* لم أرَ مثلَ سَرْطِه ومطّه *

وقال الثانى :

* ولَفِّهِ دَجاجَهُ ببَطِّه *

وقال الثالث :

* كأنّ جالينوسَ تحت إبْطِه *

فقال الاثنان للثالث : أما الذى وصفناه من فعله ففهوم ، فما يصنع جالينوس تحت إبطه ؟ قال : يُلقِمُه الجوارش كلما خاف عليه التخمة ؛ يهضم ٥ بها طعامه !

الجاز وطفيلى

ومرّ طُفيلى على الجماز ؛ فقال له ماتأكل ؟ قال : [قىء] كلبٍ فى قحف خنزير !

ودخل طُفيلى على قوم يأكلون فقال : ماتأكلون ؟ فقالوا من بغضه : سُمًّا ! فأدخل يده وقال : الحياةُ حرامٌ بعدكم !

ومرّ طفيلى على قوم كانوا يأكلون وقد أغلقوا الباب دونه ، فتسوّر عليهم ١٠ من الجدار وقال : منعتمونى من الأرض لجئتكم من السماء !

لطفيلى

وقيل لطفيلى : كم اثنان فى اثنين ؟ قال : أربعة أرغفة .

وقيل لآخر : كم كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر ؟ قال : كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر درهما .

طفيلى وزنادقة حلوا للمأمون

قال محمد بن أحمد الكوفى : حدّثنا الحسين بن عبد الرحمن عن أبيه قال : ١٥ أمر المأمون أن يُحمل إليه عشرة من الزنادقة سُمّوا له بالبصرة ؛ فجُمِعوا ، وأبصرهم طُفَيلى ، فقال : ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع ! فانسلّ فدخل وسطهم ، ومضى بهم المتوكلون حتى انتهوا بهم إلى زورق قد أُعِدّ لهم ، فدخلوا الزورق ، فقال الطفيلى : هى نزهة ! فدخل معهم ، فلم يكن بأسرع من أن قُيِّدوا وقُيِّدَ معهم الطفيلى ، ثم سِيرَ بهم إلى بغداد ، فأدخِلوا على المأمون ، فجعل يدعو ٢٠ بأسمائهم رجلا رجلا ، فيأمر بضرب رقابهم ، حتى وصل إلى الطفيلى وقد استوفى العِدّة ، فقال للموكلين : ماهذا ؟ قالوا : والله ماندرى ، غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به . فقال له المأمون : ما قصتُك ويلك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، امرأته طالق إن كان يعرف من أحوالهم شيئا ، ولا مما يدينون الله به ؛ إنما أنا رجلٌ

طفيلي رأيتُهم مجتمعين فظننتهم ذاهبين لدعوة! فضحك المأمون وقال: يؤدّب!
وكان إبراهيم بن المهدي قائما على رأس المأمون، فقال: يا أمير المؤمنين،
هب لي ذنبه، وأحدّثك عن حديث عجيب عن نفسي. قال: قل يا إبراهيم،
قال: خرجتُ يا أمير المؤمنين من عندك يوما؛ فطفتُ في سكك بغداد متطرّبا،
فانتهيت إلى موضع، فشممتُ روائح أبازير قدورٍ قد فاح طيبُها، فتاقت نفسي ٥
إليها وإلى طيب ريحها، فوقفت على خياط فقلت: لمن هذه الدار؟ قال: لرجل
من التجار من البزازين. قلت: ما اسمه؟ قال: فلان ابن فلان. فنظرت إلى
الدار، فإذا بشباك فيها مطلّ، فنظرت إلى كف قد خرجت من الشباك قابضة على
عضد ومعصم، فشغلني يا أمير المؤمنين حُسْنُ الكفّ والمِعْصَم عن رائحة القدور،
وبقيت باهتا ساعة؛ ثم أدركني ذهني، فقلت للخياط: أهو ممن يشرب؟ قال: ١٠
نعم، وأحسب أن عنده اليوم دعوة، وليس ينادمه إلا تجار عملةٌ مستورون.
فبينا أنا كذلك إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرب، فقال الخياط:
هؤلاء منادموه. فقلت: ما اسماهما وما كناهما؟ قال: فلان وفلان. فحركتُ
دابتي وداخلتُهما، وقلت: جُعلتُ فداكما، قد استبطأكما أبو فلان أعزه الله.
وسايرتُهما حتى بلغا الباب، فأدخلاني وقدّماني، فدخلنا؛ فلما رآني صاحب المنزل ١٥
لم يشك أني منهما بسبيل، أو قادم قدمتُ عليهما من موضع؛ فرحّب بي،
وأجلستُ في أفضل المواضع؛ فجيء بالمائدة وعليها خبز نظيف، وأتينا بتلك
الألوان، فكان طعمُها أطيبَ من ريحها؛ فقلت في نفسي: هذه الألوان قد
أكلتها، وبقي الكفُّ والمِعصم، كيف أصِلُ إلى صاحبتهما؟ ثم رُفِع الطعام،
وجاءونا بوضوء، فتوضأنا وصرنا إلى بيت المنادمة، فإذا أشكلُ بيت يا أمير المؤمنين، ٢٠
وجعل صاحبُ المنزل يلطف بي ويميل عليّ بالحديث، وجعلوا لا يشكون أن ذلك
منه على معرفة متقدمة؛ حتى إذا شربنا أقداحا، خرجت علينا جارية كأنها بانٌ،
تنثني كالخيزران فأقبلت فسلمتْ غير خجلة، وثُنِيَت لها وسادة فجلست، وأُتيَ
بالعود فوضع في حِجرها فجسّته، فاستبنتُ في جسّها حِذقها، ثم اندفعت تغني:

توهّمها طرْفى فأصبح خدّها * وفيه مكان الوهْم من نظرى أثرْ
وصافحها كفّى فآلم كفَّها * فمِن مسّ كفى فى أناملها عَقرْ

فجملتْ يا أمير المؤمنين بلايلى تطرب لحسن شعرها ، ثم اندفعت تغنى :

أشرتُ إليها : هل عرفت مودّتى ؟ * فردّت بطرف العين : إنى على العهْدِ
٥ فحِدْتُ عن الإظهار عمداً لسرِّها * وحادتْ عن الإظهار أيضاً على عمْد

فصحت : يا سلام ! وجاءنى من الطرب ما لا أملك نفسى معه ؛ ثم اندفعتْ فغنت الثالث :

أليس عجيباً أن بيتاً يضُمُّنى * وإياك لا نخلو ولا نتكلمُ ؟
سوى أعيُنٍ تشكو الهوى بجفونِها * وتقطيعِ أنفاسٍ على النار تضرَم
١٠ إشارة أفواهٍ وغمزُ حواجب * وتكسيرُ أجفان وكف يسلِّمُ

فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذقها ومعرفتها بالغناء ، وإصابتها لمعنى الشعر ، وأنها لم تخرج من الفنّ الذى ابتدأتْ به ؛ فقلت : بقى عليك يا جارية !

فضربتْ بعودها الأرض وقالت : متى كنتم تُحضِرونَ مجالسكم البغضاء !

فندمتُ على ما كان منى ، ورأيت القوم كأنهم تغيروا لى ؛ فقلت : أما عندكم
١٥ عود غير هذا ؟

قالوا : بلى .

فأتيت بعود ، فأصلحت من شأنه ، ثم غنيت :

ما للمنازلِ لا يُجِبْنَ حَزينا * أصُمِمْنَ أم قدُم المدَى فبلِينا
راحوا العشيّةَ روْحةً منكورةً * إن مِتْنَ مِتْنا أو حَيين حيينا

٢٠ فما أتممته حتى قامت الجارية فأكبّت على رجلى تقبلها ، وقالت : معذرةً إليك ! فوالله ما سمعت أحداً يغنى هذا الصوت غِناءك ! وقام مولاها وأهل المجلس ففعلوا كفعلها ، وطرب القوم والله واستحثوا الشراب ، فشربوا بالكاسات والطاسات ؛ ثم اندفعتُ أغنى :

أَبَى اللهُ أن تَمشى ولا تّذكريٰنى ۞ وقد سفَحتْ عيناىَ من ذِكرِك الدَّما
فردِّى مُصابَ القلبِ أنتِ قتلتِهِ ۞ ولا تتركيه ذاهلَ العقل مغرَما
إلى الله أشكو بُخلَها وسماحَتى ۞ لهــا عَسلٌ منى وتبــذُلُ علقَما
إلى الله أشكو أنهـا مادريّة ۞ وإنى لها بالودِّ ما عشتُ مُكرِما

٥ فطرب القوم حتى خرجوا من عقولهم ، فأمسكتُ عنهم ساعة حتى تراجعوا ثم اندفعت أغنى الثالث :

هذا محبُّكِ مطوىٌّ على كَمدِهْ ۞ حرّى مدامعُه تجرى على جسدهْ
له يدٌ تسألُ الرحمنَ راحته ۞ مما جَنَى ، ويدٌ أخرى على كبده

فجعلت الجارية تصيح : هذا الغناء والله ياسيدى لا ما كنا فيه !

١٠ وسكر القوم ، وكان صاحب المنزل حسَن الشرب صحيح العقل ، فأمر غلمانه أن يخرجوهم ويحفظوهم إلى منازلهم ، وخلوتُ معه ؛ فلما شربنا أقداحا قال : ياهذا ، ذهب ما مضى من أيامى ضياعا إذ كنتُ لا أعرفك ؛ فمن أنت يا مولاى ؟

ولم يزل يلحُّ حتى أخبرته الخبر ، فقام وقبّل رأسى وقال : وأنا أعجب ياسيدى أن يكون هذا الأدب إلا لمثلك ، وأنى لى أجالس الخلفاء ولا أشعر ؟

١٥ ثم سألنى عن قصتى فأخبرته ، حتى بلغت خبَر الكف والمعصم ؛ فقال للجارية : قومى فقولى لفلانة تنزل ...

ثم لم يزل يُنزِل جواريَه واحدة بعد أخرى ، وأنظر إلى كفها ومعصمها وأقول : ليست هى ! حتى قال : والله ما بقى غير زوجتى وأختى ، ووالله لأنزلنّهما إليك .

٢٠ فعجبت من كرمه وسَعة صدره ، فقلت : جُعلتُ فداك ، ابدأ بالأخت قبل الزوجة ، فعساها هى .

فبرزت ، فلما رأيت كفَّها ومعصمها قلت : هى هذه ! فأمر غلمانه فمضوا إلى عشرة مشايخ من جلة جيرانه ، فأقبلوا بهم ؛ وأمر ببدرتين فيهما عشرون ألف

درهم ، فقال للمشايخ : هذه أختى فلانة ، أشهدكم أنى قد زوجتُها من سيدى إبراهيم ابن المهدى ، وأمهرتُها عنه عشرين ألفا ! فرضيت النكاح ، فدفع إليها البدرة ، وفرق الأخرى على المشايخ ، وقال لهم : انصرفوا . ثم قال : ياسيدى أمهد لك بعض البيوت فتنام مع أهلك ! فاحتشمنى ما رأيت من كرمه ، فقلت : بل أحْضِر عمارية وأحملها إلى منزلى . قال : ما شئت . فأحضرت عمارية وحملتُها إلى منزلى ؛ فوالله يا أمير المؤمنين ، لقد أتبَعَها من الجهاز ما ضاق عنه بعضُ بيوتنا : فأولدتها هذا القائم على رأس أمير المؤمنين .

فعجب المأمون من كرم الرجل ، وأطلق الطفيلىّ وأجازه ، وألحق الرجل فى أهل خاصته .

طفيلى وقوم يتغدون

ومرَّ طُفيلىّ بقوم يتغدون ، فقال : سلام عليكم معشر اللئام ! فقالوا : لا والله ، بل كرام . فثنى رجله وجلس ، وقال : اللهم اجعلهم من الصادقين واجعلنى من الكاذبين !

الفضل بن يحيى وطفيلى

ودخل طفيلىّ من أهل المدينة على الفضل بن يحيى وبيده تفاحة ، فألقاها إليه وقال : حيَّاك الله يامدنى ! فلزمها وأكلها ، فقال له : شؤم عليك يامدنى ، أتأكل التحيات ؟ قال : أى والله ، والزاكياتِ الطيبات كنت آكلها !

إبراهيم الموصلى وطفيلى

وقال إبراهيم الموصلى فى طفيلى كان يصحبه :

نِعمَ النَّديمُ نديمٌ لا يُكلِّفُنى * ذبحَ الدَّجاجِ ولا ذبحَ الفراريجِ
يكفيه لوْنان من كشكٍ ومن عدَسٍ * وإن يشأْ فزيتونٌ بطَسُّوجِ

لطفيلى فى نفسه

وقال طفيلىّ فى نفسه :

نحنُ قومٌ إذا دُعِينا أجَبنا * ومتَى نُنْسَ يدْعُنا التَّطفيلُ
ونقُلْ : علَّنا دُعينا فغِبْنا * وأتانا فلم يَجِدْنا الرسُولُ !

وقال آخر وأتى طعاماً لم يُدع إليه، فقيل له: من دعاك؟ فأنشأ:

دعوتُ نفسى حينَ لم تُدْعَى * فالحمدُ لى لا لَكَ فى الدعوهْ

وكان ذا أحسَن من مَوْعِدٍ * مُخْلِفِه يدعو إلى الجفوهْ

ودخل طُفيلىٌّ فى صنيع رجل من القِبْط، فقال له: من أرسل إليك؟ فأنشأ:

أزورُكم لا أكافيكم بجفوتِكم * إنّ المحبَّ إذا مالم يُزَرْ زارا

فقال القبطى: زُرْزارا! ليس ندرى من هو؟ أخرُجْ من بيتى!

طفيلى وزنادقة

ونظر رجل من الطفيليين إلى قوم من الزنادقة يُسارُ بهم إلى القتل: فرأى لهم هيئة حسنة وثياباً نقية، فظنهم يُدْعَوْن إلى وليمة، فتلطف حتى دخل فى لفيفهم وصار واحداً منهم، فلما بلغ صاحبُ الشرطة قال: أصلحك الله، لستُ والله منهم، وإنما أنا طفيلى ظننتهم يُدْعَوْن إلى صنيع فدخلت فى جملتهم! فقال: ليس هذا مما يُنجيك منى، اضربوا عنقه! فقال: أصلحك الله، إن كنت ولا بدّ فاعلا فأمُرِ السياف أن يضرب بطنى بالسيف، فإنه هو الذى ورّطنى هذه الورطة! فضحك صاحب الشرطة، وكشف عنه، فأخبروه أنه طفيلى معروف، فخلّى سبيله.

لطفيلى

وقال طفيلى:

ألا ليتَ لى خُبْزاً تسربَل رائباً * وخيْلا من البرْنىّ فُرْسانها الزُّبْدُ

فأطلُب فيما بيْنهنّ شهادةً * بموْتٍ كريمٍ لا يُشَقُّ له لحدُ

وكان أشعب يختلف إلى قينة بالمدينة يطارحها الغناء، فلما أراد الخروج إلى مكة قال لها: ناولينى هذا الخاتم الذى فى إصبعِك لأذكرك به! قالت: إنه ذهب، وأخاف أن تذهب؛ ولكن خذ هذا العود، لعلك تعود.

شيخ وحدث

اصطحب شيخٌ وحدَثٌ من الأعراب، فكان لهما قرص فى كل يوم،

وكان الشيخ متخلع الأضراس بطيء الأكل ، فكان الحدث يَبْطِش بالقرص ثم يقعد يشتكى العشق ، ويتضور الشيخ جوعا ، وكان اسم الحدث جعفراً ، فقال الشيخ فيه :

لقد رابَنى من جعفرٍ أنّ جعفراً * يطيشُ بقُرصِى ثم يبكى على جُمْلِ

فقلتُ له لو مسَّكَ الحبُّ لم تبِتْ * سميناً وأنساكَ الهوى شِدّةَ الأكلِ

وقال الحدث :

إذا كان فى بطْنِى طعامٌ ذكرتُها * وإن جُعْتُ يوماً لم تكن لى على ذِكرِ

ويزدادُ حُبّى إنْ شبِعْتُ تجدُّداً * وإنْ جُعْتُ غابت عن فؤادى وعن فِكرى!

أشعب وجارية

وكان أشعب يختلف إلى جارية فى المدينة ، ويُظْهِرُ لها التعاشق ، إلى أن سألته سلفة نصف درهم ، فانقطع عنها ، وكان إذا لقيها فى طريق سلك طريقا أخرى ، فصنعت له نشوقا وأقبلت به إليه ، فقال لها : ما هذا ؟ قالت : نشوق عملتُ لك لهذا الفزع الذى بك ! فقال : اشربيه أنت للطمع [الذى بكِ] ؛ فلو انقطع طمَعُكِ انقطع فزعى ! وأنشأ يقول :

أخلِفِى ماشئتِ وعدى * وامنحينى كلَّ صدِّ

قد سلا بعدَكِ قلبى * فاعشِقِى مَن شئتِ بعدى

إنَّنى آليتُ لا أعشَقُ مَن يعشِقُ نقْدِى !

لأشعب فى الغناء

وقيل لأشعب : ما أحسنُ الغناء ؟ قال : نشيشُ المقلى ! قيل له . فما أطيب الزمان ؟ قال : إذا كان عندك ما تنفق !

وكان أشعب يغنى :

الا أخبرْتُ أخبارا * أتت فى زمَنِ الشِّدهْ :

وكان الحبُّ فى القلْبِ * فصار الحبُّ فى المِعْدَهْ

لبعضهم فى طفيلى

وقال آخر فى طُفيلى من أهل الكوفة :

زرعنا ، فلما تمّمَ اللهُ زرْعنا * وأوفى عليه مِنْجَلٌ بحصادِ

بُلينا بكَوْفِيٍّ حليف مجاعةٍ * أضرَّ بزرْع من دَبًى وجرادِ

لهشام

وقال هشام أخو ذى الرُّمة لرجل أراد سفرا : إن لكل رفْقة كلبا يشركهم فى فضلة الزاد ، فإن استطعت أن لا تكون كاب الرفاق فافعل .

أبو نواس وشطار

وخرج أبو نواس متنزها مع شُطار من أصحابه ، فنزلوا روضة ووضعوا شرابا ، فمر بهم طفيلىّ ، فتطارح عليهم ؛ فقال له أبو نُواس . ما اسمك ؟ قال : ٥ أبو الخير . فرحب به وقعد معهم ؛ ثم مرت بهم جارية فسلمت ، فردّ عليها ، وقال لها : ما اسمك ؟ قالت : زانة . قال أبو نواس لأصحابه : أسرقوا الياء من أبى الخير ، فأعطوها زانة ، فتكون زانية ، ويكون أبو الخير أبا الخر كما هو نفعلوا ... ...

الجاحظ وغيره فى صنيع

١٠ الجاحظ قال : دعا أبو عبد الله الواسطى إلى صنيع ، فدعانى ، فدعوت أبا الفَلَوْسَكِىّ ، فلما كان من الغد صبح الفلوسكى الجاحظ فقال له : أما تذهب بنا هناك يا أبا عثمان ؟ قال : نعم . قال فذهبنا حتى أتينا دار صاحب الصنيع ، ولم يكن علينا كسوة رائعة ولا تحتنا دواب فتدخل تجاهنا ، فوجدنا البواب ذا غِلَظٍ وجفاء ، فمنعنا ، فانحدرنا فى جانب الإيوان ننتظر أحدا يُعْلِمُ أبا عبد الله ١٥ الواسطى بحالنا ؛ فمكثنا حينا حتى أتى من نعرفه ، فسألناه أن يُعْلِم أبا عبد الله الواسطى بنا ؛ فلما أخبر خرج إلينا يتلقانا ، فتقدمنى الفلوسكى وتقدمه حتى أتى صدر المجلس ؛ فقعد فيه ؛ ثم قال لى : ههنا عندنا يا أبا عثمان ؛ فلما خلونا ثلاثتنا قلت للفلوسكى : كيف تسمى العرب من أمالت إلى أنفسها ؟ قال الفلوسكى : تسميه ضيفا . فقال له الجاحظ : وكيف تسمى من أماله الضيف ؟ قال : تسميه ٢٠ ضيفناً . قال الجاحظ : وكيف تسمى من أماله الضيفن ؟ قال : ما لمثل هذا عند العرب تسمية . قال الجاحظ : فقلت : قد رضيتَ أن تكون فى منزلة من التطفيل لم تجد لها العرب اسما ، ثم تتحكم تحكُّمَ صاحبِ البيت .

باب من أخبار المحارفين الظرفاء

أبو الشمقمق

منهم أبو الشمقمق الشاعر ، وكان أديبا ظريفا محارفا ، وكان صعلوكا متبرما بالناس ، وقد لزم بيته فى أطمار مسحوقة ، وكان إذا استفتح عليه أحدٌ بابه ، خرج فينظر من فروج الباب ، فإن أعجبه الواقف فتح له وإلا سكت عنه ؛ فأقبل إليه يوما بعض إخوانه الملطفين له ، فدخل عليه فلما رأى سوء حاله قال له : أبشر أبا الشمقمق ، فإنا روينا فى بعض الحديث : « إن العارين فى الدنيا هم الكاسون يوم القيامة » . فقال : إن صح والله هذا الحديث كنت أنا فى ذلك اليوم بزّازا ! ثم أنشأ يقول .

أنا فى حالٍ تعالى اللهُ ربّى أىّ حالِ

ليس لى شىءٌ إذا قيل لمنْ ذا قلتُ ذا لى

ولقد أُهزِلتُ حتى * مَحتِ الشمسُ خيالى

ولقد أفلستُ حتى * حلّ أكلى لِعيالى

وله :

أترانى أرى من الدهرِ يوماً * لِىَ فيه مَطيةٌ غيرُ رِجْلِى ؟

كلما كنتُ فى جَميعٍ فقالوا * قرِّبوا للرّحيلِ ، قرّبتُ نعلى !

حيثما كنتُ لا أُخلِّفُ رحْلا * مَن رآنى فقد رآنى ورَحْلى !

وقال أبو الشمقمق أيضا :

[لو] قد رأيتَ سَريرى كنتَ ترحَمُنى * الله يعلمُ مالِى فيه تلبيسُ

والله يعلمُ مالى فيه شابِئة * إلا الحصيرةُ والأطمارُ والدّيس

وقال أيضا :

برزْتُ من المنازِلِ والقبابِ * فلم يَعسُرْ على أحدٍ حِجابى

فمنزِلِىَ الفضاءُ ، وسَقفُ بيتى * سماءُ اللهِ أو قِطعُ السَّحابِ

فأنتَ إذا أردتَ دخلتَ بيتى * علىَّ مُسَلِّماً من غيرِ بابِ
لأنى لم أجِــد مِصراعَ بابٍ * يكون منَ السحابِ إلى الترابِ
ولا انشقَّ الثَّرى عن عودِ تَحتٍ * أؤمِّلُ أن أشارِكَه ببابى
ولا خِفتُ الإباقَ على عبيدى * ولا خِفتُ الهلاكَ على دوابى
ولا حاسَبتُ يوماً قهــرَمانا * محاســبة فأغلِطَ فى حسابى
وفى ذا راحــة وفراغُ بالٍ * فدأبُ الدَّهرِ ذا أبداً ودابى

وقال أيضا :

لو ركبتُ البحارَ صارتْ فِجاجا * لا ترى فى مُتونِهــا أمواجا
فلو انِّى وضعتُ ياقوتةً حَمْـــراء فى راحَتى لصارتْ زُجاجا
ولو انِّى ورَدتُ عَذْباً فُراتاً * عادَ لا شكَّ فيه مِلحاً أُجاجا
فإلى الله أشتكى وإلى الفضـــل فقد أصبحَتْ بِزاتى دَجاجا

لابن المدبر وقال عمر بن المدبر :

وقفتُ ، فلا أدرى إلى أينَ أذهبُ * وأىَّ أمورِى بالعزيمةِ أركبُ
عَجِبتُ لأقــدار علىَّ تتابَعتْ * بنحْسٍ فأفنَى طُولَ دهرى التعجُّبُ
ولما التَمستُ الرِّزقَ فانحلَّ حَبلُه * ولم يَصفُ لى من بحرِهِ العذْبِ مَشرَب
خطبتُ إلى الإعدامِ إحدى بناتِه * لِدفْعِ الغِنى إيَّاىَ إذْ جئتُ أخطُب
فزوَّجَنيهــا ثمّ جاء جِهازُها * وفيه منَ الحِرمانِ تَختٌ ومِشجَب
فأولدْتُهـا الحُزنَ النَّقىَّ ، فما لهُ * على الأرضِ غيرِى والِدٌ حين يُنسَب
فلو تِهتُ فى البيْداءِ والليلُ مُسبِلٌ * علىَّ دَياجيهِ لما لاحَ كوكب
ولو خفتُ شرًّا فاستَترتُ بظُلمة * لأقبلَ ضوءُ الشمسِ من حيثُ تغرُب
ولو جادَ إنســانٌ علىَّ بدرهمٍ * لرُحتُ إلى رَحلى وفى الكفِّ عقرَب
ولو يُمطَرُ الناسُ الدنانيرَ لم يكنْ * بشىءٍ سوى الحصباءِ رأسِىَ يُحصَب

ولو لمَسَتْ كفّاى عِقداً مُنظماً * منَ الدُّرِّ أضحى وهُو ودْعٌ مُثقّبُ
وإن يقترِفْ ذنباً ببرقةَ مُذنِبٌ * فإنّ برأسى ذلك الذنبَ يَعْصب
وإن أرَ خيراً فى المنامِ فنازحٌ * وإن أرَ شرًّا فهو منى مُقترب
ولم أغْـدُ فى أمرٍ أريدُ نجاحَهُ * فقابَلنى إلا غُـرابٌ وأرنَب
٥ أمامِي منَ الحِرمانِ جَيشٌ عَرَمْرَمٌ * ومنهُ وراثى جَحفَلٌ حين أركب!

وقال آخر : لبعضهم

ليس إغْلاقى لِبابِي أنّ لِي * فيه ما أخشَى عليهِ السَّرَقا
إنمـا أغلقْتُه كى لا يَرى * سُوءَ حالى مَن يمرُّ الطُّرُقا
منزلٌ أُوطِنهُ الفقرُ فلو * يدخُلُ السارقُ فيه سُرِقا!

١٠ وقال الحسن بن هانئ فى هذا المعنى : لابن هانئ

الحمـد لله ليسَ لى نشَبُ * خفّ ظهرى وقلّ زُوّارى
من نَظرتْ عينُهُ إلىّ فقد * أحاطَ عِلماً بما حَوتْ دارى
جَمْرِيَ فى البيتِ كامنٌ وعلى * مَدرَجَةِ الرائحينَ أسرارى

وقال بعض المحارفين :

١٥ لزِمتنى حرْفة ما تنقَضِى * أبداً حتى أوارَى فى الجدثْ
كلزومِ الطوْق إلا أنها * تَستجِدُّ الدهرَ والطوقُ يَرِثّ

كتاب الزبرجدة الثانية

فى بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان

لابن عبد ربه

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه رحمه الله : قد مضى قولنا فى المتنبئين، والممرورين والبخلاء، والطفيليين .

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى طبائع الإنسان وسائر الحيوان ، وتفاضل البلدان ، والنعمة والسرور ؛ إذ لم يكن مدارُ الدنيا إلا عليها ، ولا قِوامُ الأبدان إلا بها ؛ وإذ هى نمو الفراسة ، وتركيب الغريزة ، واختلاف الهمم ، وطيب الشيم وتفاضل الطعوم .

وقد تكلم الناس فى النعمة والسرور ، على تباين أحوالهم ، واختلاف هممهم وتفاوت عقولهم ، وما يجانس كل رجل منهم فى طبعه ، ويؤالفه فى نفسه ، ويميل إليه فى وهمه ؛ وإنما اختلف الناس فى هذا المذهب لاختلاف أنفسهم ، فمنهم من نفسه غضبية ، فإنما همه منافسة الأكفاء ، ومغالبة الأقران ، ومكاثرة العشيرة ومنهم من نفسه ملكية ، فإنما همه اليقين فى العلوم ، وإدراك الحقائق ، والنظر فى العواقب ؛ ومنهم مَن نفسُه بهيمية ، فإنما همه طلبُ الراحة ، وانهماك النفس على الشهوة من الطعام والشراب والنكاح ؛ وعلى هذه الطبيعة البهيمية قَسَمَت الفرس دهرَها كلَّه ، فقالوا : يوم المطر للشرب ، ويوم الريح للنوم ، ويوم الدَّجن للصيد ، ويوم الصحو للجلوس . وهى أغلب الطبائع على الإنسان ، لأخذها بمجامع هواه ، وإيثار الراحة وقلة العمل ؛ فمنه قولهم : الرأى نائم والهوى يقظان ؛ وقولهم : الهوى إلهٌ معبود ؛ وقولهم : ربيعُ القلب ما اشتهى ، وقولهم : لا عيشَ كطيبِ النفس .

النفس الملكية

لضرار — قيل لضرار بن عمرو : ما السرور ؟ قال : إقامة الحجة وإدحاضُ الشبهة .

وقيل لآخر : ما السرور ؟ قال : إحياء السنة وإماتة البدعة .

وقيل لآخر : ما السرور ؟ قال : إدراكُ الحقيقة ، واستنباطُ الدقيقة .

٥ الحجاج وخريم — وقال الحجاج بن يوسف لخريم الناعم : ما النعمة ؟ قال : الأمنُ ، فإنى رأيت الخائف لا ينتفع بعيش . قال له زدنى . قال : فالصحة فأنى رأيت المريض لا ينتفع بعيش . قال له : زدنى . قال له : الغنى ، فإنى رأيت الفقير لا ينتفع [بعيش] . قال له : زدنى . قال : فالشباب ، فإنى رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش . قال له : زدنى ، قال : ما أجد مزيدا .

لأعرابى — وقيل لأعرابى : ما السرور ؟ قال : الأمنُ والعافية .

١٠ النفس الغضبية

لحضين — قيل لحضين بن المنذر : ما السرور ؟ قال لواء منشور ، والجلوس على السرير ، والسلام عليك أيها الأمير .

لابن سهل — وقيل للحسن بن سهل : ما السرور ؟ قال : توقيعٌ جائز ، وأمرٌ نافذ .

لابن الأهتم — وقيل لعبد الله بن الأهتم : ما السرور ؟ قال : رفع الأولياء ، ووضع الأعداء ، ١٥ وطول البقاء ، مع الصحة والنماء .

لزياد — وقيل لزياد : ما السرور ؟ قال : من طال عمره ، ورأى فى عدوه ما يسرُّه .

وقيل لأبى مسلم صاحب الدعوة : ما السرور ؟ قال : ركوب الهماجة ، وقتل الجبابرة . وقيل له : ما اللذة ؟ قال إقبال الزمان ، وعز السلطان .

النفس البهيمية

٢٠ لامرئ القيس — قيل لامرئ القيس : ما السرور ؟ قال : بيضاء رعبوبة ، بالطِّيبِ مشبوبة ، باللحم مكروبة . وكان مفتونا بالنساء .

لأعشى بكر — وقيل لأعشى بكر : ما السرور ؟ قال : صهباء صافية ، تمزجها ساقية ، من صوب غادية . وكان مغرماً بالشراب .

لطرفة — وقيل لطرفة : ما السرور ؟ فقال : مطعم هنيّ ، ومشرب رويّ ، وملبس دفيّ ، ومركب وطيّ . وكان يؤثر الخفض والدعة .

وقال طرفة : ٥

فلولا ثلاثٌ هُنّ من عيشةِ الفتى * وربِّك لم أحفِلْ متى قام عُوّدِى

فمنهنّ سبْقِى العاذِلاتِ بشَرْبةٍ * كُمَيْتٍ متى ما تُعْلَ بالماء تَزْبِدِ

وكرّى إذا نادى المُضافُ مُجنّباً * كسِيد الغَضا فى الطّخْية المُتورِّد

وتقصيرُ يوم الدّجْنِ والدّجنُ مُعْجِبٌ * ببَهْكَنةٍ تحت الخِباء المُمَدَّد

وسمع هذه الأبيات عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فقال : وأنا والله لولا ثلاث لم أحفل متى قام عودى ، لولا أن أعدلَ فى الرعية ، وأقسِمَ بالسوية ، وأنفر فى السرية . ١٠

لابن نهيك — وقال عبد الله بن نهيك :

فلولا ثلاثٌ هُنّ من عيشةِ الفتى * وربِّك لم أحفِل متى قام رامِسُ

فمنهنّ سبْقُ العاذِلاتِ بشَرْبةٍ * كأن أخاها مطلعُ الشمسِ ناعسُ ١٥

ومنهنّ تقريطُ الجَوادِ عِنانَهُ * إذا ابتَدرَ الشخصَ الكميَّ الفوارسُ

ومنهنّ تجريدُ الكواعبِ كالدُّمى * إذا ابتزّ عَنْ أكفالهِنّ الملابس

لابن مزيد — وقيل ليزيد بن مزيد : ما السرور ؟ قال : قبلة على غفلة . وكان صاحب وصائف .

وقيل لحُرقة بنت النعمان : ما كانت لذة أبيك ؟ قالت : شرب الجِريال ، ومحادثة الرجال . ٢٠

لحضين — وقيل لحضين بن المنذر : ما السرور ؟ قال : دار قوراء ، وجارية حوراء ، وفرس مرتبط بالفناء .

لابن هانئ

وقيل للحسن بن هانئ : ما السرور ؟ قال : مجالسة الفتيان ، فى بيوت القيان ، ومنادمة الإخوان ، على قضب الريحان ، وأنشأ يقول :

قلتُ بالعينِ لموسَى * ونَداماىَ نِيــامُ
يا رضيعِى ثَدْى أُمّ * ليس لى عنـه فِطام
٥ إنما العيشُ سماعٌ * ومُـــدامٌ ونِدام
فإذا فاتكَ هـــذا * فعلى الدنيا السلام

معاوية وابن جعفر

وقال معاوية لعبد الله بن جعفر : ما أطيبُ العيش ؟ قال : ليس هـذا من مسائلك يا أمير المؤمنين ! قال : عزمت عليـك لتقولن . قال : هتكُ الحيا ، واتباعُ الهوى .

معاوية وابن العاص

١٠ وقال معاوية لعمرو بن العاص : ما العيش ؟ قال ليخرج مَن هنا من الأحداث ! فخرجوا ، فقال : العيش كله فى إسقاط المروءة !

لهشام

وقال هشام بن عبد الملك : ألذ الأشياء كلها جليس مساعد يسقط عنى مئونة التحفظ .

لأعرابى

وقيل لأعرابى : ما السرور ؟ قال لبسُ البالى فى الصيف ، والجديد فى الشتاء

١٥ وقيل لآخر : ما النعيم ؟ قال : المـاء الحارُّ فى الشتاء ، والبارد فى الصيف .

البنيان

النبى صلى الله عليه وسلم

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من بَنَى بُنيانا فليُتْقِنْهُ » .

وقالت الحكماء : لذة الطعام والشراب ساعة ، ولذة الثوب يوم ، ولذة المرأة شهر ، ولذة البنيان دهر ، كلما نظرتَ إليه تجددت لذته فى قلبك ، وحسنُه ٢٠ فى عينك .

وقالوا : دار الرجل جنتُه فى الدنيا .

وقالوا : ينبغى للدار أن تكون أولَ ما يُبتاع وآخر ما يُباع .

يحيى وابنه جعفر

وقال يحيى بن خالد لابنه جعفر بن يحيى حين اختط داره ليبنيها : هى قيصك

إن شئت فضيق وإن شئت فوسع .

الرشيد وعبد الملك

وقال هارون الرشيد لعبد الملك بن صالح : كيف منزلك بمَنْبِج ؟ قال دون منازل أهلي ، وفوق منازل أهلها . قال : وكيف ذلك وقدرُك فوق أقدارهم ؟ قال : ذلك خُلُقُ أمير المؤمنين أحتذى مثاله .

الرشيد وابن صالح

ولما دخل هارون منبجا قال لعبد الملك بن صالح : هذا منزلك ؟ قال : هو لأمير المؤمنين ولى به ! قال : كيف ماؤُهُ ؟ قال : أطيبُ ماء . قال : كيف هواؤه ؟ قال : أفسحُ هواء .

وذُكر عند جعفر بن يحيي الدارُ الفسيحة الجوّ الطيبة النسيم ، فقال رجل عنده : لقد دخلتُ الطائف فكأنى كنت أبشر ، وكان قلبي ينضح بالسرور ، ولا أجد لذلك علة إلا طيبَ نسيمها وانفساح هوائها .

للحسن بن سهل

وقيل للحسن بن سهل : كيف نزلت الأطرافَ ؟ قال : لأنها منازل الأشراف ، ينالون فيها ما أرادوا بالقدرة ؛ وينالهم فيها من أرادهم بالحاجة .

قولهم فى الدار الضيقة

لبعضهم

ماهى إلا قرارُ حافر ؛ وماهى إلا وِجارُ ضَبُع ، وما هى إلا قترة قانص ؛ وماهى إلا مَفْحَص قطاة .

وقالوا : ماهى إلا حملة يعسوب برأس سنان .

ومن مات فى دار ضيقة قيل فيه : حرج من قبر إلى قبر .

من كره البنيان

لابن الخطاب

كتب سعد بن أبى وقاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى بناء بيته ، فقال : ابن ما يُكنك عن الهواجر وأذى المطر .

وكتب عامل لعمر بن عبد العزيز يستأذنه فى بناء مدينة ، فكتب إليه : ابنها

بالعدل ، ونقّ طرقها من الظلم .

لابن الخطا ومر عمر بن الخطاب ببناء يُبنى بآجُر وجص ؛ فقال : لمن هذا ؟ فقيل : لعامل من عمالك . فقال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها ! وأرسل إليه من يشاطره ماله .

٥ لابن المها وقيل ليزيد بن المهلب : مالك لاتبنى ؟ قال : منزلى دار الإمارة أو الحبس !

ومر رجلٌ من الخوارج بدار تُبنى فقال : من هذا الذى يقيم كفيلا ؟ والخوارج تقول : كل مال لا يخرج بخروجك ويرجع برجوعك فإنما هو كفيل بك .

لعبدالله بن ولما بنى أبو جعفر داره بالأنبار ، دخلها مع عبد الله بن الحسن ، فجعل

١٠ يريه بنيانه فيها وما شيد من المصانع والقصور ؛ فتمثل عبد الله بن الحسن بهذه الأبيات :

ألم تر حَوْشَباً أضحى يُبَنِّى * قُصوراً نَفْعُها لِبنى بُقَيْلَهْ ؟

يُؤَمِّلُ أن يُعَمَّرَ عُمْرَ نوحٍ * وأَمْرُ اللهِ يحدُثُ كلَّ ليْله !

وقالوا في الحجاج بن يوسف إذ بنى مدينة واسط : بناها فى غير بلده ،

١٥ وأورثها غير ولده .

اللباس

لباسه صلى الله عليه و. إسماعيل بن عبد الله بن جعفر عن أبيه ، قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وعليه ثوبان مصبوغان بالزعفران : رداء وعمامة .

محمد بن ا. على ابن عاصم عن أبى إسحاق الشيبانى قال : مررت بمحمد بن الحنفية واقفا

٢٠ بعرفات ، على بِرْذَوْنٍ ، وعليه مطرف خزٍّ أصفرُ .

ابن عباس الشيبانى عن ابن جُريج أن ابن عباس كان يرتدى رداء بألف .

أبو حاتم عن الأصمعى أن ابن عون اشترى برنسا ، فمر على معاذة العدوية فقالت : مثلك يَلبَس هذا ؟ قال : فذكرتُ ذلك لابن سيرين فقال : ألا أخبرتها

أن تميما الدارىّ اشترى حلة بألف يصلى فيها :

أيوب السختيانى

وقال معمر : رأيتُ قميص أيوب السختيانى يكاد يمس الأرض ، فسألته عن ذلكَ ، فقال : إن الشهرة كانت فيما مضى فى تذييل القميص ، وإنها اليوم فى تشميره .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل فى خلقين

٥ وفى موطأ مالك بن أنس رضى الله عنه ، أن جابر بن عبد الله قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة أنمار ، فبينا أنا نازل تحت شجرة إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : هَلُمّ يارسول الله إلى الظل . فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال جابر : وعندنا صاحبٌ له نجهزه يذهب يرعى ظهرَنا ، قال : فجهزته ، ثم أدبر يذهب إلى الظّهر ، وعليه ثوبان ، قد أخلقا ١٠ فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ماله ثوبان غيرُ هذين ؟ قلت : بلى يارسول الله ، له ثوبان فى العيد كسوته إياهما . قال : فادعُه فمُرْهُ فليلبَسهما . قال : فدعوته فلبسهما ثم ولى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماله ، ضرب الله عنقه ! أليس هذا خيراً له ؟ فسمعه الرجل ، فقال : فى سبيل الله يارسول الله ! فقُتل الرجل فى سبيل الله .

الربيع بن زياد وعلى

١٥ العتبى قال : أصابت الربيع بن زياد الحارثى نشابة على جبينه ، فكانت تنتقض عليه فى كل عام ، فأتاه علىٌّ بن أبى طالب عائداً ، فقال : كيف تجدك يا أبا عبد الرحمن قال : أجدنى لو كان لا يُذهب مابى إلا ذهابُ بصرى لتمنيتُ ذهابَه ! قال له : وما قيمة بصرك عندك ؟ قال : لو كانت لى الدنيا فديتُه بها ! قال : لا جرم ، ليعطينّك الله على قدرِ ذلك إن شاء الله ، إن الله يعطى على قدر الألم والمصيبة ، ٢٠ وعنده بعدُ تضعيف كثير !

قال له الربيع : ياأمير المؤمنين ، ألا أشكو إليك عاصم بن زياد ؟ قال : وماله ؟ قال : لبس العباء ، وترك الملاء ، وغمّ أهله ، وأحزن ولده ! فقال : علىّ عاصما ! فلما أتاه عبس فى وجهه ، وقال : ويلك ياعاصم ، أترى الله أباح لك اللذات

وهو يكره أخذك منها ؟ لأنت أهونُ على الله من ذلك ؛ أو ماسمعته يقول : ﴿ مرجَ البَحْرَيْنِ يلتقيانِ بينَهما بَرزَخٌ لايبْغيانِ ﴾ ، ثم قال : ﴿ يَخْرُجُ منهُما اللُّؤْلُؤُ والمَرْجانُ ﴾ ؛ وقولَه : ﴿ ومن كُلٍّ تأكلونَ لحماً طَرِيًّا وتَسْتخرِجُونَ حِلْيةً تلْبَسُونَها ﴾ ؟ أما والله إن ابتذال نعم الله بالفعال ، أحبُّ إليه من ابتذالها بالمقال ٥ وقد سمعتَه عز وجل يقول : ﴿ وأمّا بِنِعْمَةِ ربِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، ويقول : ﴿ قُلْ مَن حرّمَ زِينةَ اللهِ التى أَخْرَجَ لِعبادهِ والطَّيِّباتِ من الرِّزْقِ ﴾ ؛ وإن الله عز وجل خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين ، فقال : ﴿ ياأيُّها الذينَ آمنوا كلوا مِن طيِّباتِ مارزقناكم ﴾ ، وقال : ﴿ ياأيُّها الرُّسُلُ كلوا مِنَ الطيِّباتِ واعْمَلوا صالحاً إنى بما تعمَلونَ عَليمٌ ﴾ . فقال عاصم : فعلام اقتصرتَ أنت ياأميرَ المؤمنين ١٠ على لبس الخشن وأكل الجَشِب ؟ قال : إن الله افترض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعوام لئلا يشنع على الفقير فقرُه ، قال : فما برح حتى لبس الملاء ونبذ العباء .

لباس الصوف

حماد وفرقد

قدم حماد بن سلمة البصرة فجاء فرقد السبخى وعليه ثياب صوف ، فقال له حماد : ١٥ ضع عنك نصرانيّتك هذه ، فلقد رأيتُنا ننتظر إبراهيم ، فيخرج علينا وعليه معصفرة ، ونحن نرى أن الميتة قد حلت له !

ابن واسع وقتيبة

قال أبو الحسن المدائنى : دخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم والي خراسان وعليه مِدْرعة صوف ، فقال له قتيبة : [مايدعوك إلى لبس هذه ؟ فسكت ؛ فقال له قتيبة] : أكلمك فلا تجيبنى ! قال : أكره أن أقول زُهداً فأُزكى نفسى ، ٢٠ أو أقول فقراً فأشكو ربى .

وقال ابن السماك لأصحاب الصوف : والله لئن كان لباسكم وفْقاً لسرائركم لقد أحببتم أن يطلع الناس عليها ، ولئن كان مخالفاً لها لقد هلكتم .

وكان القاسم بن محمد يلبس الخز ، وسالم بن عبد الله يلبس الصوف ،

ومقعدُهما واحد فى مسجد المدينة . فلا ينكر بعضهما على بعض شيئا .

الوراق

وقال محمود الوراق فى أصحاب الصوف :

تصوّفَ كى يقالَ له أمينٌ ٭ وما يعنِى التصوُّفَ والأمانهْ ؟
ولم يُرِدِ الإلهَ به ولكنْ ٭ أرادَ به الطريقَ إلى الخيانه

التزين والتطيب

٥

ابن المنكدر

دخل رجل على محمد بن المنكدر يسأله عن التزين والطيب فوجده قاعداً على حشايا مصبغة ، وجارية تغلفه بالغالية ؛ فقال له : يرحمك الله ، جئت أسألك عن شيء فوجدتك فيه !

قال : على هكذا أدركتُ الناس .

عن النبى صلى الله عليه وسلم

وفى حديث : أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال « إياكم والشعَث ، حتى لو لم يجد أحدكم إلا زيتونة فليعْصرها وليدّهن بها » . ١٠

وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة « ما لى أراكِ شعثاء ، مرْهاء ، سلتاء ؟ » .

قالت : يارسول الله ، أو لسْنا من العرب ؟ .

قال « بلى ، ربما أُنسِيَتِ العربُ الكلمة فيعلمُنيها جبريل » .

الشعثاء : التى لا تدهن . والمرهاء : التى لا تكتحل . والسلتاء : التى لا تختضب . ١٥

وقال صلى الله عليه وسلم « ما نلت من دنياكم إلا النساء والطيب » .

وروى مالك عن يحيى بن سعيد ، أن أبا قتادة الأنصارى قال : يارسول الله ، إن لى جُمّة ، أفأُرَجّلها يارسول الله ؟ .

قال « نعم ، وأكرمْها » .

قال : فكان أبو قتادة ربما دهنها فى اليوم مرتين . ٢٠

وروى مالك عن زيد بن أسلم ، أن عطاء بن يسار أخبره قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية ؛

فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اخرج فأصلح رأسك ولحيتك ! ففعل ، ثم رجع ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس هذا خيراً من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان ؟

للنابغة

وقد تمادحت العرب بحسن الهيئة وطيب الرائحة ، فقال النابغة :

٥ رقاق النعال طيبٌ حُجُزاتهم * يُحيّون بالرّيحان يومَ السّباسبِ

يُحيّيهمُ بيضُ الولائدِ بينهم * وأكسية الإضريج بين المشاجب

يصونونَ أجساداً قديماً نعيمُها * بخالصة الأردان خُضر المناكب

الفرزدق

وقال الفرزدق :

بنو دارمٍ قومى ترى حُجزاتهم * عتاقاً حواشيها رقاقاً نعالها

١٠ يجرّون هُدّابَ اليمانِ كأنهم * سيوفٌ جلا الأطباعَ عنها صِقالها

لطرفة

وقال طرفة :

أُسْدُ غِيلٍ فإذا ما شربوا * وهبوا كلّ أَمونٍ وطِمرّ

ثم راحوا عَبَقُ المسكِ بهم * يلحفون الأرضَ هُدّاب الأُزُر

لكثير

وقال كثيّر عزة :

١٥ أشمُّ من الغادين فى كلّ حُلّةٍ * يميسون فى صبغ من العصْب مُتْقَنِ

لهم أُزُرٌ حُمْرُ الحواشى يَطؤنها * بأقدامهم فى الحضرمىّ الملسّن

لبعضهم

وقال آخر :

من النفر الشمّ الذين إذا اعتزوا * وهابَ الرجالُ حلْقةَ الباب قعقعوا

جَلا الإذفَرُ الأحوى من المسْكِ فَرْقَه * وطِيبُ الدِّهانِ رأسَه فهو أنزع

٢٠ إذا النَّفَرُ السُّودُ اليمانونَ حاوَلوا * له حَوْكَ بُرْدَيْه أرَقّوا وأوسَعوا

وقال آخر :

يُشبَّهونَ ملوكا فى تجلّتهم * وطول أنضية الأعناق واللِّمَمِ

إذا غدَا المسكُ يجرى فى مَفارقهم * راحوا كأنهمُ مَرْضَى من الكرم

وقال آخر فى علىّ بن داود الهاشمى :

أمّا أبوكَ فذاك الجودُ نعرفه * وأنت أشبه خلق الله بالجودِ

كأن ديباجتىْ خدّيه من ذهبٍ * إذا تعصّبَ فى أثوابه السُّود

الرحلة والركوب

عمرو بن العاص ورجل

سمع عمرو بن العاص رجلا يقول : الرحلة قطعة من العذاب . فقال له : لم تحسن ، بل العذاب قطعة من الرحلة . ٥

هارون وزبيدة فى طريقهما إلى مكة

ولما مشى هارون إلى مكة ومشت معه زبيدة ، كانت تُبْسَط الدرانك أمامهم وتُطوّى خلفهم ؛ فلما أعيا ، دعا بخادم له فألقى ذراعه عليه وتأوّه ، وقال : والله لركوب حمار منهوس خير من المشى على الدرانك .

قال الشاعر : ١٠

وما عن رضًى صار الحمارُ مطيّتى * ولكنّ مَن يمشى سيرضَى بما ركبْ

لأعرابى

وقال أعرابى :

ياليت لى نعلين من جلد الضبُعْ * كلّ الحذاء يَحتذى الحافى الوقعْ

الخيـــل

قد مضى من قولنا فى وصف الخيل وفضائلها فى كتاب الحروب ما كفى من إعادتها هنا . ١٥

البغال

لمسلمة

قال مسلمة بن عبد الملك : ما ركب الناس مثل بغلة طويلة العنان ، قصيرة العذار ، سفواء العرف ، حصاء الذنب ، سوطها عنانها ، وهمها أمامها .

الفضل وهاشمى

وعاتب الفضل بن الربيع بعضَ الهاشميين فى ركوب بغلة ، فقال : هذا مركب تصاغر عن خُيَلاء الفَرس وارتفع عن ذلة الحمار ، وخيرُ الأمور أوساطها . ٢٠

الحمير

الرقاشي قيل للفضل الرقاشي : إنك لتُؤْثِرُ الحمير على سائر الدواب ! قال : لأنها أرفق وأوفق . قلت : ولم ذلك ؟ قال : لا يستدل بالمكان على طول الزمان ؛ ثم هي أقل داء ، وأيسر دواء ، وأخفض مهوى ، وأسلم صريعا ، وأقل جماحا ؛ ٥ وأشهر فارها ، وأقل تطيرا ؛ يزهى راكبه وقد تواضع بركوبه ، ويعد مقتصداً وقد أسرف في ثمنه .

لجرير وقال جرير بن عبد الله : لا تركبْ حمارا ؛ إن كان حديداً أتعبَ يديك ، وإن كان بليداً أتعبَ رجليك !

طباع الإنسان وسائر الحيوان

١٠ لعلماء الطب زعم علماء الطب أن في الجسد من الطبائع الأربع اثنى عشر رطلا : فللدم منها ستة أرطال ، وللمرة الصفراء والسوداء والبلغم ستة أرطال ؛ فإن غلب الدم الثلاث طبائع تغير منه الوجه وورم ، ويخرج ذلك إلى الجذام ؛ وإن غلب الثلاث طبائع الدم أنبت المد ، فإذا خاف الإنسان غلبة هذه الطبائع بعضها بعضاً فليعدل جسده بالاقتصاد ، وينقيه بالمشي ؛ فإن لم يفعل اعتراه ما وصفنا ؛ ١٥ إمّا جذام وإما مدّ . أسأل الله العافية .

ولا بأس بعلاج الجسد في جميع الأزمان ، إلا في النصف من تموز إلى النصف من آب ؛ فذلك ثلاثون يوما لا يصلح فيها علاج ، إلا أن ينزل مرضٌ لا بدّ من مداواته .

لجعفر بن محمد جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم قال : الغلام يشب ٢٠ كل سنة أربع أصابع .

في التوراة حدثني عبد الرحمن بن عبد المنعم عن أبيه عن وهب بن منبه ، أنه قرأ في التوراة أن الله عز وجل حين خلق آدم ركب جسده من أربعة أشياء ،

ثم جعلها وراثة فى ولده تنمى فى أجسادهم وينمون عليها إلى يوم القيامة : رطب ويابس ، وسخن ، وبارد ؛ قال : وذلك أنى خلقتُه من تراب وماء ، وجعلت فيه نفسا [ورُوحا] ؛ فيُبُوسة كل جسد من قِبل التراب ، ورطوبتُه من قِبل الماء ، وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح ؛ ثم خلقت للجسد بعد هذا الخلقِ الأولِ أربعةَ أنواع أخر ، وهى مِلاك الجسد وقوامُه بإذنى ، لا يقوم الجسد إلا بهن ، ولا تقوم واحده إلا بالأخرى : المرّة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم الرطب الحار ، والبلغم البارد ؛ ثم أسكنتُ بعض هذا الخلق فى بعض ، فجعلت مسكن اليبوسة فى المرة السوداء ، ومسكن الرطوبة فى الدم ، ومسكن البرودة فى البلغم ، ومسكن الحرارة فى المرة الصفراء ؛ فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع وكانت كل واحدة فيه وفقا لا تزيد ولا تنقص ، كملت صحته ، واعتدلت بنيته ؛ وإن زادت واحدة منهن غلبتهن وقهرتهن ومالت بهن ، ودخل على أخواتها السقم من ناحيتها بقدر ما زادت ؛ وإن كانت ناقصة عنهن ؛ مِلْن بها وعَلَوْنها وأدخلن عليها السقم من نواحيهن ، لقلتها عنهن حتى تضعف عن طاقتهن وتعجز عن مقاومتهن .

لابن منبه — قال وهب بن منبه : وجعل عقله فى دماغه ، وشرهه فى كليته ، وغضبه فى كبده ، وصرامته فى قلبه ، ورعبه فى رئته ، وضحكه فى طحاله ، وحزنه وفرحه فى وجهه ؛ وجعل فيه ثلثمائة وستين مَفصلا .

للأصمعى — الأصمعى : من لم يخفّ شعره قبل الثلاثين لم يصلح أبدا ومن لم يحمل اللحم قبل الثلاثين لم يحمله أبدا .

للنبى صلى الله عليه وسلم — حدث زيد بن أخزم قال : حدثنى بشر بن عمر عن أبى الزناد [عن أبيه] عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : «كل ابن آدم تأكل الأرضُ إلا عَجْبَ الذنب ، ومنه خُلق ومنه يُركّب» .

وقالت الحكماء : الخَنَث يعترى الأعراب والأكراد والزنج والمجانين وكل

صنف ، إلا الخصيان ؛ فإنه لا يكون خصى مخنثا .

وقالوا : كل ذى ريح منتنة وذفر كالتيس وما أشبهه ، إذا خصى نقص ريحه وذهب صُنانه ، غير الإنسان ، فإنه إذا خصى زاد نتنه واشتد صنانه وخبث عرقه وريحه .

٥ قالوا : وكل شيء من الحيوان يُخصَى فإن عظمه يرق ، وإذا رق عظمه استرخى لحمه ، إلا الإنسان ؛ فإنه إذا خُصى طال عظمه وعرُض .

وقالوا : الخصى والمرأة لا يَصلعان أبدا ، والخصى تطول قدمه وتعظم .

وبلغنى أنه كان لمحمد بن الجهم برذون رقيق الحافر ، فخصاه ؛ فجاد حافره وحسُن .

١٠ قالوا : والخصى تلين معاقد عصبه وتسترخى ، ويعتريه الاعوجاج والفدَع فى أصابعه ، وتسرع دمْعَتُه ، ويتخدد جلده ، ويسرع غضبه ورضاه ، ويضيق صدره عن كتمان السر .

وزعم قوم أن أعمارَهم تطول لترك الجماع كما تطول أعمارُ البغال .

وقالوا : إن قلة أعمار العصافير من كثرة الجماع .

١٥ وقالوا : فى الغلمان من لا يحتلم أبدا ، وفى النساء من لا تحيض أبدا ؛ وذلك عيب .

ومن الناس من لا يسقط ثَغْرُهُ ولا يستبدل منه ، منهم عبد الصمد بن على ، ذكروا أنه دخل قبره برَواضعه !

وقالوا الضبُّ والخنزير لا يلقيان من أسنانهما أبدا .

٢٠ وقالت الحكماء : إنه ليس شيء من الحيوان يستطيع أن ينظر إلى أديم السماء غير الإنسان ، كرمه الله بذلك .

وقالوا : إن الجنين يغتذى بدم الحيض يسيل إليه من قبل السرة ؛ ولذلك

لا تحيض الحوامل إلا القليل . وقد رأينا من الحوامل من تحيض ؛ وذلك لكثرة الدم . وتقول العرب : حملت المرأة سهوا ؛ إذا حاضت عليه .
وقال الهذلى :

ومُبَرَّإٍ من كلّ غُبَّر حَيْضَة ۞ وفسادِ مُرْضِعةٍ وداءِ مُغْيِل

يعنى أنها لم تر عليه دمَ حيض فى حملها به . ٥

قالوا : فإذا خرج الولد من الرحم دفعت الطبيعة ذلك الدم الذى كان الجنين يغتذيه إلى الثديين ؛ وهما عضوان ناهدان عصبيان يصيِّرانه لبنا خالصا سائغا للشاربين .

وقالوا : يعيش الإنسان حيث تعيش النار ، ويتلف حيث لا تبقى النار

وأصحاب المعادن والحفائر إذا هجموا على نفَقٍ فى بطن الأرض أو مغارة ١٠ قدموا شمعة فى طرف قَناة ، فإن عاشت النار وثبتت دخلوا فى طلبها ، وإلا أمسكوا .

العرب — والعرب تتشاءم ببِكر ولدِ الرجل إذا كان ذكرا . وكان قيس بن زهير أزرقَ بِكرا ٱبن بكرين .

لعبد الله بن حارث — وحدث محمد بن عائشة عن حماد عن قتادة عن عبد الله بن حارث بن نوفل، ١٥ قال : بكرُ البِكرين شيطان مخلَّد لا يموت إلى يومِ القيامة . يعنى من الشياطين .

لبعضهم — قالوا : وابن المذكَّرة من النساء والمؤنثِ من الرجال أخبثُ ما يكون ، لأنه يأخذ بأخبث خصال أبيه وخصال أمه .

لعمرو بن معديكرب — والعرب تَذْكُرُ أن الغَيرى لا تُنْجِبُ : وقال عمرو بن معديكرب :

ألستَ تصيرُ إذا ما نُسبْـ ۞ ـتَ بين المُغارةِ والأحمقِ ٢٠

الحكماء — . قالت الحكماء : كل امرأة أو دابة تبطئ عن الحمل ، إن واقعها الفحل فى الأيام التى يجرى فيها الماء فى العود فإنها تحمل بإذن الله .

وقالت الحكماء : الزنج شِرار الخلق وأردؤهم تركيبا ، لأن بلادهم سخنت

جدا فأحرقتهم فى الأرحام ، وكذلك من بردت بلاده فلم تُنضِجْه الرحم ؛ وإنما فضل أهل بابل لعلة الاعتدال ؛ والشمس هى التى شيّطت شعور الزنج فقبّضتها ؛ والشعر إن أدنيته من النار تقبّض ، فإن زدته شيئا تفلفل ، فإن زدته احترق .

٥ وقالوا : أطيب الأمم أفواها الزنج وإن لم تستنّ ، وذلك لرطوبة أفواهها وكثرة الريق فيها ؛ وكذلك الكلاب من سائر الحيوان أطيبها أفواها ، لكثرة الماء فيها ، وخلُوفُ فمِ الصائم يكون لقلة الريق ، وكذلك الخلوف فى آخر الليل .

وقالت الحكماء أيضا : كل الحيوان إذا ألقى فى الماء سبّح ، إلا الإنسان والقرد والفرس الأعسر ، فإن هذه تغرق ولا تسبح .

١٠ قالوا : وليس فى الأرض هارب من حرب أو غيرها يستعمل الحُضر إلا أخذ على يساره ؛ ولذلك قالوا : فال على وحشيّه ، وأنحى على شؤمى يديه .

وقالوا : كل ذى عين من ذوات الأربع ، السباع والبهائم الوحشية والإنسية فإنما الأشفار منها بجفنها الأعلى ، إلا الإنسان ، فإن الأشفار - يعنى الهدب - بجفنيه معا : الأعلى والأسفل .

١٥ وقالوا : كل جلد ينسلخ إلا [جلد] الإنسان ، فإن جلده لا ينسلخ .

عمر بين رجلين فى غلام

وحدث أبو حاتم عن الأصمعى قال : اختصم رجلان إلى عمر رضى الله عنه فى غلام ، كلاهما يدّعيه ؛ فسأل عمر أُمّه ؛ فقالت : غشينى أحدهما ثم هرَقْتُ دما ثم غشينى الآخر . فدعا عمر بالرجلين فسألهما ، فقال أحدهما : أعْلَنْ أم أسرّ ؟ قال : أسِرّ . قال : اشتركا فيه ! فضربه عمر حتى اضطجع : ثم سأل الآخر ، ٢٠ فقال مثل ذلك ؛ فقال عمر : ما كنت أرى مثل هذا يكون ، ولقد علمتُ أن الكلبة يَسفدُها الكلابُ ؛ فتؤدى إلى كل كلب نجله .

ورُكّب الناس فى أرجلهم ، وركب ذوات الأربع فى أيديها ؛ وكل طائر كفه [فى] رجله .

من ابن عجلان

الليث بن سعد عن ابن عجلان ، أن امرأته حملت [له مرة] ، فأقامت حاملا خمس سنين ثم ولدت ، وحملت له مرة أخرى فأقامت حاملا ثلاث سنين ثم ولدت

ولد الضحاك

وولد الضحّاك بن مزاحم وهو ابن ثلاثة عشرة شهرا .

وقال جُوَيبر : وُلد الضحاك لسنتين ، [وولِد] شعبة لسنتين . ٥

ما نقص من خلقة الحيوان

حدّث أبو حاتم عن أبي عبيدة والأصمعي وأبو زيد قالوا : الفرس لا طِحال له ، والبعير لا مرارة له ، والظليم لا مخ له .

لزهير

وقال زهير :

[كأن الرَّحلَ منها فوق صَعْلٍ] * من الظِّلْمان جُؤْجُؤه هواء ١٠

وكذلك طير الماء والحيتان لا ألسنة لها ، ولا أدمغة لها ؛ وصَفن البعير لا بيضة فيه ، والسمكة لا رئة لها ، و [لذلك] لا تتنفس ، وكل ذي رئة يتنفس .

المشتركات من الحيوان

الراعي بين الوَرَشان والحمامة . والجوامز من الإبل بين العِراب والفوالج . والحمير الأخدرية من الأخدر ـ فرس كان لأردشير كسرى ، توحّش واجتمع بعانات حمير فضرب فيها ـ وأعمارها كأعمار الخيل . والزرافة بين الناقة من نوق الحبش وبين البقرة الوحشية وبين الضِّبعان ، واسمها أشْتُرْ كاوْ بَلَنْكَ ، [أي بين الجمل والكركند] ، وذلك أن الضّبعان ببلاد الحبشة يَسْفِد الناقة فتجيء بولد خَلقه بين خلق الناقة والضبعان ، فإن كان ولدُ الناقة ذكراً عرَض للمَهاة فألقحها زرافة ، وسُميت زرافة لأنها جماعة وهي واحدة كأنها جمل وبقرة وضبع ؛ والزرافة في كلام العرب : الجماعة . وقال

صاحب المنطق : الكلاب تسفدها الذئاب فى أرض سَلوق ، فيكون منها الكلاب السَّلوقية .

الأنعام

للنبى صلى الله عليه وسلم

حدّث زيد بن عمرو عن عبد العزيز الباهلى عن الأسود بن عبد الرحمن عن أبيه عن جدّه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما خَلق الله دابة أكرم من النعجة . وذلك أنه ستر حَياها دون حيا غيرها .

لأبان بن عمر

وحدّث أبو حاتم عن الأصمعى عن أبان بن عمر قال : كان لنا جمل يعرف كشح الحامل من غير أن يشمّها .

لابنة الخس

وقيل لابنة الُخسّ : ما تقولين فى مائة من المعز ؟ قالت : قِنى . قيل : فمائة من الضأن ؟ قالت : غِنى ؟ قيل : فمائة من الإبل ؟ قالت : مُنى .

والعرب تضرب المثل فى الصّرد بالمعزى ، فتقول : أصْرد من عنز جَرباء .

لدغفل فى بنى مخزوم

سئل دَغفل العلامة عن بنى مخزوم ، فقال : مِعزى مَطيرة ، عليها قُشعريرة ، إلا بنى المغيرة ؛ فإن فيهم تشادُق الكلام ، ومصاهرة الكرام .

ومما تقوله الأعراب على ألسنة البهائم : تقول المعزى : الأسْتُ جَهْوَى ، والذنَب ألْوَى ، والجلد رُقاق ، والشعر دُقاق .

والضأن تضع مرة فى السنة ، وتُفرِد ولا تتئم ، والماعز قد تلد مرتين فى السنة وتضع الثلاثة وأكثر وأقل .

والنماء والعدد والبركة فى الضأن ؛ ونحو هذا الخنازير ؛ ربما تضع الأنثى عشرين خنزيرا ، ولا نماء فيها ولا بركة .

ويقال : الجواميس ضأن البقر ، والبُخت ضأن الإبل ، والبراذين ضأن الخيل ، والجرذان ضأن الفأر ، والدُّلدُل ضأن القنافذ ، والنمل ضأن الذّر .

للأطباء

وتقول الأطباء فى لحم المعز : إنه يورث الهم ، ويحرّك السوداء ، ويورث

النسيان ، ويخبّل الأولاد ، ويفسد الدم ؛ ولحم الضأن يضرُّ بمن يُصرَع من المرة إضراراً شديدا ، حتى يصرعهم فى غير أوان الصرع : [وأوان الصرع] الأهلّة وأنصاف الشهور ؛ وهذان الوقتان هما وقت مدّ البحر وزيادة الماء ؛ ولزيادة القمر إلى أن يصير بدراً أثر بيّن فى زيادة الدماغ والدم وجميع الرطوبات ؛ قال الشاعر : ٥

كأن القومَ عُشُّوا لحمَ ضأنٍ ٭ فهم بَعِجُونَ قد مالت طُلاهُمْ

وفى الماعز أيضا : إنها ترضع من خِلفها وهى محفَّلة حتى تأتى على كل ما فى ضرعها ؛ وقال ابن أحمر :

إنى وجدتُ بنى أعْيا وجامِلَهم ٭ كالعنز تعطِف روْقَيْها فترتضعُ

١٠ وإذا رعت الماعزة فى فضل نبت ما تأكله الضائنة ، ولم ينبت ما تأكله الماعزة ، لأن الضائنة تقرضه بأسنانها والماعزة تقلعه وتجذبه من أصله . وإذا حملت الماعزة أنزلت اللبن فى أول الحمل إلى الضرع ، والضائنة لا تُنزل اللبن إلا عند الولادة ؛ ولذلك تقول العرب : رمّدت المعزى فرنّق رنّق ، ورمّدت الضأن فربّق ربّق .

١٥ وذكور كل شىء أحسن من إناثه ، إلا التيوس ؛ فإن الصَّفايا أحسن منها .

وأصواتُ ذكور كلّ شىء أجهر وأغلظ ، إلا إناث البقر ؛ فإنها أجهر أصواتاً من ذكورها .

الروم — وقرأت فى كتاب للروم : إذا أردت أن تعرف ما لون جنين النعجة ، فانظر إلى لسانها ، فإن الجنين يكون على لونه .

٢٠ وقرأت فيه : إن الإبل تتحامى أمهاتها [وأخواتها] فلا تسفدها .

وقالوا : كل ثور أفطس ، وكل بعير أعلم ، وكل ذباب أقرح .

وقالوا : البعير إذا صعب وخافوه استعانوا عليه حتى يبرك ويُعقل ، ثم يركبه فحل آخر فيذل ؛ وقد يُفعل ذلك بالثور .

لبعض القصاص

وقال بعض القُصاص : مما فضل الله به الكبش أن جعله مستور العورة من قُبل ومن دُبر ، ومما أهان به التيس أن جعله مهتوك الستر مكشوفَ القَبل والدبر .

وفى مناجاة عزير : اللهم إنك اخترت من الأنعام الضائنة ، ومن الطير

٥ الحمامة ، ومن النبات الحبة ، ومن البيوت مكة وإيلياء ، ومن إيلياء بيت المقدس .

وفى الحديث : « إن الغنم إذا أقبلت أقبلت ، وإذا أدبرت أقبلت ؛ والإبل إذا أدبرت أدبرت ، وإذا أقبلت أدبرت ، ولا يأتى نفعها إلا من جانبها الأشأم » .

والأقط قد يكون من المعزى . قال امرؤ القيس :

١٠ لنا غنمٌ نُسوّقها غِزار * كأن قرون جِلّتها عِصِىُّ

فتملأُ بيتَنا أقطا وسمْنا * وحسبُك من غنًى شِبَعٌ ورِىُّ

النعام

قالوا فى الظليم : إن الصيف إذا أقبل وابتدأ البُسر بالحمرة ابتدأ لون وظيفيْه [بالحمرة ، ولا يزالان يتلوّنان ويزدادان حمرة] إلى أن تنتهى حمرة البُسرة ولذلك

١٥ قيل له : خاضب ؛ وللنعام : خواضب .

وفى الظليم : إن كل ذى رجلين إذا انكسرت إحدى رجليه نهض على الأخرى ، والظليم إذا انكسرت إحدى رجليه جثَم ؛ ولذا قال الشاعر فى نفسه وأخيه :

[فإنى وإياه كرِجْلىْ نعامةٍ * على ما بِنا من ذى غنًى وفقير

٢٠ يقول : لا غِنى بواحدٍ منا عن الآخر .

وقال آخر] :

إذا انكسرتْ رِجلُ النعامة لم تجد * على أختِها نهضاً ولا دونَها صبرا

قالوا : وعلة ذلك أنه لا مخ فى عظمه ، وكل عظم كُسر يُجبر ، إلا عظما لا مخ فيه .

والظليم يغتذى المَرْوَ والصخر فتذيبه قانصتُه بطبعها حتى يصير كالماء .

وفى النعامة : إنها أخذت من البعير المنسمَ والوظيف والعنق والخِزامة ، ومن الطير الريشَ والجناحين والمِنقار ؛ فهى لا بعير ولا طائر . ٥

لأحيمر السعدى — وقال الأحيمر السعدى : كنت ممن خلعنى قومى وأطلّ السلطان دمى وهربت وتردّدت فى البوادى ، حتى ظننتُ أنى قد جزت نخلَ وبار أو قريب منه ، وذلك أنى كنت أرى النوى فى رجْع الذئاب ، وكنت أغشى الذئاب وغيرها من بهائم الوحش ولا تنفر منى ، لأنها لم تر أحداً قبلى ، وكنت أمشى إلى الظبى السمين فآخذه [وعلى ذلك رأيتُ جميع تلك الوحوش] إلا النعام ، فإنى لم أره قط إلا نافراً فَزِعا . ١٠

الطـــير

من دعاء داود عليه السلام — بلغنى عن مكحول أنه قال : كان من دعاء داود النبى عليه السلام : يا رازق النّعّاب فى عُشه . وذلك أن الغراب إذا فقس عن فراخه خرجت بيضاء ، فإذا رآها كذلك نفر عنها ؛ وتفتح أفواهها فيرسل الله ذبابا يدخل فى أفواهها فيكون ذلك غذاءها حتى تسودّ ، فإذا اسودّت عاد الغراب إليها فغذاها ورفع الله الذباب عنها ! ١٥

الرياشى — وقال الرياشى : ليس شىء تغيب أذناه من جميع الحيوان إلا وهو يبيض ، وليس شىء تظهر أذناه إلا وهو يلد . قال : وهذا يروَى عن علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه . ٢٠

للنبى صلى الله عليه وسلم — وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل أربعة من الطير : الصُّرَد ، والهدهد ، والذرّة ، والنحلة .

لبعضهم وقالوا : الطير ثلاثة أضرب : بهائم الطير ، وهو مالقط الحبوب والبزور ؛ وسباع الطير ، وهى التى تتغذى باللحم ؛ والمشترك ، وهو مثل العصفور ؛ يشارك بهائم الطير فى أنه ليس بذى مخلب ولا منسر ، وإذا سقط العصفور على عود قدم أصابعه الثلاث وأخر الدابرة ، وسباع الطير تقدم أصبعين وتؤخر أصبعين ٥ ويشارك سباع الطير بأنه يُلقِم فراخه ولا يزقها ، وأنه يأكل اللحم ويصطاد الجراد والنمل .

قالوا : والعصفور شديد الوطء ، والفيل خفيف الوطء .

لصاحب الفلاحة وقال صاحب الفلاحة : العُقاب والحدأة يتبدّلان ، فيصير العقاب حدأة والحدأة عقابا ؛ والأرانب تتبدل فتصير الأنثى ذكراً والذكر أنثى ؛ وذكر الغربان ١٠ لايحضن ، وكذلك ذكر الإوز وذكر الدجاج .

لكعب الأحبار وقال كعب الأحبار : ماذهب طائر فى السماء قط أكثر من اثنى عشر ميلا .

ومن حديث سفيان الثورى عن أنس بن مالك ، قال : عمر الذباب أربعون يوما ، والبعوضة ثلاثة أيام ، والبرغوث خمسة أيام .

قال : والحمام تعجب بالكمُّون وتألف الموضع الذى يكون فيه ، وكذلك ١٥ العدس ، ولا سيما إذا نقع فى عصير حلو ، ومما يصلحن عليه ويكثرن أن تدخّن بيوتهن بالعِلك ؛ وأيمن مواضعها وأصلحها أن يُبنى لها بيت على أساطين خشب ويُجعَل فيه ثلاثُ كُوًى : كوة فى سمك البيت ، وكوة من قبل المغرب ، وكوة من قِبل المشرق ، وباب من قبل الجنوب .

قال : والسذاب إذا ألقِى فى اللبن تحامته السنانير البرية .

٢٠ هشام بن محمد قال : حدثنى ابن الكلبى قال : أسماء نساء بنى نوح صلى الله عليه وسلم إذا كُتبن فى زوايا بيت البرج سلمت الفراخ ونمت وسلمت من الآفات قال هشام : جربته أنا وغيرى فوجدناه كما قال . واسم امرأة سام بن نوح : محلت محم ، واسم امرأة حام : نف نسا ، واسم امرأة يافث : فالو .

والطير الذى يخرج من وكره بالليل ، البومة والصدى والهامة والضوّع

والوطواط والخفاش وغراب الليل .

قالوا : وإذا خرج فرخ الحمامة نفخ أبواه فى حلقه ، لتتسع الحوصلة بعد التحامها وتنفتق ؛ فإذا اتسعت زَقّاه عند ذلك اللعاب ، [ثم زقاه صاروج صروح الحيطان ليدبغا به الحوصلة] ، ثم زقاه بعد ذلك الحب .

المثنى بن زهير

قال المثنى بن زهير : لم أر شيئاً قط فى رجل أو آمرأة إلا رأيته فى الحمام : ٥ رأيت حمامة لا تريد إلا ذكرها ، وذكرا لا يريد إلا أنثاه ، إلا أن يهلك أحدهما أو يفقد ؛ ورأيت حمامة لا تمنع شيئا من الذكور ، ورأيت حمامة لا تُقمَط إلا بعد شدة الطلب ، ورأيت حمامة تتزين للذكر ساعةَ يريدها ، ورأيت حمامة تَقمط الذكر ، ورأيت ذكرا يقمط كل ما لقى ولا يزاوج ، ورأيت ذكرا له أنثيان يحضن مع هذه وهذه . [ويزُقّ مع هذه وهذه] ١٠

قالوا : ومن عجائب الخفاش أنه لا يبصر فى الضوء الشديد ولا فى الظلمة الشديدة وتحبل [الأنثى] وتلد وتحيض وترضع ، وتطير بلا ريش ، وتحمل ولدها تحت جناحها ، وربما قبضت عليه بفيها ، وربما ولدت وهى تطير ؛ ولها أذنان وأسنان وجناحان متصلان برجليها .

قالوا : والخطاف يتبع الربيع حيث كان ، و تقلَع إحدى عينيه فترجع . ١٥

البيض

قالوا : والبيض يكون من أربعة أشياء : منه ما يكون من السفاد ، ومنه ما يكون من التراب ، ومنه ما يكون من نسيم ريح يصل إلى أرحامها ، ومنه شىء يعترى الحَجَلَ وما شاكله فى الطبيعة : فربما كانت الأنثى [منه] على سُفالة الريح التى تهب [من شِق الذكَر] فى بعض الزمان فتحتشى لذلك بيضا ، وكذلك ٢٠ النخلة التى تكون [بجنب] الفحّال وتحت ريحه فتلقم تلك الرائحة وتكتفى بذلك ؛ والدجاجة إذا هرمت لم يكن لبيضها مُحٌّ وإذا لم يكن لها مُح لم يكن لبيضها فرخ ، لأن الفرخ يخلق من بياض البيض وغذاؤه الصفرة .

السباع

يقال : إنه ليس فى السباع أطيبُ أفواها من الكلاب ، ولا فى الوحش أطيب أفواها من الظباء . ويقال : ليس [شىء] أشد بخراً من الأسد والصقر ، ولا فى السباع أسبح من كلب ؛ وليس فى الأرض فحل من سائر الحيوان لذكَره حجم إلا الإنسان والكلب ؛ والأسد لا يأكل الحارّ ولا الحامض ، ولا يدنو من النار ؛ وكذلك أكثر السباع .

وتقول الروم : الأسد يُذعَر لصوت الذئب ؛ ولا يدنو من المرأة الطامث والأسد إذا بال شغر كما يشغر الكلب وهو قليل الشرب ونجْوُه كنجو الكلب ؛ ودواء عضته كدواء عضة الكلب .

قالوا : والعيون التى تضىء بالليل : عيون الأُسْد والنمور والأفاعى والسنانير

وقالوا : ثلاثة من الحيوان ترجع فى قيئها : الأسد والكلب والسِّنَّور .

وقالوا : تمام حمل الكلبة ستون يوما ، فإن وضعت قبل ذلك لم تكد أولادها تعيش ؛ وإناث الكلاب تحيض كل سبعة أيام يوما ، وعلامة ذلك أن يَرِمَ ثفر الكلبة ، ولا تريد السفاد فى ذلك الوقت ، وذكور السلوقية تعيش عشرين سنة ، وتعيش إناثها اثنتى عشرة سنة ؛ وليس يُلقى الكلب من أسنانه إلا النابين ؛ والذئاب تسفد الكلاب فى أرض سلوق ، فتكون منها الكلاب السلوقية ؛ والكلب من الحيوان يحتلم كما يحتلم الإنسان .

وقالوا فى طبع الذئب محبة الدم : ويبلغ بطبعه أن يرى ذئبا مثله قد دمى ، فيثب عليه فيمزقه ؛ قال الشاعر :

وكُنتَ كذِئبِ السوء لمَّا رأى دَماً * بصاحِبِهِ يوْماً أحالَ على الدَّمِ

ويقولون : ربما ينام الذئب بإحدى عينيه ويفتح الأخرى ؛ قال حُميد ابن ثور :

يَنامُ بإحْدَى مُقلتَيْهِ ويَتَّقى * بأخْرَى الأعادى فهْو يَقْظانُ نائمُ

قالوا : والذئب أشد السباع مطالبة ، وإذا عجز عوى عواء استغاثة فتسامعت به الذئاب فأقبلت حتى تجتمع على الإنسان أو غيره فتأكله ؛ وليس شيء من السباع يفعل ذلك غيرها .

وقضيب الذكر من الأرانب [ربما كان] من عظم ، وكذلك قضيب الثعلب والأرنب تنام مفتوحة العين . ٥

وليس لشيء من ذكر الحيوان ثدى فى صدره إلا الإنسان والفيل ، ولسان الفيل مقلوب طرفه إلى داخل ، وزعمت الهند أن نابى الفيل [هما] قرناه ؛ يخرجان مستبطنين حتى يخرقا الحنك ويخرجان منكسين .

وقال صاحب المنطق : ظهر فيل عاش أربعمائة سنة . وحدثنى شيخ لنا عن الزيادى قال : رأيت فيلا أيام أبى جعفر قيل إنه سجد لسابور ذى الأكتاف ولأبى ١٠ جعفر . والفيَلة تضع فى سبع سنين .

الحيوان الذى لا يصلح إلا بأمير

الناس والفأر والغرانيق والكراكى والنحل والحشرات .

عن ابن عمر — قتادة عن ابن عمر قال : الفأرة يهودية ، ولو سقيتها ألبان الإبل ماشربتها ، والفأر أصناف : منها الزَّباب ، وهو أصم لا يسمع ؛ والخلد ، وهو أعمى ؛ وتقول ١٥ العرب هو أسرقُ من زَبابة وفأرة البيش ، والبيشُ سم قاتل ؛ ويقال : هو قرون السُّنبُل ؛ وله فأرة تغتذيه لا تأكل غيره ؛ وفأرة المسك من غير هذا ، وفارة الإبل : أرواحها إذا عرقت .

قالوا : والأفعى إذا نفثت فى فيها حُمّاض الأترج وأطبقت لحييها الأعلى على الأسفل لم تقتل بعضتها أياما . ٢٠

قالوا : الثوم والملح وبعر الغنم نافع جدا إذا وضع على موضع لسعة الحية .

والحيات تُقتل بريح السذاب والشيح ، وتعجب باللفاح والبسباس والبطيخ

والخردل والحرف واللبن والخمر .

وليس فى الأرض حيوان أصبر على الجوع من الحية ، ثم الضب بعدها ؛ وإذا هرمت الحية صغُر بدنَها ، وقنعت بالنسيم .

قالوا : وكل شىء يأكل فهو يحرك فكه الأسفل ، ما عدا التمساح ؛ فإنه يحرك فكه الأعلى .

٥

وبمصر سمكة يقال لهـا الرعاد ، مـن اصطادها لم تزل يده ترعد مادامت فى شبكته .

والجُعَل إذا دفنته فى الورد سكنت حركته حتى تحسبه ميتا ، فإذا دفنته فى الروث تحركت ورجعت نفسه !

١٠

والبعير إذا ابتلع خنفساء قتلته إذا وصلت [إلى] جوفه حية .

والضب يُذبح ثم يمكث ليلة ، ثم يقرّب من النار فيتحرك .

والأفعى تذبح فتبقى أياما تتحرك، وإذا وطئها أحد نهشته، ويقطع ثلثها الأسفل فتعيش وينبت ذلك المقطوع .

قالوا : وللضب ذكران ، وللضبة حِرّان ، حكاه أبو حاتم عن الأصمعى ؛ ويقال لذكره : النِّزك ، وأنشد :

١٥

سِبَحْلٌ له نِزكانِ كانا فضيلةً ٭ على كل حافٍ فى البلادِ وناعِلِ

وسامُّ أبرص لايدخل بيتا فيه زعفران .

ومن عضه كلبٌ كِلِب احتاج أن يستر وجهه من الذباب لئلا يسقط عليه .

وخرطوم الذباب يده ومنه يغَنى ، وفيه يجرى الصوت كما يجرى الزامر الصوت فى القصبة بالنفخ !

٢٠

والسلحفاة إذا أكلت أفعى أكلت سَعْتَرًا جبليا .

وابن عرس إذا قاتل الحية أكل السذاب .

والكلاب إذا كان فى أجوافها داء أكلت سنبل القمح .

والأيلُ إذا نهشته الحية أكل السراطين قال ابن ماسويه : فلذلك يظن أن السراطين صالحة لمن نهشته الحية .

قال صاحب المنطق : الحية إذا اشتكت كبدها من وقع الأرانب والثعالب تعالجت بأكل الكمأة حتى تبرأ .

وبعض الناس يعملون من الأوزاغ سما أنفذ من البيش ومن ريق الأفاعى . ٥

وإذا زرع فى نواحى الزرع خردل يجتنبه دَبَى الجراد .

وإذا أخذ المراد اسَنج وخلط بعجين ثم طرح للفأر وأكل منه مات وكذلك برادة الحديد .

وإذا أخذ الأفيون والشونيز والبارزذ وقرون الأيل وبابونج وظلف من أظلاف العنز ، فخلط ذلك جميعا ، ثم يدق وينخل نخلا جيداً ويعجن بخل عتيق ١٠ ثم يقطع قطعا ، فيدخَّن بقطعة منه هربت الحيات والهوام والنمل والعقارب من ريحه .

والبعوض تهرب من دخان الكبريت والعلك .

وقالت الحكماء : لحم ابن عرس نافع من الصرع ، ولحم القنفذ نافع من الجذام والسل والشنج ووجع الكلى ؛ يجفف ويشوى ويطعمه العليل مطبوخا ويُضمد به المتشنج . ١٥

وعين الأفعى وعين الجراد لاتدوران .

وإنما تنسج من العناكب الأنثى من ساعة تولد .

والقمل يُخلق فى الرءوس على لون الشعر إن كان أسود أو أبيض أو مصبوغا .

وأم حُبين لا تقيم بمكان تكون فيه السرقة ، وهى دويبّة يضرب بها المثل فى ٢٠ الصنعة ، فيقال : أصنع من سُرْفة .

أبو حاتم عن الأصمعى قال : قال أبو بكر الهجرى : مامن شىء يضر إلا وفيه منفعة .

وقيل لبعض الأطباء إن فلانا يقول : إنما أنا مثل العقرب ، أضر ولا أنفع فقال : ما أقل علمه بها ، إنها لتنفع إذا شق بطنها ووضعت على مكان اللدغة ، وقد تجعل فى جوف فخار مسدود الرأس مطيّن الجوانب ، ثم يوضع الفخار فى تنور ، فإذا صارت العقرب رماداً سُقى من ذلك الرماد مثل نصف دانق مَنْ ٥ به حصاة فتّتها من غير أن يضر سائر الأعضاء ، وقد تلسع من به حُمى عتيقة فتقلع عنه ، وقد تلسع المفلوج فيذهب عنه الفالج ، وقد تُلقى العقرب فى الدهن وتترك فيه حتى يأخذ الدهن منها ويجتذب قواها ، فيكون ذلك الدهن مُفرّقا للأورام الغليظة .

وقال المأمون : قال لى بختيشوع وسلمويه وابن ماسويه : إن الذباب إذا ١٠ دُلِكَ على [موضع] لسعة الزنبور سكَنَ ألمها ؛ فلسعنى زنبور ، فحككت على موضع لسعته عشرين ذبابة ؛ فما سكن إلا فى قدر الحين الذى يسكن فيه من غير علاج ! فلم يبق فى يدى منهم إلا أن قالوا : كان هذا الزنبور حَتْفا ، ولولا هذا العلاج له لقتلك .

وقال محمد بن الجهم : لا تتهاونوا بكثير مما ترون من علاج العجائز ، فإن ١٥ كثيرا منه وقع إليهن من قدماء الأطباء ؛ كالذباب يلقى فى الإثمد فيسحق معه ، فيزيد فى نور البصر ، ويشد مراكز شعر الأجفان فى حافات الجفون .

قالوا : وللسع الأفاعى والحيات ينفع ورق الآس الرطب ، يُعصر ويسقى من مائه قدر نصف رطل .

مصايد الطير

٢٠ قال صاحب الفلاحة : من أراد أن يحتال للطير والدجاج حتى يتحيرن ويغشى عليهن فيصيدهن ، عمد إلى الحلتيت . أذِبْه بالماء ثم اجعل فيه شيئا من عسل ، وأنقع فيه بُرّاً يوما وليلة ، ثم ألقه إلى الطير ، فإذا لقطه تحير

وغشىَ عليه ، فلا يقدر على الطيران إلا أن يُسقَى لبنا خالطه سمن . قال : وإن عُمد إلى طحين برّ غير منخول فعُجن بخمر ثم طُرح للطير والحجل فأكلن منه تحيرن وأُخذنَ .

ومما يُصاد به الكراكىّ وغيرها من الطير ، أن يوضع لهنّ فى مواقعهن إناء فيه خمر ، ويجعل فيه خَربق أسود ، ويُنقع فيه شعير ، ثم يلقَى لهنّ ، فإذا أكلن منه أخذهنّ الصائد كيف شاء .

وقال غيره : تصاد العصافير بأيسر حيلة : تؤخذ شبكة فى صورة المحبرة [اليهودية المنكوسة] ، ويجعل فى جوفها عصفور ، فتنقضّ عليه العصافير وتدخل عليه ، فما دخل لم يقدر على الخروج ، فيصيد الرجل منها فى يومه ما شاء وهو وادع .

وقال : ويصاد طيرُ الماء الساكن بالقرعة ، وذلك أن تؤخذ قرعة يابسة صحيحة فيُرمى بها فى الماء ، فإنها تتحرك بتحرك ذلك الماء ، فإذا أبصرها الطير تتحرك فزع ، فإذا كثر ذلك عليه أنسَ حتى ربما سقط عليها ، ثم تؤخذ قرعة مثلها فيقطع رأسها ، ويفتق فيها موضع عينين ثم يدخل الصائد رأسه فيها ، ويدخل الماء ويمشى رويدا ، وكلما دنا من الطائر مدّ يده تحت الماء حتى يقبض عليه ويغمس يده به تحت الماء ويكسر جناحيه ، ويخلّيه فيبقى طافياً على الماء يسبح برجليه ولا يطيق الطيران ، وسائر الطير لا تنكر انغماسه فى الماء ، فإذا فرغ من صيد ما يريد رمى بالقرعة ثم التقطه وحمله .

مصايد السباع

السباع العادية تصاد بالزُّبَى والمغوّيات ، وهى آبار تحفر فى أنشاز الأرض ، ولذلك يقال : قد بلغ السيل الزبى .

قال صاحب الفلاحة : ومما تصاد به السباع العادية ، أن يؤخذ سمك من سمك البحر الكبار السمان ، فتُقطع قطعا ، ثم تشرح وتكتل كتلا ، ثم تؤجج

نارٌ فى غائط من الأرض تقرب منه السباع ، ثم تُقذف تلك الكتل فيها واحدة بعد أخرى ، حتى ينتشر دخان تلك النار ، وقُتارُ تلك الكتل فى تلك الأرض ؛ ثم تُطرح حول تلك النار قطعٌ من لحم قد جُعل فيه الخربق الأسود والأفيون ، وتكون تلك النار فى موضع لا تُرى فيه حتى تُقبل تلك السباع لريح القتار وهى آمنة ، فتأكل من قطع ذلك اللحم ، ويُغشى عليها ، فيصيدها ٥ الكامنون لها كيف شاءوا .

تفاضل البلدان

لقتادة الأصمعى يرفعه إلى قتادة قال : الدنيا كلها أربعة وعشرون ألف فرسخ ، فبلد السودان منها اثنا عشر ألف فرسخ ، وبلد الروم ثمانية آلاف فرسخ ، وبلد ١٠ الفرس ثلاثة آلاف فرسخ ، وبلد العرب ألف .

للأصمعى الأصمعى قال : جزيرة العرب ما بين نجران إلى العُذيب .

وقال غيره : أرض العرب ما بين بحر القُلزم وبحر الهند .

قالوا : وسواد البصرة : الأهواز ، وفارس ؛ وسواد الكوفة : كسكر إلى الزاب إلى عمل حلوان إلى القادسية ؛ وهذه كلها من عمل العراق ؛ وعمل العراق ١٥ من هِيت إلى الصين والهند والسند ، ثم كذلك إلى الرى ، وخراسان كلها إلى بلد الديلم والجبال ؛ وأصفهان سُرة العراق ، افتتحها أبو موسى الأشعرى ؛ والجزيرة ليست من عمل العراق ، وهى ما بين الدجلة والفرات ، والموصل من الجزيرة ، ومكة والمدينة [1] ومصر ليست من عمل العراق .

الأصمعى قال : البصرة كلها عثمانية ، والكوفة كلها علوية ، والشام كلها ٢٠ أموية ، والجزيرة خارجية ، والحجاز سُنية ، وإنما صارت البصرة عثمانية من يوم الجمل ؛ إذ قاموا مع عائشة وطلحة والزبير ؛ فقتلهم على بن أبى طالب رضى الله عنه .

(١) فى عيون الأخبار : « ومكة من المدينة ومصر لا تدخل فى عمل العراق » .

وقيل لرجل من أهل البصرة : أتحب عليا ؟ قال : كيف أحبُّ رجلا قَتل من قومى من لدن كانت الشمس هكذا ... إلى أن صارت هكذا ... ثلاثين ألفا .

والكوفة علوية ، لأنها وطن على رضى الله عنه ودارُه .

والشام أموية ، لأنها مركز مُلك بنى أمية وبَيضتهم . ٥

والجزيرة خارجية ، لأنها مسكن ربيعة ، وهى رأس كل فتنة ، وأكثرها نصارى وخوارج ، ومنازلهم الخابور ، وهو واد بالجزيرة .

لعلى بن أبى طالب — قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لبنى تغلب : ياخنازيرَ العرب ! والله لئن صار هذا الأمر إلىّ لأضعنّ عليكم الجزية !

للرشيد — وقال هارون الرشيد ليزيد بن مزيد : ما أكثرَ الخلفاء فى ربيعة ! قال : بلى ، ولكنّ منابرَهم الجذوع ! ١٠

لابن الخطاب — الأعمش عن سليم قال : ذَكر عمر بن الخطاب الكوفة فقال : جمجمة العرب ، وكنز الإيمان ، ورمح الله فى الأرض ، ومادة الأمصار .

لعلى المدينى — على بن محمد المدينى قال : الكوفة جارية حسناء تصنّعُ لزوجها ، فكلما رآها سَرته . ١٥

لمحمد بن عمير — وقال محمد بن عمير بن عطارد : الكوفة سفلت عن الشام ورُباها ، وارتفعت عن البصرة وعمقها ، فهى مريئة مَريعة ، عذبة ندية [1] ؛ وإذا أتتنا الشمال هبت على مسيرة شهر على مثل رَضراض الكافور ، وإذا هبت الجنوب جاءت بريح السواد ووردِه وياسمينه وأترُجه ؛ فماؤها عذب ، وعيشها خصب .

لابن عياش — قال ابن عياش الهمدانى لأبى بكر الهذلى [يوم فاخره] عند أبى العباس ـ وذُكرت عنده الكوفة والبصرة ـ فقال : إنما مَثل الكوفة مثل اللهاة من البدن ، يأتيها الماء ببرْده وعذوبته ؛ ومثل البصرة مثل المثانة يأتيها الماء ٢٠

(١) فى بعض الأصول : «مرية عذبة برية» .

بعد تغيُّر وفساد .

الحجاج

وقال الحجاج : الكوفة بِكرٌ حسناء ، والبصرة عجوز بَخْراء أوتيتْ من كل حَلْى وزينة .

جعفر بن سليمان

وقال جعفر بن سليمان : العراق عين الدنيا ، والبصرة عينُ العراق ، والمربد عين البصرة ، ودارِىَ عين المربد .

الأصمعي

وقال الأصمعي : تذاكروا عند زياد الكوفة والبصرة ، فقال زياد : لو أضللتُ البصرة لجعلت الكوفة لمن دلني عليها !

لحذيفة

وقال حذيفة : أهل البصرة لا يفتحون بابَ هُدًى ، ولا يُغْلِقون باب ضلالة ، وقد رُفع الطاعونُ عن جميع أهل الأرض إلا عن أهل البصرة !

أهل الكوفة

ومما نُقم على أهل الكوفة أنهم أغدر الناس : طعنوا الحسن بن على وانتهكوا عسكره ، وخذلوا الحسين بن على بعد أن استدعَوه حتى قُتل ، وشكوا سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب وزعموا أنه لا يحسن أن يصلى ، فدعا عليهم أن لا يرضيَهم اللهُ عن والٍ ولا يرضىَ والياً عنهم ، وقد دعا عليهم علىُّ بن أبى طالب فقال : اللهم أرِهِم بالغلام الثقفى - يعنى الحجاج ابن يوسف ، وشكوا عمار بن ياسر والمغيرةَ بن شعبة ، وطردوا سعيد بن العاص ، وخذلوا زيد بن علىّ ، وادعى النبوة منهم غيرُ واحد ، منهم المختار بن أبى عبيد . وكتب المختار إلى الأحنف بلغنى أنكم تكذبونى وتكذبون رسلى ، وقد كذِّبت الأنبياء من قبلى ، ولست بخير من كثير منهم !

لعبد الله بن عمر فى المختار

وقيل لعبد الله بن عمر : إن المختار يزعم أنه يُوحَى إليه ! قال : صدق ؛ الشياطين يوحون إلى أوليائهم .

سكينة وأهل الكوفة

ولما أرادت سكينة بنت الحسين بن على رضى الله عنهم الرحيلَ من الكوفة إلى المدينة بعد قتل زوجها المصعَب ، حف بها أهل الكوفة وقالوا : أحسن الله صحابتك يا ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقالت : لا جزاكم اللهُ خيراً من قوم ، ولا أحسن الخلافة عليكم ؛ قتلتمْ أبى ، وجدى ، وأخى ، وعمى ،

[٣١]

وزوجى ؛ أيتمتُمونى صغيرة ، وأيّمتمونى كبيرة !

عبد الملك وأهل الكوفة

ولما دخل عبد الملك بن مروان الكوفة بعد قتل المصعب ، أقبل إليه جماعة فقال : مَن هؤلاء ؟ قالوا أمراؤك أهل الكوفة . قال : قتلةُ عثمان ! قالوا : نعم ، وقتلة علىّ ! قال : هذه بهذه .

ابن الكواء ومعاوية

قدم عبد الله بن الكواء على معاوية ، فقال : أخبِرْنى عن أهل البصرة . قال : يُقبِلون ويُدبِرون شتى . قال : فأخبِرنى عن أهل الكوفة . قال : أنْظَرُ الناس فى صغيرة وأوقفُهم فى كبيرة . قال : فأخبرنى عن أهل المدينة . قال : أحرصُ الناس على الفتنة وأعجزُهم عنها ! قال فأخبرنى عن أهل مصر . قال : لقمةُ آكل . قال : فأخبرنى عن أهل الجزيرة . قال : كناسة بين حشّين ، قال : فأخبرنى عن أهل الشام . قال : جند أمير المؤمنين ، ولا أقول فيهم شيئا ! قال : لتقولن . قال : أطوع خلقِ الله لمخلوق ، وأعصاهم للخالق ، ولا يخشونَ فى السماء ساكنا .

لقتادة

قتادة قال : قيست البصرة فى زمن خالد بن عبد الله القسرى ، فوجدوا طولها فرسخين وعرضها فرسخين .

لابن شهاب

الأصمعى قال : قال ابن شهاب الزهرى : من قدم أرضا فأخذ من ترابها فجعله فى مائها ثم شربه ، عوفى من وبائها .

للأصمعى

الأصمعى قال : دخلت الطائف فكأنى كنت أبشر ، وكأن قلبى ينضح بالسرور ؛ وما أجد لذلك علة إلا انفساحَ جوها وطيب نسيمها .

لسليمان بن عبد الملك

ودخل سليمان بن عبد الملك الطائف فنظر إلى بيادر الزبيب ، فقال : ما تلك الجرار السود ؟ قيل له : ليست بجرار يا أمير المؤمنين ، ولكنها بيادر الزبيب . قال : لله درُّ قسِىّ ، فى أى عش أودَعَ فراخه ! يريد بقَسِىٍّ ثقيفا ؛ كذلك كان اسمه .

الأصمعى قال : من أمثال العامة يقولون : حُمّى خيبر ، وطِحال البحرين ، ودماميل الجزيرة ، وطواعين الشام .

الأصمعي قال : ذكروا أن على باب سمرقند مكتوب : بين هذه المدينة وبين صنعاء ألف فرسخ . قال الأصمعي : بين بغداد وأفريقية ألف فرسخ ، وبين البصرة والكوفة ثمانون فرسخا ، وواسط بينهما متوسطة ، فلذلك سميت واسط .

الشامات

أول حد الشام من طريق مصر أمج ، ثم غزة ، ثم الرملة رملة فلسطين ، ومدينتها العظمى فلسطين . وعسقلان ، وبها بيت المقدس ، وفلسطين هى الشام الأولى .

ثم الشام الثانية وهى الأردُنّ ، ومدينتها العظمى طَبَرِيّة ، وهى التى على شاطئ البحيرة ، والغَور واليرموك ، وبَيسان ، فيما بين فلسطين والأردن .

ثم الشام الثالثة الغُوطة ، ومدينتها العظمى دمشق ، ومن سواحلها طرابُلس

ثم الشام الرابعة ، وهى أرض حمص .

ثم الشام الخامسة وهى قِنَّسرين ، ومدينتها العظمى حيث السلطان : حلب ، وبين قنسرين وحلب أربعة فراسخ ، وساحلها أنطاكية ، مدينة عظيمة على شاطئ البحر ، فى داخلها البساتين والأنهار والمزارع ، وهى مدينة حبيب النجار ، الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، وبها مسجد ينسب إلى حبيب النجار .

ومن ثغور الشام الخامسة : المَصِّيصة ، وطرسوس ، ونهرا جَيحان وسَيحان .

الجزيرة

ثم الجزيرة ، وهى ما بين دجلة والفرات ، وبها نهران يقال لهما الخابور والبليخ ومخرجهما من رأس العين ، [وهى] مدينة عظيمة بالجزيرة فى داخلها عين هى عنصر الخابور والبليخ ، وعلى الخابور منازل ربيعة ، وأكثرها نصارى وخوارج ونصيبين من الجزيرة ، وهى مدينة عظيمة مطلة على جبل الجودىّ . والموصل من

الجزيرة أيضا . والرقة وحران من الجزيرة أيضا .

ومن ثغور الجزيرة فى جهة عَمُّورية من أرض الروم : بطرة ومَلَطية . وفى جوف الفرات جزائر فيها مدن يقال لها عانة وعانات ؛ وعلى شط الفرات مما يلى الجزيرة قَرْقيسِيا ، ومما يلى الشام : الرَّحْبة ، رحبة مالك بن طوق .

العراقان

٥

هما البصرة والكوفة ، وقد تقدم ذكرهما واختلاف الناس فيهما .

وفيها أحدثت خلفاء بنى هاشم بالعراق : الأنبار ، وهى مدينة أبى العباس ، أولِ من ولى الخلافة من بنى هشام ، ابتناها واتخذها دار خلافته ؛ ثم ولى أخوه أبو جعفر المنصور ، فانتقل إلى بغداد ، وهى مدينة السلام . وابتنى بها الكرخ فى جوف بغداد ، وهى دار خلافة بنى هاشم ، حتى قام المعتصم محمد بن هارون ، فانتقل منها إلى سامَرَّا ، وتفسير سامرا أن سام بن نوح عليه السلام بناها ، وإنما هو بالسريانية ، وهى دار الخلافة إلى الآن .

١٠

فارس

منها الأهواز ، مدينة عظيمة ، وبلدها واسع جدا ، وهى من سواد البصرة ؛ وتَسْتَر مدينة يعمل فيها التسترى ، وهى ملاحف ؛ ومدينة يقال لها جُور ، وإليها ينسب ماء الورد الجورى ؛ ومدينة يقال لها إصطخر ، بها تعمل الأكسية الإصطخرية الجياد السود ؛ ومدينة يقال لها السوس ، بها تعمل الثياب السوسية من الخز وغيره ؛ ومدينة يقال لها العسكر ، وإليها تنسب الثياب العسكرية ؛ ومدينة يقال لها الأفساسار ، وبها تَعمل الأكسية الأفساسارية الجياد ؛ ومدينة يقال لها دَسْتوا ، وبها تعمل الثياب الدستوائية ؛ ومدينة يقال لها الدسكرة ، دسكرة الملك كانت لكسرى : ومدينة يقال لها حُلوان ، وهى أول الجبال من خراسان وآخر العراق .

١٥

٢٠

خراسان

أول مدنها الرى ، وهى آخر الجبال من خراسان ، وإليها ينسب من الرجال الرازى ، ومن خراسان مرو ، وهى دار خلافة المأمون ، ومنها خرج أبو مسلم صاحب الدعوة ، ومَن ينسب إليها من الرجال ، يقال له مروزى ، ومن الثياب مروى ؛ ومدينة يقال لها قومَس ، وإليها تنسب الطيقان القومسية ؛ ومدينة يقال لها سابور ، بها ملك بنى طاهر ؛ ومدينة يقال لها هراة ، إليها ينسب الهرَوى من الرجال والمتاع ؛ ومدينة يقال لها بلخ ، وإليها ينسب البلخى ، وبها معادن البجادى العتيق ، وهو جنس من الفصوص تسميه العامة البزادى ؛ ومدينة يقال لها خوارزم ، وإليها ينسب الخوارزمى ، وهى على شط البحر المحيط ؛ وبلخ على شط النهر العظيم ، الذى يقال له جيحون بخراسان ، ثم جرجان ، وهى مدينة عظيمة على شط البحر المحيط ، وإليها ينسب الوشى الجرجانى والمتاع ، ثم قوهى ، وهى مدينة عظيمة إليها ينسب القوهى من الثياب : ثم كابُل ، وهى مدينة يؤتى منها بالإهليلج الكابُلىّ ، ثم سمرقند ، وهى مدينة عظيمة ، إليها ينسب السمرقندى من الثياب ، وبين بغداد وبينهما مسيرة ستة أشهر ، وهى مما يلى كرمان ، وهى على بطائح السند . وبلاد السند من آخر خراسان ، ما بين المغرب والمشرق من جهة القبلة ؛ وآخر مدن خراسان مدينة يقال لها تُبَّت ، وهى من أرض الترك وبها مجمع المسك ؛ ومدينة يقال لها فرمانة ، وأهلها جنس من العجم يقال لهم الصُّغد ، وهم الذين يقطعون آذانهم من الحزن إذا مات لهم كبير .

ومن المدن التى فى صدر خراسان على الجبال ، مدينة يقال لها قرْميسين ، ثم الدِّينَوَر ، وإليها ينسب الدينورى ؛ ومدينة همذان ، مدينة عظيمة ؛ وطبرستان مدينة عظيمة ، فيها تعمل الأكسية الطبرية ؛ ثم قُمّ ، وهى مدينة عظيمة ، منها يؤتى بالزعفران ؛ ثم أصبهان ، وهى مدينة عظيمة ؛ ثم طوس ، وهى من ثغور الجبال .

مصر

من ناحية الشام : الفسطاط ، وهى مدينة بها منبران ومسجدان ، يجمع فيهما العسكر حيث السلطان ؛ وعين شمس ، بها منبر ، وكانت مدينة فرعون ، وفيها بنيانه قائم ؛ والفرمان ، لها منبر ؛ والعريش الذى يقال له عريش مصر ، له منبر ، وهى آخر مصر وأول الشام .

ومن أسفل الأرض : بوصير ، لها منبر ؛ وتنيس ، لها منبر ، وإليها تنسب الثياب التنيسية ، وبها طراز للخليفة ؛ وشطا ، لها منبر ، وإليها ينسب الشطوى ؛ ودَبيق ، لها منبر ، وإليها ينسب الدبيقى من الثياب ؛ والإسكندرية ، لها منبر .

ومن ناحية الحجاز ، القُلزم ، لها منبر ؛ وأيلة ، لها منبر .

ومن ناحية الصعيد : القَيس [1] وإليها ينسب القيسى من الثياب ؛ والصَّفَن ، وإليها تنسب الأكسية الصفنية الحمر ؛ ودَلَاص ، لها منبر ، وهى مجمع سحرة مصر ؛ والفيوم ، مدينة لها منبر ، تؤدّى كل يوم ألف دينار ؛ وخلف ذلك قوص [2] وبها تكون معادن الذهب والجوهر والزبرجد .

صفة المسجد الحرام

صحنه كبير واسع ، ذرعُه طولا من باب بنى جمح إلى باب بنى هاشم الذى يقابل دار العباس بن عبد المطلب ، أربعمائة ذراع وأربع أذرع ؛ وذرعه عرضاً من باب الصفا إلى دار الندوة لاصقاً بوجه الكعبة الشرقى ، ثلثمائة ذراع وأربع أذرع ؛ وله ثلاث بلاطات محدقة به من جهاته كلها منتظم بعضها ببعض ، وهى داخلة فى الذرع الذى ذكرْت ، فوقها سماواتها مُذهبة ، وحافاتها على عمد رخام بيض ، عددها فى طوله من الشرق إلى الغرب مع وجه الصحن ؛ خمسون عمودا ، وفى عرضه ثلاثون عمودا ، بين كل عمودين مثل عشر أذرع ،

(١) فى بعض الأصول : « القس » .
(٢) فى بعض الأصول : « بوق » .

وجملة عمد المسجد أربعمائة وأربعة وثلاثون عموداً ، طولُ كل عمود منهما عشر أذرع ، ودَوره ثلاث أذرع ، والمذهبة من رؤس العمد ثلثمائة وعشرون رأساً وسور المسجد كله من داخله مزخرف بالفسيفساء ، وأبوابه على عمد رخام مابين الأربعة إلى الثلاثة إلى الاثنين ، وهى ثلاثة وعشرون باباً لاغَلَق عليها ، يُصعد عليها فى عدةٍ مِن دَرج . ٥

صفة الكعبة

وبيت الله الحرام بوسط المسجد ، كان ارتفاعه فى عهد إبراهيم عليه السلام فيما يقال — والله أعلم — تسع أذرع ، وطوله فى الأرض ثلاثون ذراعا وعرضه اثنتان وعشرون ذراعا ؛ وكان له ثلاثة سقوف ؛ ثم بنتْه قريش فى الجاهلية فاقتصرت على قواعد إبراهيم ، ورفعته ثمانى عشرة ذراعاً ، ونقصت ١٠ من طوله فى الأرض ستَّ أذرع وشبراً تركتْه فى الحجر ، فلما هدمه ابن الزبير ردّه على قواعد إبراهيم ورفعه سبعاً وعشرين ذراعا ، وفتح له بابين : بابا إلى الشرق ، وبابا إلى الغرب ، يدخل على الشرقى ويخرج على الغربى ، فكان كذلك حتى قُتل ، فلما تغلب الحجاج على مكة استأذن عبدَ الملك بن مروان فى هدم ماكان ابن الزبير زاده من الحجر فى الكعبة ، فأذن له ، فردّه على قواعد قريش ١٥ وسدّ الباب الغربى ولم ينقص من ارتفاعه شيئا .

فذرْع وجهِه القبلى اليوم من الركن الأسود إلى الركن اليمانى ، عشرون ذراعاً ؛ ووجهه الجنوبى من الركن العراقى إلى الركن الشامى — وهو الذى يلى الحجر — إحدى وعشرون ذراعا ؛ ووجهه الشرقى من الركن العراقى إلى الركن الذى فيه الحجر الأسود ، خمس وعشرون ذراعا ؛ ووجهه الغربى من الركن اليمانى ٢٠ إلى الركن الشامى ، خمس وعشرون ذراعا

وحول البيت — كله إلا موضعَ الركن الأسود — درجة مجصصة يكون ارتفاعها عظم الذراع فى عرض مثله ، وقاية للبيت من السيل ؛ وباب البيت فى

وجهه الشرقى على قدر القامة من الأرض ، طوله ست أذرع وعشر أصابع ، وعرضه ثلاث أذرع وثمان عشرة إصبعا ، والباب من ساج ، غلظ كل باب ثلاثُ أصابع ، ظاهرها مُلبس بالذهب ، وباطنها بالفضة ، فى كل باب ستُّ عوارض ، ولها عروتان يضرب فيهما قُفلٌ من ذهب .

وحواجبه كلها مذهبة ماعدا الحاجب الأيمن ؛ فإن العلَوىَّ الثائر لما تغلب على مكة قلع ذهبه فتُرك على حاله ؛ وتحت العتبة العليا عتبة مذهبة ، والبابان من ورائهما ، والعتبة السفلى مستورة بالديباج إلى الأرض ، وبين الركن الأسود والباب خمس أذرع أو نحوها ، وهو الملتزَم فيما يُذكر عن ابن عباس .

والحجر الأسود على رأس صخرتين من وجه الأرض ، قد نُحت من الصخر مقدارُ ماأُدخل فيه الحجر ، وأشفت الصخرة الثالثة عليهما مثل أصبعين والحجر أملس مجزَّع حالك السواد فى قدر الكف المحنيّة قد لُزّ منْ جوانبه بمسامير الفضة ، وفيه صدوع ، وفى جانب منه صفيحة فضة ، حسبتُها شظيةً منه شظيت فجبرت بها ، وصخر الركن الأسود أحرش ، أكبر من صخرنا قليلا .

وللبيت سقفان : سقف دون سقف ، وفيهما أربع رَوازِن ينفذ بعضها إلى بعض للضوء ، وللسقف الأسفل ثلاث جوائز من ساج منقشة مذهبة

وفى داخل البيت فى الحائط الغربى قبالة الباب ، الجزعة على ست أذرع من قاع البيت ، وهى سوداء مخططة ببياض ، طولها اثنتا عشرة إصبعا فى مثل ذلك وحولها طوق من ذهب عرضه ثلاث أصابع ، ذُكر أن النبى صلى الله عليه وسلم جعلها على حاجبه الأيمن حين صلى فى البيت .

والحِجر بجوفى البيت محجور من الركن العراقى الشامى تحجيراً محنيا غير مرتفع ، قد انقطع طرفاه دون الركنين اللذين يليانه بمثل ذراعين ، للدخول والخروج ، يكون مابين مُوسطةُ جنبى التحجير والبيت كما بين الركنين ، وارتفاع التحجير نصف قامة ، وهو ملبس بالرخام من داخله وخارجه وأعلاه ، وجُعل بين كل رخامتين عمود من رصاص ؛ وقاع الحجر كله مفروش بالرخام ، ومصب

الميزاب فيه ، وقبلتها إليه ، والميزاب مُوسطة أعلى جدار الكعبة ، وخارجا عنه مثل أربعة أذرع فى سعته ، وارتفاع حيطانه ثمان أصابع ، ملبس ظاهره وباطنه بصفائح الذهب ، والصفائح مسمرة بمسامير مروّسة من ذهب .

والبيت كله مستور إلا الركن الأسود ، فإن الأستار تَفرج عنه مثل القامة ونصف ، وإذا دنا وقت الموسم كُسى القباطىّ ، وهى ديباج أبيض خراسانى ، فيكون بتلك الكسوة ماكان الناس مُحرمين ، فإذا أحلّ الناسُ ، وذلك يوم النحر حلّ البيت فكُسى الديباج الأحمر الخراسانى ، وفيه دارات مكتوب فيها حمدُ الله وتسبيحه وتكبيره وتعظيمه ، فيكون كذلك إلى العام القابل ، ثم يكسى أيضا على حال ماوصفت ، فإذا كثرت الكسوة وخُشِىَ على البيت من ثقلها خُفف منها ، فأخذ ذلك سدنةُ البيت ، وهم بنو شيبة .

وذكر بعض المصريين أنه حضر كشف البيت سنة خمس وستين ، فرأى ملاطه الزعفران واللُّوبان .

وذُكِر أيضا عن بعض المكيين حديثٌ يرفعونه إلى مشايخهم أنهم نظروا إلى الحجر الأسود إذ هدم ابنُ الزبير البيتَ وزاد فيه ، فقدّروا طوله ثلاث أذرع ، وهو ناصع البياض ـ فيماذكروا ـ إلا وجهه الظاهر ؛ واسوداده فيما ذكروه ـ والله أعلم ـ لاستلام الجاهلية إياه ولطخه بالدم .

والمقام بشرقى البيت على سبع وعشرين ذراعا منه ، وجه المصلّى خلفه مستقبلَ البيت إلى الغرب ، والركن العراقى على يمينه ، والباب والركن الأسود على يساره وهو فيما ذَكَرَ مَنْ رآه حجرٌ غيرُ مربوع يكون ذراعا فى ذراع ، وفيه أثرُ قدم إبراهيم عليه السلام ، وطول القدم مثلُ عَظْم الذراع ، والحجر موضوع على منبر لئلا يمرّ به السيل ، فإذا كان وقت الموسم وضع عليه تابوت حديد مثقب لئلا تناله الأيدى .

وحول البيت كله سوارٍ ستٌّ غلاظ مربعة من حديد مذهبة ، ورءوسها

مذهبة أيضا ، يوقد عليها بالليل للطائفين ، بين كل عمود منها والبيت نحو مابين المقام والبيت .

وزمزم بشرقى الركن الأسود ، بينهما مثل الثلاثين ذراعا ، وهى بئر واسعة ، تنُّورها من حجر مطوّق أعلاه بالخشب ، وسقفها قبوٌ مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان تحت كل ركن منهما عمودان من رخام متلاصقان ، وقد سد ما بين كل ركنين منهما بشرجب خشب ، وردّ إلى باب من جهة المشرق ، وحول القبو كله مثل البُرْطُلة ، وبشرقى زمزم بيت مقدر ، سقفه مزخرف بالفسيفساء أيضا مقفل عليه ، وشرقى هذا البيت بيت كبير مربع له ثلاثة أقباء ، وفى كل وجه منه باب .

وحَمام المسجد كثير أنيس ، يكاد الإنسان أن يطأه بقدمه ، لأُنسه بالناس ؛ وهو فى لون حمام الأبرجة عندنا ، إلا أنه أقدر منه ، وليس منه حمامة تجلس على البيت ولا تطير عليه ، ولقد همنى ذلك ، فرأيتها حين تكاد أن تحاذى البيت وهى مستعلية فى طيرانها ذلك ، غطست حتى تصير دونه ، وأخذت عن يمينه أو يساره ، وذَرْقها ظاهر بارز على البيوت التى فى المسجد ، إلا بيت الله الحرام فانه نقى ليس فيه ولا عليه أثر ، فسبحان مُعَظِّمِه ومُقدِّسِه ومُطهِّره ، وتعالى علوا كبيرا !

وبين باب الصفا — وهو بقبلى البيت — والصفا ، الشارع ، وهو ببطن الوادى ؛ وبعد الشارع فِناء كبير فيه الباعة ، ثم الصفا فى أصل جبل أبى قُبيس ، قد أحدق به البناء إلا من الوجه الذى يُرقى إليها منه ، والرقى إليها على ثلاث درج مبنية بالصخر ، والواقف على الصفا مستقبل الجوف ينظر إلى البيت من باب الصفا .

والمروة بشرقى المسجد ، وهى من الصفا بين المشرق والمغرب ، قد أحدق بها البناء أيضا إلا من وجه المصعد إليها ، وهو من أعلى القصور ، بينها وبين المسجد الحرام الزقاق الضيق ، فالواقف على المروة مستقبِلَ البيت تجاه الفرجة يرى الميزاب وما اتصل به من البيت ، وبين الصفا والمروة شبيه بما بين باب السقاية والمسجد

الجامع ، والساعى بينهما إذا هبط من الصفا يريد المروة سلك فى الشارع وهو بطن الوادى ، عن يمينه القصور ، وعن يساره المسجد ؛ ويعترضه بطن واد إذا انصب فيه أرقل حتى يخرج عن آخره ، وله علمان أخضران فى جانبى الوادى ، أحدهما وهو الأول خلف باب الصفا لاصقٌ بالسور ، والثانى أمامه بائن ، عن ٥ السور جُعلا ليُفهم بهما حدُّ الوادى الذى يرمل فيه .

ومِنى قرية بشرقى مكة ، تنحو إلى القبلة قليلا خارجة عن الحرم ، على نحو الفرسخ منها ؛ وفيها بنيان وسقايات ، وأول ما يلقى منها الخارج من مكة إليها ، جمرةَ العقبة ، بعد يوم النحر ، أيام التشريق ؛ وبها مسجد أكبر من جامع قرطبة ، وهو مسجد الخَيف ، له مما يلى المحراب أربع بلاطات معترضة ، ١٠ سقفها من جرائد النخل ، وعمدها مجصّصة ، والمنبر على يسار المحراب ، والباب الذى يخرج منه الإمام عن يمينه ، وفى وسط صحن المسجد منارة ، وفى كل جانب منها سقيفة .

والمزدلفة ، وهى المشعر الحرام ، بين منى وعرفة ، وهى من منى على نحو الفرسخين[1] ، ولها مسجد مجصّص لا بناء فيه إلا الحائط الذى فيه المحراب ، ١٥ والبابُ الذى يخرج منه الإمام عن يمينه ، وفى الوسط صحن المسجد ؛ وليس فيها ساكن .

وعرفة بشرقى منى على نحو الفرسخين منها ، ليس بها ساكن ولا بناء ، إلا سقايات وقنَوات يجرى فيها الماء ، وليس بمسجدها بنيان إلا الحائط الذى فيه المحراب ؛ وموقف الناس يوم عرفة بعرفة فى الجبل وما يليه مما تحته ؛ والجبل ٢٠ بين المشرق والجوف من مسجدها ، وفى الموضع الذى يقف فيه الإمام ماء جارٍ . ومحراب منى وعرفة والمزدلفة إلى نحو المغرب .

(١) فى بعض الأصول : « على نحو الميلين » .

صفة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم

بلاطاته في قبلته معترضة من الشرق إلى الغرب ، في كل صف من صفوف عمدها سبعة عشر عمودا ، ما بين كل عمودين منها فجوة كبيرة واسعة ، والعُمُد التي في البلاطات القبلية بيض مجصصة شاطّة جدا ، وسائر عمد المسجد رخام ؛ والعمد المجصصة على قواعدَ عظيمةٍ مربعة ، ورءوسها مُذهبة عليها نجف منقشة مذهبة ، ثم السماوات على النجف ، وهى أيضاً منقشة مذهبة ؛ وقبالة المحراب مُوسّطة البلاطات ، بلاط مذهب ، كله شقت به البلاطات من الصحن إلى أن ينتهى إلى البلاط الذى بالمحراب ولا يشقه ، وفى البلاط الذى يلى المحراب تذهيبٌ كثير ، وفى وسطه سماء كالترس المقدّر مجوّف كالمحار ، مذهب ؛ وقد أخذ وجه السور القبلى من داخل المسجد بإزار رخام من أساسه إلى قدر القامة منه ، ولف على الإزار بطوق رخام فى غلظ الأصبع ، ثم من فوقه إزار دونه فى العرض مخلّق بالخَلوق ، ثم فوقه إزار مثلُ الأول فيه أربعة عشر بابا فى صف من الشرق إلى الغرب فى تقدير كُوَى المسجد الجامع بقرطبة ، منقشة مذهبة ، ثم فوقه إزار رخام أيضا ؛ فيه صنيفة سماوية فيها خمسة سطور مكتوبة بالذهب بكتاب ثخين غلظه قدر أصبع ، من سُوَر قِصار المفصّل ، ثم فوقه إزار رخام مثل الأول الأسفل ، فيه ترسة من ذهب منقشة ، وبين كل ترسين منها عمود أخضر فى حافاته قضبان من ذهب ، ثم فوقه إزار رخام فيه صنيفة منقشة ، عرضها مثل عظم الذراع ، لها قضبان وأوراق من ذهب ، ثم فوقه إزار فسيفساء عريض ، ثم السماوات عليه ؛ والمحراب فى مُوسطة السور القبلى ، على قوسه قَصّة من ذهب ناتئة غليظة ، فى وسطها مرآة مربعة ذكر أنها كانت لعائشة رضى الله عنها .

وقبو المحراب مقدّر جدًا ، وفيه دارات بعضها مذهبة وبعضها حُمرٌ وسود ، وتحت القبو صنيفة ذهب منقشة ، تحتها صفائح ذهب مثمنة ، فيها جزعة مثل

جمجمة الصبي الصغير مسمرة ؛ ثم تحتها إلى الأرض إزار رخام مخلّق بالخلوق ، فيه الوتد الذى كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوكأ عليه فى المحراب الأول عند قيامه من السجود فيما ذُكر ، والله أعلم .

وعن يمين المحراب باب يدخل منه الإمام ويخرج ، وعن يساره باب صغير مشطرج [1] ، قد سُدّ بعوارض من حديد ، وبين هذين البابين والمحراب ممشى مسطح لطيف .

والمقصورة من السور الغربى لاصقة بالباب إلى الفصيل اللاصق بالسور الشرقى ، ومن هذا الفصيل يُصعد إلى ظهر المسجد ، وهى قديمة مختصرة العمل ، لها شرفات وأربعة أبواب ، وخارج المقصورة قريب منها عن يسار المحراب سَرَبٌ فى الأرض يُهبط فيه على درج يُفضى منها إلى دار عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

والمنبر عن يمين المحراب فى أول البلاط الثالث من المحراب فى روضة مفروشة من الرخام محجوز حولها به ، وله درج ، وسمر فى أعلاه لوح لئلا يجلس أحد على الدرجة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس عليها ، وهو مختصر ، ليس فيه من النقوش ودقة العمل ما فى منابر زماننا الآن ، والجذع أمام المنبر ، وشرقى المنبر تابوت يُستر به مقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقبره صلوات الله عليه وسلامه بشرقى المسجد فى آخر مسقّفه القبلى مما يلى الصحن ، بينه وبين السور الشرقى مثل عشر أذرع ، قد حُظر حوله بحائط بينه وبين السقف مثل ثلاث أذرع ، وله ستة أركان ، وكُلّس بإزار رخام أكثر من قامة ، وما فوق القامة مخلق بالخلوق .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض

---

(١) فى بعض الأصول « شطرنجى » .

الجنة ؛ ومنبرى على ترعة من ترع الجنة .

وعلى ظهر المسجد حذاء القبر حجر محجور لئلا يمشى عليه ، والبلاطات الجنوبية والغربية أربع ، منتظم بعضها فوق بعض فى طولها مع وجه الصحن من القبلة إلى الجوف ثمانية عشر عمودا ، وحنايا المسجد كلها مما يلى الصحن مشدودة من جهاتها الأربع إلى مناكب العمد بخشب منقش . ٥

وللمسجد ثلاث منارات : اثنتان للجنوب وواحدة للشرق ؛ وحيطان المسجد كلها من داخله مزخرفة بالرخام والذهب والفسيفساء ، أولها وآخرها ، وله ثمانية عشر بابا ، عتبها مذهبة ، وهى أبواب عظيمة لا غلق عليها ، أربعة منها فى الجنوب ، وسبعة فى الشرق ، وسبعة فى الغرب .

١٠ وقاع المسجد كله مفروش بالحصى وليس له حصر ، ووجه سور المسجد كله من خارج منقش بالكذّان ، وكذلك الشرفات .

فينبغى للداخل فى المسجد أن يأتى الروضة التى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنها روضة من رياض الجنة » ، فيصلى فيها ركعتين ، ثم يأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم من قبل وجهه ، فيستدبر القبلة ويستقبل القبر ، ويسلم ١٥ عليه صلى الله عليه وسلم ، وعلى أبى بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، ولا يَلصَق بالقبر ، فإنه من فعل الجهال ، وقد كُرِه ذلك ، فإذا فعل ما ذُكر استقبل القبلة ودعا بما أمكنه بعد الصلاة على النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وعرّفنا به ، ورزقنا شفاعته برحمته ، آمين !

صفة مسجد بيت المقدس

٢٠ وما فيه من آثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

طول المسجد سبعمائة ذراع وأربع وثمانون ذراعا ، وعرضه أربعمائة ذراع وخمس وخمسون ذراعا بذراع الإمام ، ويُسرّج فى المسجد ألفٌ وخمسمائة قنديل ، وعدّة ما فيه من الخشب ستة آلاف خشبة وتسعمائة خشبة ، وعدد

مافيه من الأبواب خمسون بابا ، وعدد مافيه من العمد ستمائة وأربعة وثمانون عمودا ، والعمد التى داخل الصخرة ثلاثون عموداً ، والعمد التى خارج الصخرة ثمانية عشر عمودا ، وفيه الصخرة الملبسة صفائح الرصاص ، عليها ثلاثة آلاف صفيحة ، وثلثمائة واثنتان وتسعون صفيحة ، ومن فوق ذلك صفائح النحاس
٥ مطلية بالذهب ، يكون عليها عشرة آلاف صفيحة ، ومائتان وعشر صفائح ؛ وجميع ما يُسرَج فى الصخرة من القناديل أربعمائة قنديل وأربعة وستون قنديلا ، بمعاليق النحاس وسلاسل النحاس ؛ وكان طول صخرة بيت المقدس فى السماء اثنى عشر ميلا ، وكان أهل أريحاء يستظلون بظلها ، وأهل عمواس مثل ذلك ؛ وكان عليها ياقوتة حمراء تضىء لأهل البلقاء ، وكان يَغزل فى ضوئها
١٠ أهلُ البلقاء .

وفى المسجد ثلاث مقاصير للنساء ، طول كل مقصورة ثمانون ذراعا فى عرض خمسين ذراعا ، وفيه من السلاسل لتعليق القناديل ستمائة سلسلة ، طول كل سلسلة ثمان عشرة ذراعا ، وفيه من غرابيل النحاس سبعون غربالا ، وفيه من الصنوبر التى للقناديل سبع صنوبرات ، وفيه من المصاحف الجامعة سبعون مصحفا ، وفيه
١٥ من الكبار التى فى الورقة منها جلد ، ستة مصاحف على كراسى تجعل فيها ؛ وفيه من المحاريب عشرة ، ومن القباب خمس عشرة قبة ، وفيه أربعة وعشرون جبا للماء ، وفيه أربع مناور للمؤذّنين ، وجميع سطوح المسجد والقباب والمنارات ملبَسة صفائح مذهبة ، وله من الخدم بعيالاتهم مائتا مملوك وثلاثون مملوكا ، يقبضون الرزق من بيت مال المسلمين ؛ ووظيفته فى كل شهر من الزيت سبعمائة قسط
٢٠ بالإبراهيمى ، وزْن القسط رطل ونصف بالكبير ؛ ووظيفته فى كل عام من الحصر ثمانية آلاف ، ووظيفته فى كل عام من الشُّرافة لفتائل القناديل اثنا عشر دينارا ولزجاج القناديل ثلاثة وثلاثون دينارا ، ولصُناع يعملون فى سطوح المسجد فى كل عام خمسة عشر دينار .

آثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

ببيت المقدس

مربط البراق الذى ركبه النبي صلى الله عليه وسلم ، تحت ركن المسجد ؛ وفى المسجد باب داود عليه الصلاة والسلام وباب سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام وباب حِطة التى ذكرها الله تعالى فى قوله تعالى : ﴿ وقولوا حطّةٌ ﴾ ، وهى قول لا إله إلا الله ؛ فقالوا : حنطة ، وهم يسخرون ، فلعنهم الله بكفرهم ؛ وبابُ محمد صلى الله عليه وسلم ، وبابُ التوبة الذى تاب الله فيه على داود ، وباب الرحمة التى ذكرها الله تعالى فى كتابه : ﴿ له بابٌ باطِنُهُ فيه الرّحمةُ وظاهِرُهُ من قِبَلِهِ العذابُ ﴾ يعنى واد جهنم الذى بشرقى بيت المقدس ، وأبواب الأسباط أسباط بنى إسرائيل وهى ستة أبواب ؛ وباب الوليد ، وباب الهاشمى ، وباب الخضر ، وباب السكينة وفيه محراب مريم ابنة عمران رضى الله عنها ، الذى كانت الملائكة تأتيها فيه بفاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء ؛ ومحراب زكريا الذى بشرته فيه الملائكة بيحيى وهو قائم يصلى فى المحراب ، ومحراب يعقوب ، وكرسى سليمان صلوات الله عليه ، الذى كان يدعو الله عليه ، ومغارة إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام التى كان يتخلى فيها للعبادة ، والقبة التى عرج النبي صلى الله عليه وسلم منها إلى السماء ، والقبة التى صلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم بالنبيين ، والقبة التى كانت السلسلة تهبط فيها زمان بنى إسرائيل للقضاء بينهم ، ومصلى جبريل عليه السلام ، ومصلى الخضر عليه السلام .

فإذا دخلت الصخرة فصلِّ فى ثلاثة أركانها ، وصلِّ على البلاطة التى تُسامت الصخرة ، فإنها على باب من أبواب الجنة .

ومولد عيسى ابن مريم على ثلاثة أميال من المسجد ، ومسجد إبراهيم عليه السلام وقبره على ثمانية عشر ميلا من المدينة ، ومحراب المسجد بغربيه .

فضائل بيت المقدس

ينصب الصراط ببيت المقدس، ويؤتى بجهنم ـ نعوذ بالله منها ـ إلى بيت المقدس وتُزف الجنةُ يوم القيامة مثل العروس إلى بيت المقدس، وتزف الكعبة بحاجّها بها إلى بيت المقدس، ويقال لها مرحبا بالزائرة والمَزُورة؛ ويزف الحجر الأسود إلى بيت المقدس، والحجر يومئذ أعظمُ من جبل أبي قبيس ٥

ومن فضائل بيت المقدس أن الله رفع نبيه صلى الله عليه وسلم إلى السماء من بيت المقدس، ورفع عيسى ابن مريم عليه السلام إلى السماء من بيت المقدس ويَغلب المسيحُ الدجالُ على الأرض كلّها إلا بيت المقدس، وحرم الله على يأجوج ومأجوج أن يدخلوا بيت المقدس، والأنبياء كلهم من بيت المقدس، والأبدال كلهم من بيت المقدس، وأوصى آدمُ وموسى ويوسف وجميع أنبياء بني إسرائيل ١٠ صلوات الله عليهم أن يُدفنوا ببيت المقدس [(١)] .

نتف من الأخبار

لابن المغيرة في المرزباني

فرج بن سلام قال: حدثني سليمان بن المغيرة قال: كنت أجد من أبي أيوب المرزباني رائحة طيبة، ليست برائحة شراب ولا رائحة طيب؛ فقلت له: أخبرني عن هذه الرائحة. فقال: عفص آمر به فيُدق وينخل، فألتّه بقطران شامي، ١٥ ثم آخذ منه كل غداة على إصبعي فأدلك به أسناني وعُمورَها، فتطيب نكهتها وتشتد لثتها وعُمورها.

للرياشي

الرياشي قال: كانوا إذا أرادوا جارية، مضغت نصف جوزة وأكلتها؛ فلا تزال طيبة النكهة سائر ليلتها.

٢٠ (١) يلاحظ أن ذلك الفصل مقحم بين جزأى موضوع واحد، يتصل الكلام قبله بما بعده؛ ويرى الأستاذ جبرائيل سليمان جبور صاحب كتاب «ابن عبد ربه وعقده» أن هذا الفصل مزيد على الكتاب بعد موت مؤلفه، وقد استند في ذلك إلى دلائل حقيقة بالنظر.

لابن عبد العزيز في ساحرة

عبد الصمد بن همام قال: كتب عامل عمان إلى عمر بن عبد العزيز. إنا أتينا بساحرة، فألقيناها في الماء فطفت على الماء فكتب إليه: لسنا من الماء في شيء، إن قامت عليها بينة وإلا فخلِّ عنها!

بين الحسن ورجل

وقال رجل للحسن: أبا سعيد، الملائكة خيرٌ أم الأنبياء؟ فقال: قال الله جل ثناؤه: ﴿ قُلْ لا أقولُ لكُمْ عِندِي خَزَائنُ اللهِ ولا أعْلَمُ الغَيْبَ ولا أقولُ لكُمْ إنِّي مَلَكٌ ﴾، وقال: ﴿ لَنْ يَستَنْكِفَ المسيحُ أنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلهِ ولا الملائكةُ المُقَرَّبُونَ ﴾، وقال: ﴿ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إلا أنْ تكونا ملكَين أو تكونا منَ الخالِدِينَ ﴾.

للضحاك

العتبي قال: حدثني أبو النصر عن جرير عن الضحاك قال: من سمع الأذان في بيته فقام فصلى فقد أجاب.

عن العتبي

أبو حاتم عن العتبي قال: سُمي المحرم [مُحرّما]، لأنه جُعل حراما؛ وصَفَرُ لإصفار مكة من أهلها؛ والربيعان؛ للخصب فيهما، والجُمَاديان، لجمود الماء فيهما من شدة البرد، ورجب، لترجيب العرب أسنتها؛ وشعبان، لأنه شعب بين رجب ورمضان؛ ورمضان لإرماض الأرض من الحر؛ وشوال، لأن الإبل شالت بأذنابها فيه لحملها؛ وذو القعدة، لقعودهم فيه عن الغزو من أجل الحج؛ وذو الحجة، للحج.

يونس ورؤبة

الرياشي عن محمد بن سلام عن يونس النحوي قال: قال لي رؤبة وأنا أسأله عن الغريب: حتى متى تسألني عن هذه الأباطيل وأزوقها لك؟ أما ترى الشيب قد أخذ في عارضيك ولحيتك؟

للخليل

وقال الخليل بن أحمد: إنك لا تعرف خطأ معلمك حتى تجلس عند غيره.

الرياشي عن الأصمعي قال: لا تكون حُطَمة حتى يكون قبلها بُريق تأتي فتحطم.

ومن حديث أبي رافع، عن أبي ذرّ قال: قلت يا رسول الله صلى الله عليك

كم عدد النبيين ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا .

لقتادة
أبو بكر بن عياش عن العجلى عن قتادة قال : طول الدنيا مائة ألف وأربعة وعشرون ألف فرسخ .

لابن عمر
ومن حديث عبد الله بن عمر قال : العرش مطوّق بحية ، والوحى ينزل
٥ فى السلاسل .

فى العباس
ومن حديث ابن أبى شيبة : أن العباس بن عبد المطلب ، كان أقرب شحمة أذن إلى السماء ، وكان إذا طاف بالبيت يشبه الفسطاط العظيم ، وإذا مشى بين قوم تحسبه راكبا .

للنبى صلى الله عليه وسلم
ومن حديث عروة بن الزبير عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
١٠ خلق الله الملائكةَ من نور ، والجانَّ من نار ، وآدم من تراب .

وسأل أعرابىٌّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : متى القيامة ؟

فقال له : وما أعددتَ لها ؟

قال : لا شىء والله ، غير أنى أحبُّ اللهَ ورسوله .

قال : المرء مع من أحب .

١٥ زياد عن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إياكم والشركَ الأصغر .

قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟

قال : الرياء !

لمالك
زياد عن مالك قال : إذا لم يكن فى الرجل خير لنفسه لم يكن فيه خير لغيره ، وإذا رأيت الرجل يستحل مال عدوه فلا تأمنْه على مال صديقه .

لحذيفة
٢٠ وقال بعضهم : سمعت حذيفة يحلف لعثمان فى شىء بلغه عنه ، ما قاله ، ولقد سمعته يقوله ؛ فسألته عن ذلك ، فقال : يابن أخى ، أشترى دينى بعضَه ببعض لئلا يذهب كله !

ترقيع الدنيا بالدين

أخذه الشاعر فقال :

نرقّعُ دُنيانا بتمزيق دِيننا ٭ فلا دِيننا يبقى ولا ما نرقّعُ

للنبى صلى الله عليه وسلم

زياد عن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الغيْرة من الإيمان ، والمِراء من النفاق .

لعلى

الأصمعى قال : سأل علىُّ بن أبى طالب الحسنَ ابنه رضوان الله عليهما : كم بين الإيمان واليقين ؟

قال : أربع أصابع .

قال : وكيف ذلك ؟

قال : الإيمان كلُّ ما سمعتْه أذناك وصدّقه قلبُك ، واليقين ما رأتْه عيناك فأيقنَ به قلبك ؛ وليس بين العين والأذنين إلا أربع أصابع .

الرياشى قال : ضرب علىٌّ كرّم الله وجهه بيده زانيا فأوجعه إيجاعا شديدا ، فقال له عمُّ المضروب : بعْضَ هذا الضرب فقد قتلته !

فقال على رضى الله عنه : إنه وَتَر مَن ولدَها مِن قِبل أبيها وأمّها من النبيين والصالحين إلى آدم !

قال الرياشى : فكنت أعجب من شنْعة حدّ الرجم ، فلما سمعت شنعة الذنب هان علىّ الحدّ !

من أبى عمرو

الأصمعى عن أبى عمرو قال : دم الحيض غذاء المولود .

للنبى صلى الله عليه وسلم

أقبل أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم [فى المسجد] يَنشد ضالةً له ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : لا وجدتَها ! إنما المساجد لما بُنيت له !

لأبى عمرو

الأصمعى عن أبى عمرو قال : أعرق الناس فى الخلافة : عاتكة بنت يزيد ابن معاوية ؛ أبوها خليفة ، وجدُّها خليفة ، وأخوها معاوية بن يزيد خليفة ، وزوجها عبد الملك بن مروان خليفة ، وولدها يزيد بن عبد الملك خليفة ، وأربّاؤها الوليد وسليمان وهشام ، خلفاء .

النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة

قتادة عن أنس بن مالك قال : أمّن النبي صلى الله عليه وسلم الناسَ يوم فتح مكة إلا أربعة ، فإنه قال : اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة : وهم : عبد العزى بن يزيد بن خطل ، ومِقْيس بن صُبابة الكندى ، وعبد الله [بن سعد] بن أبي سرح وسارة ؛ فأما عبد العزى فإنه قتل وهو متعلق بأستار الكعبة ، وأما عبد الله [بن سعد] بن أبي سرح : فإنه كان أخا عثمان بن عفان من الرضاعة ، فأتى به النبيَّ صلى الله عليه وسلم فبايعه وشفع له عنده ، وأما مِقْيس ؛ فإنه كان له أخ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقُتل خطأ ، فبعث معه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من بنى فهر ، ليأخذ له عقْله من الأنصار ، فلما اجتمع له العقل أخذه وانصرف مع الفهرى ، فنام الفهرى في بعض الطريق ، فوثب عليه مقيس فقتله ، ثم أقبل وهو يقول :

شفَى النفسَ مَن قد مات بالقاع مُسنَدًا * يُضَرِّجُ ثوْبيْــه دماء الأخادع

قتلتُ به فِهْراً ، وأغْرَمْتُ عقله * سَراةَ بنى النجّار أربابَ فارع

حَللتُ به نذرى وأدركتُ ثُؤرَتى * وكنتُ إلى الأوثان أول راجع !

وأما سارة فإنها كانت مولاة لقريش ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتكت إليه الحاجة ، فأعطاها شيئا ؛ ثم أتاها رجل فبعث معها كتاباً إلى أهل مكة يتقرّب به إليهم ليُحفظ في عياله ، وكان عياله بمكة ، فأخبرَ جبريلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فبعث النبيُّ صلى الله عليه وسلم في أثرها عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب ، فلحقاها ، ففتشاها فلم يقْدرا على شيء ، فأقبلا راجعيْن ، ثم قال أحدهما لصاحبه : والله ما كذَبنا ولا كُذِبنا ، ارجع بنا إليها !

فرجعا إليها ، فسلا سيفيهما ، ثم قالا : لتدفعِنَّ إلينا الكتاب أو لنذيقنك الموت !

فأنكرته ، ثم قالت : أدفعه إليكما على أن لا تردّانى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقبلا منها ذلك ، فحلّت عِقاص رأسها وأخرجت الكتاب من قرن من قرونها ؛ فرجعا بالكتاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فدفعاه إليه ؛ فدعا الرجلَ وقال له : ما هذا الكتاب ؟

فقال له : أخبرك يارسول الله ، إنه ليس ممن معك أحد إلا وله بمكة من يحفظه فى عياله غيرى ؛ فكتبتُ بهذا الكتاب ليكافئونى فى عيالى ! فأنزل ٥ الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء تُلقون إليهم بالمودّة ﴾ .

المصعب وقتل مرة

أمر المصعب بن الزبير رجلا من بنى أسد بن خزيمة بقتل مرة بن محكان السعدى ، فقال مرة :

١٠ بنى أَسَدٍ إن تقتلونى تحاربوا * تميما إذا الحربُ العَوان اشمعلّتِ

ولستُ وإن كانت إلىّ حبيبةً * بباكٍ على الدنيا إذا ما تولّتِ

لجرير فى ابن سعد الأسدى

كان ابن سعد الأسدى قد تولى صدقات الأعراب لعمر بن عبد العزيز وأعطياتهم ، فقال فيه جرير يشكوه إلى عمر :

حرمْت عيالا لا فواكهَ عندهم * وعند ابن سعد سكّرٌ وزبيبُ

١٥ وقد كان ظنى بابن سعدٍ سعادةً * وما الظنّ إلا مخطئٌ ومُصيب

فإن تَرجعوا رزقى إلىّ فإنه * متاع ليالٍ والأداء قريب

تُحَيّا العظامُ الراجماتُ من البِلى * وليس لداء الركبتين طبيب

الرسول صلى الله عليه وسلم

لما توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، كان أبو خيثمة فيمن تخلف عنه . فأقبل ، وكانت له امرأتان ، وقد أعدت كل واحدة منهما من طيّب ٢٠ ثمر بستانها ، ومهدت له فى ظل حائط ؛ فقال : ظِل ممدود ، وثمرة رطبة طيبة ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضّحّ والريح ، ما هذا بخير !

ثم ركب ناقته ومضى فى أثره ؛ فقالوا : يارسول الله ، نرى رجلا يرفعه الآل .

فقال : كن أبا خيثمة ! فكانه .

الضح : الشمس ، تقول العرب فى أمثالها : جاء فلان بالضح والريح ، إذا أقبل بخير كثير .

نتف من الطب

لعمر

٥ قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا تزالون أصحاء ما نزعتم ونزوتم . يريد : ما نزعتم عن القسىّ ، ونزوتم على ظهور الخيل ؛ وإنما أراد الحركة ، والله أعلم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : سافروا تصحوا .

لبعض الحكماء

وقال بعض الحكماء : لا ينبغى للعاقل أن يخلى نفسه من ثلاث فى غير إفراط : الأكل ، والمشى ، والجماع ؛ فأما الأكل ، فإن الأمعاء تضيق

١٠ لتركه ؛ وأما المشى ، فإن من لم يتعاهده أوشك أن يطلبه فلا يجده ؛ وأما الجماع ، فإنه كالبئر ، إن نُزِحت جَمّت ، وإن تركت تَخثر ماؤها . وحق هذا كله القصد فيه .

للنبى صلى الله عليه وسلم

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «من استقل برأيه فلا يتداوى ؛ فربّ دواء يورث الداء» .

للحكماء

١٥ وقالت الحكماء : إياك وشربَ الدواء ما حملتْك الصحة .

وقالوا : مثَل الدواء فى البدن مثل الصابون فى الثوب : ينقيه ويُخلقه .

لطبيب كسرى

الأصمعى عن رجل عن عمه ، قال : لقيتُ طبيبَ كسرى شيخاً كبيراً قد شدّ حاجبيه بخرقة ، فسألته عن دواء المشي ، فقال : سهم يُرمى به فى جوفك أصاب أم أخطأ .

من كتاب الهند

٢٠ وفى كتاب التفصيل للهند : الدواء من فوق ، والدواء من تحت ، والدواء لا من فوق ولا من تحت .

تفسيره : من كان داؤه فوق سرته سقى الدواء ، ومن كان داؤه تحت

سرته حقن بالدواء ، ومن لم يكن له داء لا من فوق ولا من تحت لم يُسق الدواء ولم يحقن به .

النبي صلى الله عليه وسلم في السنا

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأسماء بنت عميس : بِمَ كنت تستمشين في الجاهلية ؟ قالت : بالشبرم . قال : حار حار . ثم قالت : استمشيت بالسنا . قال : لو أن شيئا يرد القدر لرده السنا . ٥

ومن حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج عليهم وهم يتذاكرون الكمأة ويقولون فيها : جدرى الأرض . فقال : إن الكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعين ، وهي شفعا من السم .

وأهدى تميم الدارى إلى النبي صلى الله عليه وسلم زبيبا ، فلما وضعه بين يديه قال لأصحابه : كلوا ؛ فنعم الطعام الزبيب ، يُذهب النصب ، ويَشد العصب ، ١٠ ويطفئ الغضب ، ويصفي اللون ، ويطيب النكهة ، ويرضى الرب .

وقال طلحة بن عبيد الله : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو جالس في جماعة من أصحابه ، وفي يده سفرجلة يقلبها ، فلما جلست إليه دحرج بها نحوى ، وقال : دونَكها أبا محمد ، فإنها تشد القلب ، وتطيب النفس ، وتذهب بطَخاءِ الصدر . ١٥

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أربع من النُّشر : شرب العسل نُشرة ، والنظر إلى الماء نشرة ، والنظر إلى الخضرة نشرة ، والنظر إلى الوجه الحسن نشرة »

وقال عثمان بن عفان : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : من بلغ الخمسين أمِن الأدواء الثلاث : الجنون ، والجذام ، والبرص .

ومن حديث زيد بن أسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما أنزل الله من ٢٠ داء إلا أنزل له دواء ، علِمه من علمه وجَهِلَه من جهله .

ومن حديث أبي سعيد الخدرى : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أنزل الدواء الذي أنزلَ الداء .

ومن حديث زيد بن أسلم أن رجلا أصابه جرح فى بعض مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا له رجلين من بنى أنمار ، فقال : أيكما أطبُّ ؟ فقال له رجل من أصحابه : فى الطب خيرٌ ؟ قال : إن الذى أنزل الداء أنزل الدواء .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : عليكم بهـذا العود الهندى ، فإن فيه سبعة ٥ أشفية ، يُسعَط به من العذرة ، ويُلَدُّ به من ذات الجنب .

يريد القُسط الهندى ، وهو الذى تسميه العامة : الكست .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : عليكم بهذه الحبة السوداء ، فإن فيهـا دواء من كل داء إلا السام .

يعنى الشونيز .

١٠ وفى مسند ابن أبى شيبة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : عليكم بالإثْمِدِ عند النوم ، فإنه يُحِدُّ البصر ، وينبت الشعر .

لابن مسعود — وفيه أن عبد الله بن مسعود قال : عليكم بالشفاءين : القرآن ، والعسل .

للأصمعى — الأصمعى قال : ثلاث ربما صرعَتْ أهلَ البيت عن آخرهم : الجرادُ ، ولحومُ الإبل ، والفُطْر . وهو الفَقع .

لأهل الطب — ١٥ ويقول أهل الطب : إن أردأ الفطر ما ينبت فى ظلال الشجر ، ولا سيما فى ظلال الزيتون ، فإنه قتّال .

لابن منبه — وقال وهب بن منبه : إذا صام الرجل زاغ بصره ، فإذا أفطر على الحلوى رجع إليه بصره .

للنبي صلى الله عليه وسلم — وأقبل رجل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إنى كنت فى ٢٠ الجاهلية ذا فطنة وذا ذهن ، وأنكرت نفسى فى الإسلام ! فقال له : أكنت تنام فى القائلة ؟ قال : نعم . قال : فعد إلى ما كنت عليه من نوم القائلة .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : عليكم بالشجرة التى كلم الله منها موسى بن عمران : زيت الزيتون فادَّهنوا به ، فإن فيه شفاء من الباسور .

وقال : فى الزيتونة يقول الله : ﴿ وشجرةً تخرُجُ مِنْ طورِ سَيْناء تنبُتُ بالدُّهْنِ وصِبْغ للآكِلينَ ﴾ .

للأطباء — وتقول الأطباء : إذا خرج الطعام من قبل ست ساعات فهو من ضرر ، وإذا أقام فى الجوف أكثر من أربع وعشرين ساعة فهو من ضرر .

معاوية والمغيرة — دخل المغيرة بن شعبة على معاوية فقال له معاوية : أنكرتُ من نفسى خصلتين : قلّ طُعمى ، ورقّ عظمى ؛ فإن تدثرتُ بالثقيل أثقلنى ، وإن تدثرتُ بالخفيف أصابنى البرد . قال : نم يا أمير المؤمنين بين جاريتين سميلتين ، يُدفئانك بشحومهما ، ويحملان عنك ثقل الدثار بمناكبهما ، وأكثِرْ من الألوان ، وكلْ من كلّ لون ولو لقمة ؛ فإن ذلك إذا اجتمع كثيرُه نَفَعَ . فدخل عليه بعد ذلك فقال له معاوية : يا أعور ، قد جربْنا ما قلتَ فوجدناه موافقا .

التعويذ والرقى

لابن المسيب — أبو بكر بن أبى شيبة عن عقبة عن شعبة عن أبى عصمة قال : سألت سعيد ابن المسيَّب عن تعليق التعويذ ، قال : لا بأس به .

مجاهد — وكان مجاهد يكتب للصبيان التعويذ ويعلقه عليهم .

للنبى صلى الله عليه وسلم — وقال النبى صلى الله عليه وسلم : من قال إذا أصبح : أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل عين لامة ، ومن كل شيطان وهامة ؛ لم يضره عين ولا حية ولا عقرب .

وفى مسند ابن أبى شيبة أن خالدَ بنَ الوليد كان يفزع فى نومه ، فشكا ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له : أخبرَنى جبريل أن عفريتا من الجن يكيدك ، فقل : أعوذ بكلمات الله التامات المباركات التى لايجاوزهن بَرّ ولا فاجر ، من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ فى الأرض وما يخرج منها ، ومن شر كلّ ذى شر . فقالهن خالد ، فذهب ذلك عنه .

وفى مسند ابن أبى شيبة أن النبى صلى الله عليه وسلم بينا هو يصلى ذات ليلة ، إذ وضع يده على الأرض فلدغته عقرب ، فتناول نعلَه فقتلها ؛ فلما انصرف

قال : لعن الله العقرب ، ماتدع نبيا ولا غيره ! ثم دعا بماء ومِلْح فجعله فى إناء ، ثم صب على إصبعه منه ، ومسحها وعوّذها بالمعوّذتين .

وفى مسند ابن أبى شيبة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا رقية إلا من عين أو حُمَة . والحمة : السم .

٥ سفيان بن عيينة قال : بينا عبد الله بن مسعود جالسا تعرض عليه المصاحف ، إذ أقبلت أعرابية فقالت : أبا فلان — لرجل جالس إليه — لقد لُدِغ مُهْرُك ، وتركته كأنه يدور فى فَلَك ، فقم فاسترْق له . فقال له ابن مسعود : لاتسترق له ، واذهب فانفث فى منخره الأيمن أربعا ، وفى الأيسر ثلاثا ، وقل : أذهِب الباس يارب الناس ، فإنه لا يذهبه إلا أنت . ففعل ، فلم يبرح حتى أكل وشرب

١٠ وبال وراث .

دخل أبو بكر على عائشة وهى تشكو ويهودية ترقيها ، فقال لها : ارقيها بكتاب الله . أبو بكر ورقية

الحجامة والكىّ

قال عبد الله بن عباس : احتجم النبى صلى الله عليه وسلم فى رأسه من

١٥ أذى كان به .

وفى مسند ابن أبى شيبة : أن عيينة بن حصن دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحتجم فى فأس رأسه ، فقال : ماهذا ؟ قال : هذا خير ماتداويتم به .

وفى مسند ابن أبى شيبة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : خير ماتداويتم به

٢٠ الحجامة والقُسط العربى ، ولا تعذبوا صبيانكم بالغمز من العُذرة .

وفيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : خير يوم تحتجمون فيه ، سبعة عشر ، وتسعة عشر ، وأحد وعشرون .

وفيه أنه قال : إن كان فى شىء مما تعالجون به خير ففى شرطة من محجم ،

أو لذعة من نار تواقع ألما ، أو شربة من عسل ؛ وما أحب أن أكتوى .

السم والسحر

النبي صلى الله عليه وسلم والشاة المسمومة

فى مسند ابن أبى شيبة : أن يهود خيبر أهْدَوْا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شاة مسمومة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجمعوا لى مَن ههنا من اليهود . فجمعوا له ، فقال لهم : هل جعلتم فى هذه الشاة سما ؟ قالوا : نعم ! قال : ماحملكم على ذلك ؟ قالوا : أردنا إن كنت كاذبا أن نستريح منك ، وإن كنت نبيا لم يضرك السم .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مازالت أكلة خيبر تعاودنى ، فهذا أوان قَطَعتْ أبهرى » .

أبو بكر وابن كلدة

الليث بن سعد عن الزهرى قال : أُهدِىَ لأبى بكر طعام ، وعنده الحارث ابن كلدة طبيب العرب ؛ فأكلا منه ، فقال الحارث لأبى بكر : لقد أكلنا والله فى هذا الطعام سُم سَنة ، وإنى وإياك لميتان عند رأس الحول ، فماتا جميعا عند انقضاء السنة .

النبي صلى الله عليه وسلم ويهودى ساحر

وفى مسند ابن أبى شيبة : أن رجلا من اليهود سَحَرَ النبي صلى الله عليه وسلم فاشتكى لذلك أياما ؛ فأتاه جبريل فقال له : إن رجلا من اليهود سحرك ، عقد لك عقدا وجعلها فى مكان كذا . فأرسل عليا رضى الله عنه فاستخرجها وجاء بها فجعل يحلها ، فكلما حل عقدة وجد رسول الله صلى عليه وسلم خِفة ؛ ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما أُنشط من عقال .

وفى مسند ابن أبى شيبة عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أنه قال : طُبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم — والطب : السحر — فبعث إلى رجل فرقاه .

العـــين

للعرب

تقول العرب : رجل مَعين ، إذا أُخذ بالعين .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : لوسبق القدر شىء لسبقته العين !

وتقول العرب : إن العين تسرع بالإبل إلى أوصامها ، وبالرجال إلى أسقامها .

ابن حنيف

ونظر عامر بن أبي ربيعة إلى سهل بن حنيف يستحم ، فقال : ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة ! قال : فلُبط به ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم عامرَ ابن أبي ٥ ربيعة أن يتوضأ له ثم يطهره بمائه ، ففعل ، فقام سهل بن حنيف كأنما أنشط من عقال .

أبيات فى الطب وجدناها فى كتاب فرج بن سلام

النانخاه بشيرَج ملتوتٍ ٭ فيه شِفاءٌ للرياح نُميتُ

يغلى لذلك حلْبةٌ فى مائها ٭ يُسقاهُ مُصطَبِحاً وحين يَبيتُ

١٠ وقال :

ليسَ شىءٌ أنقَى عن الجسْم للـــريح منَ الأنجدان والمَحْروث

وقال :

فى الحُرف سَبْعُونَ دواءٌ وفى الـــكَمُّونِ فيما قيل سِـــتُّونا

قد قالهُ هُرْمُسُ فى كُتبِهِ ٭ فلا تَدعْ حُـــرفاً وكَمُّونا

١٥ وقال :

بسعتر بَرٍّ داوِ كل مُبَلْغَمٍ ٭ وذا المِرّةِ الصَّفراءِ بالرازيانِق

وذو المِرّةِ السَّوْداءِ ذاكَ علاجُهُ ٭ تعاهُدُ فصْدِ العِرقِ من كفِّ حاذق

وذو الدّمِ فليُكثِرْ لذاكَ حِجامَةً ٭ فما غيرُها شىءٌ له بموافق

وقال :

٢٠ لا تكنْ عندَ أكلِ سُخنٍ وبهرٍ ٭ ودُخولِ الحمامِ تشرَبُ ماءَ

فإذا ما آجتَنَبتَ ذلكَ منهُ ٭ لم تخف ما حييتَ في الجوفِ داءَ

وقال :

إن أردتَ الرُّقادَ فى الليلِ فاجعلْ * قُطْنَةً عندَه على الأذُنَيْنِ
فيه تظهرُ السـلامَةُ لِلأذْ * نينِ ممـا يَضُرُّ بالعَيْنَيْنِ

وقال :

لا تشرَبِ الماءَ بعدَ النَّومِ من ظَمَأٍ * ولا تَبِتْ أبداً من غير منتفض ٥
لجوْفُ مَن باتَ من ماءٍ ومن ثِقَلٍ * ومن رِياحٍ دَعا كلاًّ إلى مرضِ

وقال :

أحسُ فى الحمامِ ماءً مُسخَناً * وليَكُنْ ذلكَ فى البيتِ السّخنْ
يسلَمُ البطْنُ منَ الدّاءِ ولا * يعتَريهِ وجعٌ طولَ الزّمَنْ

وقال : ١٠

إن دخلتَ الحمامَ فاضرِب على رأ * سِكَ بالماءِ السُّخْنِ سبْعَ مِرارِ
فيه تَظهَرُ السلامةُ من كلِّ صُداعٍ بِقدرَةِ الجبار

وقال :

لا تجامِع ، ولا تَمطى ، ولا تَدْ * خل ـ إذا ما شبِعتَ ـ فى الحمامِ
فهُو دفعٌ لكلِّ مايتّقيهِ الـ * ـمَرْءُ من فالجٍ وكلِّ سقام ١٥

وقال :

ما كان فى الرأسِ أخرِجهُ بغَرْغَرةٍ * والقَىْءُ يُخرِجُ ما فى الصدر من عَفَنِ
وكلُّ ما كانَ فى صلب فذلِكَ لا * يسيلُ إلا بأخلاط مِنَ الحقَنِ

وقال :

على الريقِ فى البردِ أحسُ ماءً مُسخَّناً * وفى الصيفِ ماءً بارِداً حين تصبحُ ٢٠
وذلك فيما قيــل فيه مَصَحّةٌ * وذاكَ على إدمانِه الجسمُ يَصلح

وقال :

إنّ من باكرَ الغَداء وبَعدَ الْ ... عصْرِ منه تعاهُــدٌ للعشاء

فبإذْنِ الإلهِ يبقى صحيحاً ... سالماً فى الحياةِ من كلّ داء

وقال :

٥ إنّ رأسَ الطّبّ أنْ تَد ... لكَ بالزّئبَقِ دَلْكا . . .

. . . باطِنِ الرّجليْنِ عندَ النومِ يَنفِى السّــقْمَ عَنْكا

وقال :

شجرُ البَراغيثِ الكَريهُ مَشمُّه ... يُبرِى بإذنِ الله من داءِ الجبَن

وقال :

١٠ إنّ السّواكَ ليُستَحبُّ لِسنّة ... ولأنه مما يَطيبُ به الفَمُ

لم تخشَ من حَفَرٍ إذا أدمَنْتَهُ ... وبه سيلُ من اللّهاةِ البلغَم

وقال :

أحْتَجِمْ بين كلّ شهرينِ ولْتأ ... فِ على أثرةٍ من الأيامِ

سبْعةً منكَ للزّبيبِ بلا عجـ ... ـمٍ تُبَدّيهِ قبــلَ كلّ طعام

١٥ فهْو للعينِ واللّهاةِ وللحلْـ ... ـقِ أمانٌ لهــا مِنَ الأسقام

وقال :

ولا تُغط الرأسَ فى وقتٍ ما ... تخرُجُ من الحمامِ وأخشَ الضَررْ

إنّ بُخارَ الرأسِ فى وقتِ ما ... وصَفْتهُ داءٌ يُصيبُ البصَرْ

وقال :

٢٠ إنّ الجماعَ على الحمامِ مَصَحّةٌ ... ولذاذَةٌ تاهت على اللذّاتِ

وقال :

السمَكُ المالحُ إن لم يكنْ ... بُدٌّ من الأكلِ له فانعِمِ . . .

... بالطبخ أكثرْ زيْتَهُ ثم كُلِ * من قبلُ مأدُوماً مَن المطعَمِ

وقال :

أطِلِ منكَ الشَعْرَ كلّ أربعاءِ لا يدورْ
ولْيكنْ غَسْلُك بالُبا * ردِ منهُ والطّهُور
إنه يَزْعَرُ منـــهُ * شعَرُ الجسمِ الكثير ٥
إنّنى طَبٌّ بمـا يَجـ * ـهَلهُ الناسُ خبير

وحدث محمد بن إبراهيم الوراق قال : حدثنى محمد بن عبيد الله بن الحارث ابن إسحاق بمصر قال : حدثنا محمد داود بن ناجية قال : حدثنا زياد بن يونس الحضرمى عن محمد بن هلاك المدنى عن أبيه عن أبى هريرة قال :

الرسول صلى الله عليه وسلم وشاكية من زوجها

١٠ جاءت امرأةٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تشتكى زوجها ، فقال : إنها تذكر كثرة الجماع ؛ قال : يارسول الله ، أفأزنى ! قال لا ، ولكن إذا جاءنا سَبْىٌ فتعال حتى نُعطيَك جارية . فقدم عليه سبىٌ ؛ فجاء إليه فقال له : يارسول الله ، وعْدى . فقال له : اختر ! فقال له : اختر لى . فقال : خذ هذه ، فإنى أراها زرقاء ، فلعلها . . . قال : فما لبثنا أن جاءت المرأة فقالت : يارسول الله ، ١٥ مازاده الأمر إلا تجدُّدا . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ما هذا ؟ فقال : يارسول الله ، أفأزنى ! قال : لا . ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لعلك تكثر الاطّلاء . قال : نعم . قال : فأقل طلاءك يقلّ جماعُك .

لابن ناجية

قال محمد : قال لى ابن ناجية : وأنا كما ترانى شيخ كبير ، قد أتى علىّ ثمانون سنة ، إذا أحببت الوطء اطّليت فى كل خمس عشرة ليلة .

الهـــدايا ٢٠

لسعيد بن حميد

كتب سعيد بن حميد إلى بعض أهل السلطان فى يوم النيروز :

« أيها السيد الشريف ، عشتَ أطوال الأعمار بزيادة من العمر موصولة

بقرائنها من الشكر ، لا ينقضى حق نعمة حتى يجدد لك أخرى ، ولا يمر بك يوم إلا كان مقصراً عما بعده ، موفياً عما قبله . إنى تصفحت أحوال الأتباع الذين تجب عليهم الهدايا إلى السادة [فى مثل هـذا اليوم] ، فالتمست التأسّى بهم فى الإهداء ، وإن قصرت بى الحال عن الواجب ، [فرأيت] أنى إن أهديت نفسى فهى ملكٌ لك ، لا حظ فيها لغيرك ؛ ورميت بطرْفى إلى كرائم مالى ، فوجدتها منك ، فكنت إن أهديت منها شيئا كالمهدى مالك إليـك ؛ وفزعتُ إلى مودتى فوجدتها خالصة لك قديمة غير مستحدثة ، فرأيتى إن جعلتها هديتى لم أجدد لهذا اليوم الجديد برًّا ولا لطفاً ؛ ولم أميز منزلة من الشكر بمنزلة من نعمتك ، إلا كان الشكرُ مقصراً عن الحق ، والنعمة زائدة على ما تبلغه الطاقة ؛ فجعلت الاعتراف بالتقصير عن حقك هدية إليك ، والإقرار بمـا يجب لك برًّا أتوصل به إليك ؛ وقلت فى ذلك :

إن أُهدِ مالا فهْو واهبه * وهْو الحقيقُ عليه بالشكرِ

أوأُهدِ شكْرى فهْو مُرْتهنٌ * بجميلِ فعلِكَ آخر الدهرِ

والشمْسُ تستَغْنِي إذا طلعَتْ * أنْ تَستضِيء بِسُنّةِ البدرِ

وكتب بعض الكتاب إلى بعض الملوك :

لبعض الكتاب

النفسُ لك ، والمـال منك ، والرجاء موقوفٌ عليك ، والأمل مصروف نحوك ؛ فـا عسى أن أهدى إليك فى هذا اليوم ، وهو يوم سهلت فيه العادة ، سبيل الهدايا للسادة ؛ وكرهت أن نخليه من سنته ، فنكون من المقصرين ؛ أو أن ندعى أن فى وسعنا ما يفى بحقك علينا ، فنكون من الكاذبين ؛ فاقتصرنا على هـدية تقتضى بعضَ الحق ، وتنْفى بعض الجفوة وتقومُ عندك مقامَ أجلِ البر ؛ ولا زلت أيهـا الأمير دائمَ السرور والغبطة ، فى أتم أحوال العافيـة ، وأعلى منازل الكرامة ، تمرُّ بك الأعياد الصالحة والأيام المفرحة ، فتُخْلِقها وأنت جديد تستقبل أمثالهـا ، فتلقاك ببهائها وجمالها ؛ وقد بعثت

الرسول بالسكّر لطيبه وحلاوته ، وتركت السفرجل لفأله ، والدرهم لبقائه على كل من ملكه[1] ؛ ولا زلتَ حلوَ المذاق على أوليائك ، مُرًّا على أعدائك ، متقدما عند خلفاء الله الذين تليق بهم خدمتُك ، وتحسن أفنيتَهم بمثالك .

وقد جمعنا فى هذه القصيدة ثناء ومسرّة واعتذاراً وتهنئة وهى :

عاطِ فى المهرجان كأسا شَمولا * وأطعْنى ولا تُطيعنْ عَذولا ٥

فهو يومٌ قدكان آباؤك الغُـ * ـرُّ يُجِلُّونه محلًّا جليـــلا

إن للصيف دولةً قد تقضّت * وأراك الشتاء وجهاً جميلا

وتجلّت لك الرياضُ عن النَّو * ر فكانت عن كل شىء بَديلا

فتمتّع باللهو ، لا زلتَ جذْلا * نَ وطرف الزمان عنك كليلا

لم أجدْ لى هديّة حين حصّلْـ * ـتُ كثيراً ملَكْتُه وقليلا ١٠

يَعدل الشكرَ والثناء ، وإن لم * يكُ شكرى لِمـا أتيتَ عديلا

لجعلتُ الذى أطيقُ من الشكـ * ـر على ما عجزتُ عنه دليلا

يا لَهـا من هديّة تُقنِـع المُهـ * ـدَى إليه ولا تُعنِّى الرسولا

لبعض الشعراء

وكتب بعض الشعراء إلى بعض أهل السلطان فى المهرجان :

هذه أيام جرت فيها العادة ، بإلطاف العبيد للسادة ، وإن كانت البضاعة تقصّر عما تبلغه الهمة ، فكرهت أن أهدىَ فلا أبلغ مقدار الواجب : فجعلت هديتى هذه الأبيات ، وهى : ١٥

ولمّـا أن رأيتُ ذوى التصافِى * تبـاروْا فى هدايا المِهرجانِ

جعلتُ هديّتى وداًّ مُقيما * على مَرّ الحوادث والزمان

وعبـداً حين تـكرِمُه ذليلا * ولـكنْ لا يَقَرُّ على الهوان ٢٠

يَزيدك حين تُعطيه خُضوعا * ويَرضَى من نَوالك بالأمانى !

---

(١) فى بعض الأصول : « لبقائه عندكل من ملكه » .

لأبي العتاهية

وأهدى أبو العتاهية إلى بعض الملوك نعلا وكتب معها :

نعلٌ بعثتُ بهـا لتلبسها * رجلٌ بها تسعى إلى المجد
لو كان يصلحُ أن أشرّكها * خدّى جعلتُ شراكها خدّى

لعلي بن الجهم

وأهدى عليّ بن الجهم كلبا ، وكتب :

٥ أستوصِ خيراً به ، فإن له * عندى يَداً لا أزال أحمَدُها
يدلُّ ضيفى علىَّ فى غَسَق الليـ * ـل إذا النار نام مُوقدها

لأحمد بن يوسف

أهدى أحمد بن يوسف ملحاً مطيّباً إلى إبراهيم بن المهدى ، وكتب إليه :
الثقة بك سهّلت السبيلَ إليك ، فأهديتُ هدية من لا يحتشم ، إلى من لا يغتنم .

لابن المهدى

١٠ وأهدى إبراهيم بن المهدى إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلى جراب ملح وجراب أشنان ، وكتب إليه :

لولا أن القلة قصّرت عن بلوغ الهمة لأتعبت السابقين إلى برّك ، ولكن البضاعة قعدت بالهمة ، وكرهتُ أن تُطوَى صحيفة البر ، وليس لى فيها ذكر ؛ فبعثت بالمبتـدإ به ليُمْنه وبركته ، والمختوم به لطيبه ونظافته ؛
١٥ وأمّا ما سوى ذلك فالمعبِّر عنا فيه كتاب الله تعالى إذ يقول : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضَى ولا على الذين لا يَجدون ما يُنفقون حرجٌ . . . ﴾ إلى آخر الآية .

وكتب إبراهيم بن المهدى إلى صديق له :
لو كانت التحفة على حسب ما يوجبه حقُّك ، لأجحف بنا أدنى حقوقِك ؛
٢٠ ولكنه على قدر ما يُخرج الوحشة ويُوجب الأنس ، وقد بعثتُ بكذا وكذا .

من رجل إلى المتوكل

وكتب رجل إلى المتوكل على الله وقد أهدى إليه قارورة من دهن الأترج :
إن الهدية يا أمير المؤمنين ، إذا كانت من الصغير إلى الكبير فكلما لطفت ودقت كانت أبهى وأحسن ، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت

وجلّت كانت أنفعَ وأوقع ؛ وأرجو أن لا تكون قصُرتْ بى همّةٌ أصارتْنى إليك ، ولا أخّرنى رشادٌ دلنى عليك ، وأقول :

ما قصَّرتْ همّةٌ بلغتُ بها * بابك يا ذا الندى وذا الكرمِ

حسْبى بوُدّيك إن ظفرتُ به * ذخراً وعزّا يا واحد الأمم

لحبيب أهدى حبيب بن أوس الطائى إلى الحسن بن وهب قلما ، وكتب معه إليه هذه الأبيات : ٥

قد بَعثنا إليك أكرمك اللهُ بشىء فكن له ذا قَبولِ

لا تَقسْه إلى نَدا كفِّك الغَمْـــر ولا نيْلك الكثير الجزيل

فاســتَجزْ قلّةَ الهديّة منى * فقليل المُقلّ غير قليـــل

لابن عبد ربه ومن قولنا فى هذا المعنى وقد أهديتُ سلة عنب ومعها : ١٠

أهديتُ بِيضاً وسُوداً فى تلوُّنها * كأنها من بنات الروم والحبَش

عذ اء تُؤكَل أحياناً وتُشرب أحـ * ـياناً فتَعصم من جوعٍ ومن عطش

وأهديت حُوتين وكتبت معهما :

أهديتُ أزرقَ مقروناً بزرقاء * كالماء لم يغْذُها شىء سوى الماء

ذَكاتها الأخْذ ، ما تنفكّ طاهرةً * بالبرّ والبحر أمواتاً كأحياء ١٥

وأهديتُ طبقَ وردٍ ومعه :

رياحينُ أُهديها لريحانة المُنَى * جنتْها يد التّخجيل من حُمرة الخدّ

وورْدٌ به حيِّيتُ غُرّة ماجــدٍ * شمائله أذكى نسيما من الورد

ووشْىُ ربيعٍ مشرق اللون ناضر * يَلوح عليه ثوب وشْى من الحمد

بعثتُ بها زهراء من فوق زهرةٍ * كتركيب معشوقيْن خدًّا على خدّ ٢٠

وكتبت على كأس :

أشربْ على منظرٍ أنيقِ * وآمزُج بريق الحبيب ريقى

وآحلُلْ وشاحَ الكَعاب رفقاً * وآحذرْ على خصرها الرقيق
وقل لمن لام فى التّصابى * إليك ! خلّ عن الطريق

لابن أبى طاهر

وأنشد أحمد بن أبى طاهر فى هذا المعنى :

ما ترى فى هديّة من فقير * حِيل ما بينه وبين اليسار
٥ ترك المـالَ والهدايا إلى النا * س، وأهدى غرائبَ الأشعار
مُحكَمات كأنها قِطع الرو * ض تحلّت أنواره بالنّهار

المهلبى

وأنشد ابن يزيد المهلبى فى المعتمد .

سيَبقى فيك ما يُهدِى لسانى * إذا فَنِيَت هدايا المهرجانِ
قصائد تَملأ الآفاقَ مما * أحلَّ اللهُ من سحر البيان

لبعضهم

١٠ وقال آخر :

جُعلتَ فداك ، للنيْروز حقٌّ * وأنت علىّ أوجب منه حقّا
ولو أهديتُ فيه جميع مِلكى * لكان جميعه لك مُستَرَقا
وأهديتُ الثناء بنظم شعر * وكنتَ لذاك منى مستحقا
لأن هديةَ الألطاف تفنَى * وإن هدية الأشعار تبقى

لحبيب

١٥ وقال حبيب :

فو اللهِ لا أنفكُّ أُهدِى شوارداً * إليك يُحمِّلنَ الثناء المنخَّلا
ألذَّ من السلوى وأطيبَ نفحةً * من المسك مفتوقا وأيسر مَحْملا

لمروان بن أبى حفصة

وقال مروان بن أبى حفصة :

بدولةِ جعفر حُمِدَ الزمان * لنا بك كلَّ يومٍ مهرجان
٢٠ جعلتُ هديتى لك فيه وشياً * وخير الوشى ما نَسَج اللسان

لابن أبى طاهر

وقال أحمد بن أبى طاهر :

مِن سُنّة الأملاك فيما مضى * من سالف الدهر وإقباله

هدية العبـــد إلى ربّه * فى جِدّة الدهر وأحواله
فقلتُ ماأُهدى إلى سيدى ؟ * حالى وماخُوِّلتُ من حاله
إن أُهدِ نفسى فهى من نفسه * أو أُهدِ مالى فهو من ماله
فليس إلا الحمدُ والشكر والْـ * ـمدح الذى يبقَى لأمثاله

الحمدونى — وقال الحمدونى وأهدى إليه سعيد بن حُميد أُضحيّة مهزولة : ٥

لِسعيد شُـــوَيهةٌ * نالها الضُرّ والعَجَفْ
فتغنّت وأبصرتْ * رجلا حاملا علَف :
« بأبى مَن بكفّه * بُرْءُ دائى من الدّنَف »
فأتاها مطمّعـــا * فأتتـــه لتعتلِف
ثم ولّى فأقبلتْ * تتغنّى من الأسَف : ١٠
« ليْته لم يكن وقفْ * عذَّبَ القلبَ وانصرف »

وقال الحمدونى : كتبتُ إلى الحسن بن إبراهيم ، وكان كل سنة يبعث إلىّ بأُضحية ، فتأخرت عنى سنة ، فكتبتُ إليه :

سيِّدى أعرَض عنِّى * وتناسَى الوُدَّ منى
مرّ بى أضحى وأضحى * أخلَفانى فيه ظنى ١٥
لا يَرانى فيهما أهـ * ـلا لظِلْفٍ ولقَرن
فتغــذّيتُ بيأسٍ * ثم ضحّيتُ بجُبْن
واصطَبحتُ الراحَ يوما * ثم أنشدتُ أُغنِّى :
لا لجُرْمٍ صدّ عنى * صـدّ عنى بالتجنّى

هدية للمأمون — أهدت جارية من جوارى المأمون تُفاحة له ، وكتبت إليه : ٢٠

إنى يا أمير المؤمنين لمـا رأيت تنافُس الرعية فى الهدايا إليك ، وتواتُر ألطافهم عليك ، فكرت فى هدية تخف مؤونتها ، وتهون كلفتها ، ويَعظم خطرها ،

ويجلُّ موقعُها ؛ فلم أجد ما يجتمع فيه هـذا النعت ، ويكْمُل فيه هذا الوصف ، إلا التفاح ؛ فأهديت إليك منها واحدة فى العَدد ، كثيرة فى التصرُّف ؛ وأحببت يا أمير المؤمنين أن أُعرب لك عن فضلها ، وأكشف لك عن محاسنها ، وأشرح لك لطيف معانيها ، وما قالت الأطباء فيها ، وتفنُّن الشعراء فى أوصافها ، حتى ترمقَها بعين الجلالة ، وتلحظَها بمقلة الصيانة ؛ فقد قال أبوك الرشيد رضى الله عنه : أحسنُ الفاكهة التفاح ، اجتمع فيه الصفرة الدُّرِّية ، والحمرة الخَمْرية ، والشُّقْرَة الذهبية ، وبياض الفضة ، ولون التبر ؛ يَلذ بهـا من الحواس : العينُ ببهجتها ، والأنفُ بريحها ، والفمُ بطعمها . وقال أرسطاطاليس الفيلسوف عند حضوره الوفاة ، واجتمع إليه تلاميذه : التمسوا لى تفاحة أعتصم بريحها ، وأقضى وطرى من النظر إليها . وقال إبراهيم بن هانئ : ما عُلِّلَ المريض المبتلَى ، ولا سكنت حرارة الثكلى ، ولا رُدَّت شهوة الحبلى ، ولا جُمعت فكرة الحيران ، ولا سكنت حنْقة الغضبان [1] ، ولا تحيَّتِ الفتيان فى بيوت القيان ، بمثل التفاح . والتفاحة يا أمير المؤمنين ، إن حملتَها لم تؤذِكَ ، وإن رُميتَ بها لم تؤلمك ؛ وقد اجتمع فيها ألوان قوس قزح ، من الخضرة والحمرة والصفرة ؛ وقال فيها الشاعر :

حُمْرةُ التُّفّاح مـــع خُضرتِه * أقربُ الأشياء من قوسِ قُزَحْ
فعلَى التفاح فاشربْ قهوةً * واْسقِنيها بنشاطٍ وفـــرح
ثم غنّـــِى لِكىْ تطربَنى * طرْفُك الفتَّانُ قلبى قد جَرَح

فإذا وصلتْ إليك يا أمير المؤمنين ، فتناولها بيمينك ، واْصرِفْ إليها بغيتك ، وتأمل حسنَها بطرفك ، ولا تخدشها بظفرك ، ولا تبعدها عن عينك ، ولا تَبذلها لِخدمك ؛ فإذا طال لُبثُها عندَك ، ومُقامُها بين يديك ، وخفتَ أن يرميها الدهر بسهمه ، ويَقصِدها بصرفه ، فتذهبَ بهجتُها ، وتحيل نضرتها ، فكُلها :

* هنيئاً مريئاً غيرَ داءٍ مُخامِرِ *

(١) فى بعض الأصول : « ولا سلت حسيفة الغضبان » .

والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

للعباس الهمداني

وكتب العباس الهمداني إلى المأمون في يوم نيروز :

أَهْدَى لك النـاسُ المَرا * كِبَ والوَصائفَ والذَّهَبْ

وهديَّتى حُـــلْوُ القَصا * ئِدِ والمَـــدائح والخُطب

فاسلَمْ سلِمْتَ على الزما * نِ منَ الحوادثِ والعَطَب

فقال المأمون : احملوا إليه كلّ ما أُهدِىَ لنا فى هذا اليوم !

تم الجزء السابع

ويليه إن شاء الله الجزء الثامن ، وهو الأخير

وأوله : كتاب الفريدة الثانية فى الطعام والشراب

فهرس الجزء السابع: من العقد الفريد

صحيفة

صحيفة

٧٦ كتاب المرجانة الثانية :

تمّ الفهرس